أحمد الحمروني

تستور

وثائق و دراسات

MEDIACOM ميدياكوم

سلسلة مدائن

تستور

وثائق ودراسات

4638947

961
حمر

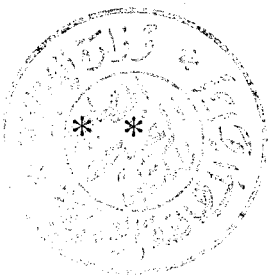

تأليف
أحمد الحمروني

تقديم
سليمان مصطفى زبيس

13850-

MEDIACOM

9, نهج الرائد البجاوي 2061 قرطاج درمش
الهاتف : 303 734 (1. 261) الفاكس : 319 720 (1. 261)
البريد الإلكتروني : E-Mail: mediacom@planet.tn

تدمك : 8 - 13 - 807 - 9973 : ISBN
الطبعة الأولى - تونس 1999

« يـا قلمـي تشجّـع !

ودون أن تـخـش لـومـة لائـم

اكتب بـلا مـواربـة،

فأصلـك من طليطلـة الشهيـرة،

أحسن مـدن إسبـانيـا

التي يروّي "التّـاج" الصافي باديتهـا.»

إبـراهيـم التيبـلـي / تستـور 1628 م

المحتـــوى

4638947
13850

تقديـم : س.م. زبيس 5
تمـهيـد 9
منهجيّة تاريخ تستور ومصادره 13
مواقع أثريّة حول تستور 21
كوريفا جارة تيكيـلا 28
طوبونيمياء محلّيّة 32
معـالـم 38
دفاتر الحالـة المدنيّة مصدرا لتاريخ تستور 49
كتب الرحلات مصدرا لتاريخ تستور 64
أهمّيّة الرّوايات الشّفويّة في إثراء تاريخ تستور 68
ثلاث قصائد لإبراهيم الرّياحي حول تستور 76
الدين والمجتمع في تستور 84
الجنّ والسّحر والخوف في مجتمع موريسكي : تستور 97
دور المرأة في مجتمع موريسكي : تستور 104
عـــادات 111
أدب شعبـي 135
حرفـة "الشـعـر" 169
مساهمة تستور ومدن التلّ الغربي في ثورة 1864م 173
مساهمة تستور في الحركة الوطنيّة 184
أعـــــلام 186
التنشيط الثّقافي في محيط تراثي : مثال تستور 196
ذكـرى تستور 201
مراجع مضـافـة 205
Préface : H. Eckert 3
Testour 4
Peur et pratiques occultes à Testour 7

إلى المهاجرين

تـقـديـــم

الأستاذ سليمان مصطفى زبيس

هذه تستور وهؤلاء التّستوريّون...

هذه تستور البلدة الأندلسيّة الوحيدة التي وجدناها محافظة على طابعها وميزتها الإسبانية الصّرفة ولغتها وعوائدها التي كادت تكون واحدة بينهما وبين سائر المدن والقرى الإيبيريّة.

فعندما نمرّ في أزقّتها تلوح لنا قبل كلّ شيء صوامع جوامعها التي هي في الحقيقة مخالفة لصوامعنا التونسية، إذ أنّها تشبه كثيرا الأبراج المسيحيّة الحاملة للأجراس. وإذا ما تابعنا السّير رأينا كذلك السّقوف المغطّاة جميعها بالقرمود الإسباني، ذلك القرمود الشوّاط المطبوخ في الأفران على ضفّة مجردة، حيث الآثار القائمة إلى اليوم. كما نشاهد السقوف تفوق بقدر كبير الحيطان، إذ يجعلون منها شبه ستارات لها.

أمّا الطّرق فكلّها تتقاطع على نمط رقعة الشطرنج من أعلى الرّبوة التي بنيت عليها البلدة إلى أسفل ضفاف النّهر. وهناك ميزة تشترك فيها تستور مع المدن الأندلسية، وهي تتمثّل في جدران الجوامع الثلاثة : جامع الرّحيبة أقدمها، والجامع الكبير الحالي، وجامع عبد اللّطيف، التي أحدثوا فيها أمكنة فراغ حشيت بمادّة خفيفة ولبّس خارجها، وذلك للتّخفيف من وزنها. وممّا يلفت النّظر أن جميع السّقوف مغطّاة بقرميد في الخارج، وتظهر في الداخل على النمط التالي : مساحة فرشت بعود السرداوي أو بعود العرعار القريب جدا من بعضه بعد أن لبّس بخيشة وضع عليها جبس طلي قبل جفافه. وهذه طريقة أندلسية قد وجدناها في بلدة إسبانية لم تعمّر. وهي طريقة تجمع بين تخفيف الوزن على الجدران واستعمال أيسر المواد وأكثرها وجودا وأقواها وأرفقها ثمنا. فإذا دخلنا المنازل وجدناها على نمط واحد تقريبا : وسط دار مبلّط، في وسطه شجرة ليمون، وفي أركان وسط الدّار شجرة ياسمين أو فلّ أو حنّاء. وأحيانا توجد أمكنة زرعت فيها الورود والعنبر وجانب خدّوجة والقرنفل والقطمير والحبق والآس. وفي صورة اليسر

وغاية التحضّر توجد أحيانا نبتة أو أكثر من عنبر الليل. ولا يزاد على القدر منه لصعوبة إنتاجه ووفرة العناية به. وتدور بوسط الدّار هذا غرف أربع أو ثلاث. يتقدّم الغرفة القبلية، وهي أهمّ الغرف في المنزل، رواق ذو ثلاثة أقواس أو أربعة. وفي صدر الغرفة إيوان يتقدّم عليه قوس مصنوع على الشكل الأندلسي. كما يتقدّم مثل ذلك القوس على مقصورة النّوم، على يمين الرّواق المذكور. ومثل ذلك أحيانا إذا وجدت مقصورة ثانية على اليسار. وهناك باب يفضي إلى الكران(corral)، وهو براح للدواب، فيه مكان يستراح فيه، وأمكنة لربط الدواب وأمكنة لوضع المدّخرات الخشنة كالحطب والعلف والمتروكات المنزلية وغيرها، وله باب ثان تخرج منه الدواب، وهو مقابل باب الدار ولكنه في الزّقاق الآخر. وهناك مدرج يرقّيك إلى باب يفتح على غرفة فسيحة في الطابق العلوي، اتخذها صاحب المنزل كمخزن لخزن الدقيق والجبن والسّمن والزّيت والعسل والخضر المصبّرة والمجفّفة، وكذلك لخزن الحبوب من قمح وشعير وحمص وفول وأدوات للرشّ كماء الورد والياسمين والعطرشاه والعنبر والنسرين.

هذا وأنّ أصحاب تستور، أصل مجيئهم من شرق الأندلس. فهم إمّا من بلنسية (بلنسين أحد ناسخي "صحيح البخاري" بجامع تستور) أو من الجهات المتاخمة لأراغون وكاطالونيا (تغارينو : الثغري باني الجامع الكبير). ونذكر كلام السّيد دي لاسرنا سفير إسبانيا في تونس عندما شاهد النّاس يتجوّلون في شوارع السّلوقية (قرية أندلسيّة قريبة من تستور) فقال : " لا فرق بين هؤلاء وسكان قرية إسبانية إلاّ اللباس، لانسجام الهيئة والطّول وتلاؤم السحنة. وما هو صحيح في السّلوقية صحيح في تستور ".

وبتستور سوق تعقد مرّة في الأسبوع يوم الجمعة. يأتيها النّاس من القرى الأندلسيّة المجاورة. فهي بالنسبة لهم كالعاصمة الجهوية، يؤمّونها أوّلا لصلاة الجمعة، وثانيا لإبرام كتب بيع أو كراء أو قران أو مقابلة القاضي أو زيارة أحد الذّكاكين لاشتراء لوازم الفلاحة أو تصليحها أو اشتراء ما يلزم من الأكل واللباس. كلّ ذلك بعد أن يمرّ المتسوّق على سوق الدّواب لبيع خروف أو شراء دابّة للحرث. هذا ويحمل كل فرد منهم لقبا إسبانيّا يحتفظ به ويعتزّ، مثل ماركو ومركيكو وبنطور وجبيس (وهو مقابل Lopez في شرقي الأندلس) ومريشكو

ومرتينش ومتشينش وألكانتي وألكوح وأرويش وبارين وباتيس ورمتانة وبكيل وبنتيرون وبوريقة وسابورتة وشاكيرو وصاي وشركينو (أو شركينة أو شركين) ودانة ودرمول وفيليبو والجورجي والكوندي وككورو وكريستو والليشرو والليشو ومكاريرو والرّيو ورنيون وسيريسو وساباطة وطباريرو وطالونشة وتريبيليا. وهناك من عرفوا بنسبتهم العربية كالدّاني والهنديلي، وآخرون احتفظوا بأسمائهم العربية كالمنارة والمدينة وجهين (Jaen) والزّعفران.

وكانت الأراضي، التي كانوا يستغلّونها، شاسعة جدّا، تمتدّ من هنشير البرقين في أقصى الغرب على ضفاف مجردة إلى الشّرق، حيث يقوم الحدّ بين ممتلكات تستور وممتلكات السّلوقية، وهو هنشير سيريسو.

ولنقف عند هذا الحدّ لنترك المجال لابننا الباحث أحمد الحمروني للحديث عن تستور، تلك البلدة الجميلة، وعن أهلها الميامين.

تونس في جوان 1992

سليمان مصطفى زبيس

تمهيد

نشأت على حبّ لموطني تستور[1] يدعوني إلى الاعتزاز بها ويحفزني لاستكناه مخزونها، وقد كنت أجد ما يشوّقني إلى ذلك فيما سمعت من حكايات وأنا صبيّ، ثمّ أصبحت أدرك تميّز معمارها عن المدن التي زرتها وأنا شاب، وإذا بذلك الشّعور يتحوّل إلى تفكير وبحث حتّى جاءت السّبعينات بمهرجان المالوف الذي أصدر في دورتيه الثانية سنة 1968 والثالثة سنة 1969 نشريّة " تستور" بإشراف المربّي والرّوائي محمّد المختار جنّات، وفيها معطيات أوّليّة عن تاريخ تستور وعاداتها، ولكنّها غير محقّقة وغير كافية، لذلك أردفتها البلدية بعناية رئيسها التّيجاني بن حرشة بنشرة ثانية لدراسة جورج مارسي عن " تستور وجامعها الكبير"، فعدت إلى نشرتها الأولى في "المجلّة التونسية" ثمّ إلى تعريب سليمان مصطفى زبيس لها في مجلّة "الثريّا"، ووجدت فيها رغم قدمها معلومات يصحّ اعتمادها لمزيد إثرائها. وكان إصدار هذه الدّراسة إعدادا للأيّام العالمية المعمارية التي انتظمت بتستور، ومواكبة لحضائر التّرميم التي مسّت أكثر من معلم أثري. وكان نتيجة هذه المجهودات المحلّية أن التفتت أنظار الباحثين إلى تستور وتوجّهت بالخصوص إلى الجانب المعماري من تراثها.

وهكذا وجدتني أجمع تلك الدّراسات وأقرأها باهتمام ونقد، وأعود إلى المراجع التي أحالت عليها، وأجالس الشّيوخ وخاصّة المرحوم الحاج محمّد جهين الذي لم يبخل عليّ بجواب أو رأي كلّما استطاع، وكان ذاكرة لعادات الأندلسيين ممجّدا لمآثرهم، ولا غرابة أن يكون أحدهم مثلهم مدافعا عن تفوّقهم إلى حدّ يثير الاختلاف اللطيف بيننا.

وصادف خلال السّبعينات أن أقام بيننا أستاذ الأنتروبولوجيا الأمريكي نيكولا هوبكنز لدراسة تطوّر نمط الإنتاج، وقد أفضت علاقتنا إلى الاهتمام

---

(1) تشمل المنطقة البلديّة 298 هك وتعدّ 12.351 نسمة، حسب إحصاء 1994، مقابل حوالي 8.000 سنة 1980، دلالة على نموّها السكّاني والسكني.

بالروايات الشفويّة كمصدر لكتابة التاريخ وفهم عقليّة المجتمع برموزها، بقطع النّظر عن مدى موافقتها للأحداث التاريخية الواردة في المصادر المكتوبة.

وكان عليّ، وقد تعلّق اهتمامي بتاريخ تستور، أن أسعى إلى إثرائه بدراسة ما لم يدرس من مظاهره بالبحث عن أدوات عمل جديدة وأنواع أخرى من المصادر لإضافة جديدة، فوجّهت عنايتي إلى المخطوطات كتبا ووثائق مفهرسا ومستغلاّ لها، رغم صعوبات الوصول إليها والأوضاع المؤلمة التي وجدتها فيها، باستثناء من قدّر عملي وساعدني، بينما ظلّ الآخرون يتبجّحون بما عندهم ويمنعون النّور عنه حتى تقضي الأرضة والرّطوبة والأغبرة عليه، ولو قدّر بثمن لفرّطوا فيه طمعا، وأعجب منهم من ادّعى ما لا يملك محافظة على مكانة يوهم النّاس بها.

وعلى كلّ فقد ساعدتني تلك المخطوطات على تأريخ بعض المؤسّسات الدّينية التي حبّست عليها، وعلى معرفة حرفة النّسخ وفترة رواجها وأشهر القائمين بها، ودلّت مواضيعها على نوعيّة الثّقافة السّائدة في فترة سابقة من تاريخ تستور رغم غلبة الطّابع الفلاحي عليها، كما دلّت أخطاء الرّسم وأنواع الخطّ على مستوى التّعليم آنذاك، بينما دلّت الوثائق على أسماء العائلات الأندلسيّة وغيرها وعلى العلاقات بينها.

ثمّ تحوّل اهتمامي إلى نقاش المباني والقبور فدوّنتها وقارنتها بالمطبوع منها واستعنت بها في تدقيق بعض التّواريخ المتعلّقة بالأعلام والمؤسّسات والأحداث، كما اهتممت بتقارير الرحّالة الأجانب ترجمة ودراسة لما تضمّنت من شهادات حيّة، متعاقبة في الزّمن، تساعد على تصوّر تطوّر تستور.

ومع ذلك فقد بقيت جوانب أخرى من تراثها لم أستطع فهمها وإنارتها إلاّ بالمقارنة، فتأكّد عليّ الاطلاع على أهمّ الدراسات المتعلّقة بالأندلسيين أو بمظاهر من ثقافتهم في غير تستور من المدن التي أسّسوها، وفي غير البلاد التونسية، وحتّى قبل تهجيرهم. واستعنت في ذلك بالمختارات التي جمعها ميكال دي إبلثا ورامون بتيت وبالتي جمعها س.م. زبيس وبمنشورات مؤسّسة عبد الجليل التّميمي بزغوان ومجلّة " دراسات أندلسية " لجمعة شيخة وبأعمال المختصّين في شؤون الموريسكيين.

وكان عليّ أن أتوخّى منهجيّة علميّة وموضوعيّة في كتابة تاريخ تستور ليكون لكلّ ذي حقّ حقّه سلبا وإيجابا، بلا تعصّب ولا نكران. فكانت هذه الدّراسات التي نشر جلّها قبل صدور كتابي : تستور/ تاريخ ورحلات (ميديا كوم، تونس 1994). وفيها عرّفت بمنهجيّة تاريخ تستور ومصادره، ودرست المواقع الأثريّة حولها اعتبارا لعلاقتها بها، واهتممت بالرّوايات الشّفويّة وكتب الرّحلات ودفاتر الحالة المدنيّة كمصادر تكميليّة لتاريخ تستور، وحقّقت قصائد لإبراهيم الرّياحي اعتمادا على نقائش مكتشفة لمعرفة أثر الأولياء الصّالحين في المجتمع المحلّي الذي كشفت عن حياته الدّينيّة والنّفسيّة مركّزا على دور المرأة فيه وحتّى على الجنّ والسّحر. كما بحثت عن الوثائق الدّالّة على مساهمة الجهة في ثورة 1864م ثمّ في الحركة الوطنيّة التحريريّة. وخصّصت بعض تلك الدّراسات لنماذج من الصناعة التّقليديّة والأدب الشّعبي والعادات والفنون، وعرّفت ببعض الأعلام، واقترحت برنامجا لتوظيف التراث في التنشيط الثقافي والسياحي.

ولقد أحجمت عن تنقيح الدّراسات المنشورة، إلاّ عند الضّرورة القصوى. وحرصت على أن يكون ذلك بارزا بين معقوفين [...].

فعسى أن تكمّل هذه الدّراسات المجموعة – ممّا سبق نشره أو ينشر لأوّل مرّة – الكتاب المنشور، وتتكامل مع دراسات أخرى لغيري، وتحفّز لدراسة ما لم يدرس من تراث تستور وحياة مجتمعها، ممّا يساعد على فهم الماضي لبناء المستقبل بالعمل الميداني الموفّق بين التنمية والهويّة. وهو ما ساهمت فيه خاصّة عن طريق الإعلام وفي نطاق مهرجان المالوف والمجلس البلدي، وأرجو شباب تستور مواصلته.

والله موفّق المخلصين

منهجيّة تاريخ تستور ومصادره(*)

معروف أنّ الهجرة الأندلسيّة الأخيرة إلى البلاد التونسيّة سنة 1609م قد أثّرت تأثيرا بالغا في تاريخ تستور ومظاهر الحياة بها بصفة ملحوظة إلى اليوم، غير أنّه من الخطإ المنهجي أن نواصل كتابة تاريخ هذه المدينة بالطّريقة التّقليديّة، أي من وجهة نظر أندلسيّة، وهذا يظهر في نطاق المقالات التي تكون ثمرة اتصال محرّرها ببعض الأعيان من أندلسيي تستور وفرصة ينتهزها هؤلاء لإبراز مكانة الأندلسيين إبراز التمجيد والافتخار، غاضّين الطرف عن بقيّة العناصر البشريّة التي تكوّن الخليط الذي نسمّيه مجتمع تستور. هذا فضلا عن سكّانها في عهد الرومان ومستوطنيها منذ تدهور تيشيلا الرومانيّة - الإسم القديم للمدينة - إلى مجيء المهاجرين الأندلسيّين.

لذا أصبح من الضروري إعادة كتابة تاريخ تستور بأسلوب جديد ينظر بعين الاعتبار لا إلى الذين لا ينكر أحد أهمّية رصيدهم في تراث المدينة فقط وإنّما يقدّر كذلك الإسهامات الجديدة غير الأندلسيّة. كما ينبغي أن يكتب هذا التاريخ وفق منهجيّة علميّة تعتمد تنويع المصادر والمراجع ومقارنتها. والمصادر هنا تكون مختارة حسب نوعية التاريخ الذي نريد كتابته، حيث لا يهمّنا تسلسل الأحداث بقدر ما نطلب التاريخ العام بالمعنى الأنتروبولوجي الذي يشمل التفاعل بين العوامل الجغرافيّة والتاريخ والمعطيات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة.

إنّنا ندعو إذا إلى كتابة موضوعيّة وعلميّة لتاريخ تستور، لا تقتصر على كلّ ما هو أندلسي وتنسى ما هو غير أندلسي، رغم تقلّص العنصر الأندلسي حجما وتأثيرا، ولا تهمل جانبا يضرّ بشموليّة التاريخ وعمقه، اعتمادا على مصادر متنوّعة ومتكاملة تمكّن من التغطية والمقارنة.

وتأتي في طليعة المصادر المكتوبة تقارير الرحّالة الأجانب. ذلك أنّ من حسن حظّ تستور أنّها استرعت انتباه الرحّالة والجغرافيّين وقادة البعثات العسكريّة،

(*) محاضرة ألقيت بدار الثّقافة بتستور يوم 1981/04/6 مدعّمة بالصور والمخطوطات والتّسجيلات، ونشرت بمجلّة الحياة الثّقافيّة ع 36-37 س 1985 ص 146-154.

خاصّة الفرنسيّين، الذين تجوّلوا في شمال إفريقيا وزاروا تونس، حيث لفت نظرهم الطابع المعماري الأندلسي المميّز لتستور، فاعجبوا به ووصفوه بأسلوب لا يخلو من الشاعريّة! ورغم ذلك تمكن الاستفادة من تلك التقارير باعتبارها أوّل ما كتب عن المدينة، إذ هي تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر وتمسح خاصّة كامل القرن التاسع عشر، لأنّ الرّحّالة والجغرافيين العرب لم يهتموا بها، إذ لم تعترض طريقهم إلى الحجّ والطلب والتجارة فضلا عن أنّها حديثة النشأة نسبيّا، فلم يصفها من المتأخّرين منهم غير الورثيلاني [والمكناسي][1]. وتبدو قيمة تلك التقارير رغم عفويتها، فضلا عن المظاهر الأندلسيّة الموجودة آنذاك، في إشارتها وتسجيلها لبقايا الآثار والنقائش الرّومانيّة المتناثرة، بحيث يمكن اعتماد تلك التقارير دليلا لمواصلة التنقيب عن معالم المدينة القديمة.

وعلى سبيل المثال نذكر منها كتابات ديفونتان[2] وبايسونال[3] وفيران[4].

---

(1) الحسين بن محمد الورثيلاني : نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ وعجائب الآثار، المشهورة بالرحلة الورثيلانيّة، ط. بيار فونتانا الشرقيّة، الجزائر 1908، ص 681-682.
السفير محمد بن عبد الوهّاب بن عثمان المكناسي، مؤلّف رحلة حجازيّة باسم "أحراز المَعلّى والرقيب في حجّ بيت اللّه الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتبرّك بقبر الحبيب"، م.م. ز. 5264. وقد زار تستور في طريق إيّابه من حجّته عام 1202هـ/1787م بعد أن عرّج على تونس. انظر : محمد المنّوني : ملامح من تطوّر المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة.- في : أشغال المؤتمر الأوّل لتاريخ المغرب العربي وحضارته، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس 1979 ج2 ص75-113 وخاصّة ص87 بتعاليقها.

(2) Fragments d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, fait de 1783 à 1786 par Louiche René Desfontaines, in : Peyssonnel et Desfontaines : Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T II, Paris, Lidrairie de Gide, 1838, P. 297-300.
للمرحوم عثمان الكعّاك ترجمة غير دقيقة لقسم من هذا النّص في مجلّة (المباحث) فيفري 1945.

(3) Relation d'un voyage sur les cotes de Barbarie fait en 1724 et 1725 par Jean André Peyssonnel. in : Peyssonnel et Desfontaines : Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, pub. M. Dureau de la Malle, Paris, Lib. De Gide, 1838, TI, ch 18, P 158- 166.

(4) Victor Henri Guérin : Voyage archéologique dans la régence de Tunis, Paris, Henri Plon, 1862, T II, ch 18, P 158- 166.

وإلى جانب تلك التّقارير القديمة ظهرت دراسات حديثة أنجزتها جماعة من الجامعيين بمناسبة انعقاد الملتقى الإسلامي المسيحي أو الملتقى التّونسي الإسباني، منها مختارات بمجلّة كلّيّة الآداب بتونس[5]. هذا فضلا عن الدراسات العامة والمعروفة التي نشرها المؤرّخ الأنجليزي جون ديريك لاتام[6] والمرحوم محمد الطاهر بن عاشور[7] ومحمد الحبيب[8] وحسن حسني عبد الوهاب[9] وعثمان الكعّاك[10]، وخاصّة الدراسة المشهورة الخاصّة بتستور التي نشرها المؤرّخ والأثري الفرنسي جورج مارسي[11] وعرّبها سليمان مصطفى زبيس[12].

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة وثائق عن الهجرة الأندلسيّة إلى تونس[13] ودراسات نشر جلّها سابقا وجمعها إيبلزا وبتيت[14]، وستليها أخرى صادرة عن

---

(5) Les Cahiers de Tunisie, N° 69-70, 1er et 2ème trimestres 1970. Les Cahiers de Tunis, N° 103- 104, 3em et 4em trimestes 1978.

(6) Jean Dereck Latham : Towards a study of andalusian immigration and it's place in tunisian history. in : Les Cahiers de Tunisie, 5, 1957, P. 203-249.

J.D. Latham : Towns and cities of Barbary, the andalusian influance, in the islamic quaterly, XVI, 1972, P.189- 204.

(7) محمّد الطّاهر بن عاشور : مصير الأندلسيين. نشرة الجمعية الخلدونية، تونس 1930، الإنجلاء الأخير، ص22- 26.

(8) محمّد الحبيب : الجلاء الأندلسي الأخير، مجلّة الثريا، جانفي 1944، ص10-13.

(9) Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie, dans : Revue Tunisienne, XXIV, 1917, P.305-316 et 371-379, Etudes... Moriscos, P. 16-20.

عرّبه فرحات الدشراوي ضمن " ورقات..." ج3 ص262-270، تونس 1972 بإشراف محمّد العروسي المطوي.

(10) المدن الأندلسية بالقطر التونسي، مجلّة الأسبوع، تونس، 12ح، من 1953/2/2 إلى 1953/4/27.

(11) Georges Marçais: Testour et sa grande mosquée, in : Revue Tunisienne, 1942, P. 147- 169.

(12) تستور وجامعها الكبير : مجلّة الثّريا، 1945، ثمّ ط. المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1981.

(13) عبد المجيد التركي : وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية، ع 4، س1967، ص 23-82.

البوغانمي وآخرون : البحوث عن المهاجرين الأندلسيين في تونس، المجلّة التاريخية المغربية، ع13-14، جانفي 1979.

(14) M. De Epalza, R. Petit : Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie Madrid, 1973.

مركز الدّراسات الإسبانيّة الأندلسيّة التابع للمعهد الوطني للتراث بتونس[15]، إلى جانب دراسات ميدانيّة أخرى[16]. وينبغي ألاّ ننسى الأبحاث التي نشرها ثمّ جمعها أستاذ الأنتروبولوجيا بجامعة نيويورك ثمّ بالجامعة الأمريكيّة بالقاهرة نيكولا هوبكنز[17] رغم اتجاهها الماركسي الويبري. كما ينبغي أن نختار ما يفيد ممّا كتبه بعض أبناء تستور[18] أو سواهم[19] من مقالات محتاجة إلى تجنّب السرد والتعميم والتمجيد والاجترار بدافع المناسبة التي تنشر من أجلها، وهي عادة الدّعاية لمهرجان المالوف[20]. لهذا كان لابدّ من البحث عن الجديد فيما بقي من

---

(15) تحت الطّبع. [نشرت بعناية زبيس وجماعته، تونس 1983].

(16) Ahmed Kassab : L'évolution d'un village andalou : Testour. in : Etudes... Moriscos. P.359-368.

A. Kassab : Les basses terrasses de la Medjerdah dans la plaine de Testour Slouguia. in : Revue Tunisienne des Sciences Sociales. Tunis. 21. 1970. P.119-157.

A. Kassab : L'irrigation dans les plaines de la moyenne Medjerda. in : les Cahiers de Tunisie. n° 101-102. 1er et 2ème trimestres. 1978. P. 133-165.

Fathia Skhiri : Les traditions culinaires andalouses à Testour. in : Etudes... Moriscos. P.349-358.

أحمد الحمروني : وثائق عن مساهمة تستور ومدن التل الغربي في ثورة 1864. في : الصّدى 1975/12/29 ص22-23.

(17) Nicholas S. Hopkins : Testour ou la transformation des campagnes maghrébines. Ed. Cérés Production. coll. Horizon maghrébin. Tunis 1983.

- Notes sur l'histoire de Testour. in : Revue d'histoire maghrébine. Tunis. N°9.1977. P.294-313.

- The emergence of class in tunisian town. in : International Journal of Middle East Studies. 8. 1977. P. 453-491.

- The small urbain center in rural development : Kita(Mali) and Testour (Tunisia) in : Africa. 49. 1979. P. 316-328.

- Testour au XIXè siècle. in : Revue d'histoire maghrébine. N° 17-18. 1980. P.19-31.

(18) أحمد الحمروني : تستور والتواصل الحضاري، مجلّة الحياة الثقافية، جانفي 1982، ص 52-55، نشرة مصحّحة ومتمّمة بالإحالات التي سقطت في النشرة الأولى : تستور عبر التاريخ، العمل 1981/6/21.

البحري الفرياني : ماذا يجب أن تعرف عن تستور الأخت الثّانية لقرطبة وإشبيلية، العمل 1978/6/30ص16- تستور عبر التاريخ، الصباح 1973/6/21ص5.

محمود الزرقي : على أنقاض تيشيلا بنيت تستور، العمل 1980/6/21ص7.

محمد جهين : قبلة الجامع الكبير، نشرية " تستور بين الأمس واليوم..." ص34-36.

(19) رؤوف الإمام : على هامش مهرجان تستور للمالوف : 6 حلقات، الصباح، جوان. جويلية 1970.

(20) كتابات محلّية مختلفة في الصّحف اليومية وفي نشريات المهرجان خلال السّبعينات.

مخطوطات تستور التي فهرست أغلبها[21]. فرغم طغيان النزعة الدينيّة عليها وعلى حياتنا فهي لا تخلو من إفادات متعلّقة بمن كتبها ونسخها وحبّسها أو ملكها، فنعرف عرضيّا بعض عناصر مجتمع تستور[22] وتاريخ بناء بعض المؤسّسات[23]، فضلا عن الفوائد المعروفة لكلّ مخطوط. وتتكامل هذه الإفادات مع ما تدلّ عليه عقود الملكيّة من النموّ الدّيمغرافي والتّطوّر العمراني للمدينة، ومع

---

(21) أحمد الحمروني : فهرس مخطوطات تستور : مجلّة الهداية، بداية من الحلقة الأولى : مارس 1977.

(22) أحمد الحمروني : فهرس مخطوطات تستور، ح 1 الهداية، مارس 1977. ص 98، مخ رقم101 ج 19، ص أخيرة (مكتبة الجامع الكبير/ صحيح البخاري) : « كمل السّفر التّاسع عشر... على يد العبد الفقير إلى اللّه تعالى وأقل عبيده محمد بن محمّد بلنسين الطّغري التاستوري مسكنا ومولدا المالكي مذهبا الأشعري اعتقادا الناسخ حرفة وذلك ضحوة يوم الإثنين أوائل ذي القعدة عام سبعين وألف...» فهذا الناسخ أصيل بلنسية من جماعة المشاغرين سكان الثّغور الإسلامية المتواجدة شمال الأندلس على الحدود المسيحية [وكذلك نهاية ج20]

– نفس المرجع ج 13، ص1 : «... الحمد لله، أشهد المكرم الأجل الفقيه النزيه العدل محمّد الصغير صاي الأندلسي نائب أوقاف الجامع الأعظم بتاستور أنه صرف من مال أحباس الجامع المذكور على نسخ هذا المجلّد... أواخر شوال عام ثمانية عشرومائتين وألف». ج13، ص أخيرة : « كمل السفر الثّالث عشر...على يد ...محمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه التلمساني دارا ومنشئا... يوم الأحد آخر شهر اللّه ربيع الأول سنة سبعة عشر في القرن الثالث عشر بعد المائتين والألف...» مخ رقم 102 (كتاب الشفاء للقاضي عياض) ص قبل الأخيرة : « وكتبه الفقير إلى مولاه الغني به عمن سواه الراجي منه اللطف والمعونة علي بن محمد كمونة القيرواني ... في خلال شهر شوال عام 1144هـ ».

(23) نفس المرجع، مخ رقم 401 (مكتبة حسين بن موسى /صحيح البخاري) ج18 ص أخيرة : " ...كمل... على يد الفقير إلى اللّه محمد الصغير بن أحمد صاي الأندلسي التستوري مولدا ومسكنا المالكي مذهبا الأشعري اعتقادا، وذلك صبيحة يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد الأصب عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، حبس على جامعي المحدث بسوق بلد تاستور ... العطارين، داخل البلد المذكور جوفي المفتح، بني الجامع المذكور في رجب وشعبان سنة 1227هـ سبعة وعشرون ومائتين وألف."

– نفس المرجع، مخ رقم 402 (مكتبة حسين بن موسى / رياض الأنس) ج1، ص1 :" الحمد لله أشهد المكرم الأجل المنعم الحاج إبراهيم بن فضول الأندلسي أنه حبّس هذا الكتاب المجلّد المسمّى برياض الأنس في حديث المصطفى صلى اللّه عليه وسلم على الجامع برحيبة الأندلس، راجيا ثواب اللّه عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف . وكان الإمام بالمسجد المذكور سي محمد الشريف بن عبد العزيز، وتوفي إلى عفو الله، ثم بعد ذلك استخلفه محمد المعروف بالرّايس..."

ما تفيدنا به وثائق الأرشيف الوطني التونسي من إحصاءات عن الفلاحة والتّجارة[24] . وإلى جانب هذه المطبوعات والمخطوطات يجب ألاّ ننسى أهمّية الرّواية الشفويّة في تطعيم تاريخ تستور بشرط ألاّ يقتصر الاستماع على الشيوخ

(24) N. S. Hopkins : Modern agriculture and political centralization : a case from Tunisia, in : Human Organization, 37, 1978, P.83-87.
- Notes sur l'histoire de Testour, op cit.
- L'urbanisation à Testour, in : Système urbain et développement au Maghreb, Tunis, 1980,P. 166-181.

* وثائق الأرشيف الوطني (أرشيف الحكومة التونسية) :

دفتر رقم 751 : عدول تستور ضمن دفتر تحرير رقاب بلد تستور عام 1276هـ.
دفتر رقم 92- 93- 102 : دفاتر مقبوض الدولة من الزّوايا.
دفتر رقم 709 : دفتر تحرير رقاب بلد تستور عام 1276هـ.
دفتر رقم 915 : دفتر تحرير رقاب بلد تستور عام 1279هـ.
دفتر رقم 930 : دفتر تحرير رقاب بلد تستور عام 1280هـ.
دفتر رقم 1117 : دفتر عشر تونس وتستور وتبرسق عام 1268هـ.
دفتر رقم 1119 : دفتر عشر رياح والغرابي وتستور ودخانية تونس عام 1268هـ.
دفتر رقم 1260 : دفتر عشر تستور عام 1277هـ.
دفتر رقم 1287 : دفتر عشر تستور عام 1277هـ.
دفتر رقم 1337 : دفتر عشر تستور ومجاز الباب عام 1278هـ.
دفتر رقم 1368 : دفتر عشر تستور ووطن رياح عام 1278هـ.
دفتر رقم 1389 : دفتر عشر مواشي بلد تستور عام 1279هـ.
دفتر رقم 1394 : دفتر عشر تستور عام 1279هـ.
دفتر رقم 1626 : دفتر عشر وطن تستور عام 1288هـ.
دفتر رقم 1692 : دفتر قانون طياش بلد تستور عام 1272هـ.
دفتر رقم 1799 : دفتر حساب إعانة وطن رياح و تستور ومجاز الباب من عام 1275هـ. إلى عام 1282هـ.
دفتر رقم 1831 : دفتر محاسبات عمّال الوطن القبلي وماطر ومحاسبات لزام المحصولات بطبربة وتستور ومنزل تميم من عام1277هـ. إلى عام 1286هـ.
دفتر رقم 1858 : دفتر محصولات بلد تستور عام 1251هـ.
دفتر رقم 1865 : دفتر محصولات بلد تستور عام 1255هـ.
دفتر رقم 3967 : دفتر في بيان أسماء العمال والخلفاوات ومشائخ العروش ببلدان المملكة مع بيان تاريخ ولايتهم.
دفتر رقم 3965 : دفتر في بيان أسماء المتوظّفين الشرعيين والعدول بحاضرة تونس وبلدان المملكة.

- Décrets aux Caïds des Riah 1240- 1285, dossier 127, carton 13, document 147.
-Décrets aux Caïds des Riah 1286-1300, Dos 128, cart 13, doc 114.
- Habous : documents divers (Wakfs des Andalous), dos. 700/12 cart 62, doc. 19.
- Wakfs des mosquées... de Tunisie, dos 700/11, cart 62, doc. 49.

الأندلسيين لنتعرّف مثلا على علاقة التنافر ثمّ الانسجام بين طائفتي الأندلسيين والوسلاتيين الوافدين عليهم في نهاية القرن الثّامن عشر عندما فرّقهم علي باشا[25]، وعلاقة هؤلاء بالجالية اليهوديّة[26]. كما ينبغي أن نهتمّ بدراسة ما تبقّى من الحرف والصناعات التقليديّة[27] لمعرفة تاريخها وأصحابها وأدواتها ومصنوعاتها وأسمائها، وأن ندرس كذلك اللغة الدّارجة في تستور لا من حيث النطق فقط بل خاصة من حيث الكلمات ذات الأصل الإسباني المطلقة على العائلات الأندلسيّة والأماكن والأدوات[28]، وكذلك الكلمات ذات الأصل البربري والعربي والفرنسي

---

(25) يذكر ح.ح. عبد الوهاب أن الأندلسيين أسّسوا صندوقا للإنفاق عمن لا تجد من يتزوّجها من الأندلسيين. ويشير المثل الشّعبي "دخلنا الأربش " إلى انعدام الثقة بمجيء الوسلاتيين، بينما تشير روايات أخرى إلى الانسجام فيما بعد بين الطائفتين مبرزة دور الوسلاتيين في ازدهار تستور. راجع :

N.S. Hopkins : Notes sur l'histoire de Testour. op cit.

محمد جهين : شذرات وطرائف عن تستور : نشرية (تستور) لمهرجان المالوف، جوان 1969.

(26) André Chouraqui : Les juifs d'Afrique du nord, éd. P.U.F. Paris 1952, P. 121, 152, 296.

D. Abbou : Musulmans andalous et judéo-espagnols, éd. Antar, Casablanca, 1953.

La Presse, 23/10/76 : Rabbi Fraji.

(27) أحمد الحمروني : حرفة الشّعر، نشرية " تستور بين الأمس واليوم ومن خلال المهرجانات الدولية للمالوف". ط 2 منقّحة ومزيدة، جوان 1982ص21-24.

M.J.E. Echkhout : L'artisanat domestique à Testour, Université libre d'Amsterdam, T 11, 1978, 35 P (dactyl.)

N.S. Hopkins : From a small town crafts to industrial organization : Tailoring in Testour pripared for the organized session on « critical anthropology of the Middle East : Consciousness and mystification » annual meeting of the American Anthropological Association, D.C . November 1976, (dactyl.)

Mohamed Annabi : La chéchia tunisienne, dans : « Cahiers des arts et traditions populaires » Tunis 3, 1969,P. 317-334.

- عبيد السبيعي : نحو تأصيل للعمارة الإسلامية- المعهد التكنلوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس، 1982 (مرقون).

(28) Paul Teyssier : Le vocabulaire d'origine espagnole dans l'industrie tunisienne de la chéchia, dans : « Etudes... Moriscos », P. 308-316.

J.A. Peyssonnel : Narration inédite sur l'emploi de l'espagnol à Testour, Manuscrit 1373 de la bib. du musée Calvet d'Avignon.

والإيطالي. وهنا لا بدّ من عناية خاصة بالعادات ومدلولاتها وبفنّ المالوف[29] والنّشاط الدّيني والتّعليمي[30] والسّياسي للزّوايا[31]، وما نشأ عن ذلك من فنّانين وعلماء[32].

بقي أن نشير إلى رافد آخر يتمثّل في النّقائش الرّومانيّة والإسلاميّة، سواء التي أشارت إليها كتب الرّحّالة والمؤرّخين أو التي اكتشفت أخيرا أو ما زالت مغمورة أو المتناثرة في الأنهج والمنازل والمساجد والزّوايا والمقبرة[33].

بهذه المصادر المتنوّعة والمتكاملة يمكن في اعتقادي تطوير البحث في تاريخ تستور لكتابته كتابة موضوعيّة تسهم في إثراء التاريخ القومي، فضلا عن جدوى تبادل المعلومات ونتائج الأبحاث بين المشتغلين بتاريخ تستور وزملائهم المهتمّين بتاريخ غيرها من المدن التونسيّة المتأثّرة بالطّابع الأندلسي[34].

---

(29) أ. الحمروني : تاريخ المالوف بتستور، نشرية " تستور بين الأمس واليوم ..." جوان 1981ص28-31. نشرة ثانية مدعّمة بالصور في مجلّة الإذاعة والتلفزة، 81/8/15 ص8-9.

(30) أ. الحمروني : فنون متأصّلة عريقة، العمل 1982/6/8 ص 8.

(31) راجع الرّواية الشفوية حول مقاومة الولي الصالح سيدي علي العريان لجند مراد باي في :
N.S. Hopkins : Notes sur l'histoire de Testour, op, cit.
وقصيدة إبراهيم الرياحي في مدح الشّيخ المذكور، ضمن : تعطير النّواحي، تونس 1320هـ/1902م.ج 2 ص 113. عن مساهمة تستور في الحركة الوطنية راجع : أ. الحمروني : ذكرى مظاهرة 1953/2/26 بمدينة تستور، العمل 1980/2/27 ص 5-6، صورة من نضال تستور، العمل 1982/2/27 ص5.

(32) أ.الحمروني : مساهمة في دراسة إبراهيم الرياحي، 4 حلقات، جريدة الصّدى 1975/7/7-1975/7/14. [أ. الحمروني : علم " الزيتونة " الشيخ إبراهيم الرياحي.- ميدياكوم، تونس 1996].

(33) من ذلك قصيدة لإبراهيم الرياحي في رثاء المصلح محمد الصغير صاي الأندلسي بداره (دار المرحوم صالح الوسلاتي حاليا) وأخرى في تأريخ بنائه لمسجده المعروف بمسجد صاي بتستور، وهي منشورة في : " تعطير النواحي " ج 1 ص77-78. وانظر كذلك مشاهد المقبرة خاصّة مقبرة آل موسى.

(34) A. Daoulatli : Inscription à la mosquée andalouse d'El Alya, in « Etudes... Moriscos », P. 285-290.
H. Sethom : L'apport andalou à la civilisation rurale de la presqu'île du Cap-Bon, in, « Etude ...Morescos », P. 369-373.
M. El-Aouani : Ala recherche des influences andalouses dans les campagnes Tunisiennes : essai de mise au point, in : « Etudes...Moriscos", P. 374-377.
Voir aussi les écrits de Mohéiddine Ben Ali et de Abdelhakim El Gafsi.
[انظر المراجع الجديدة حول تستور والأندلسيّين الأخيرين في البلاد التونسيّة في بيبليوغرافيّتي كتابينا : تستور/تاريخ ورحلات.- ميدياكوم، تونس 1994، الموريسكيّون الأندلسيّون في تونس.- ميدياكوم، تونس 1998].

مواقع أثريّة حول تستور(*)

يلاحظ المتجوّل في جهة تستور، والمتأمّل في الخريطة العسكرية، ثراءها بعديد المواقع الأثرية، وخاصّة منها الآثار الرّومانيّة. ولا شكّ أن انتشار العمران فيها، وخاصّة في العهد الرّوماني، إنّما سببه خصائص هذه الجهة الطّبيعية والاستراتيجية. فقد امتازت بأرض خصبة، تروّيها مياه مجردة وسليانة وخلّاد والعيون العديدة، كعين يونس وطنقة وجمالة و(Golea) والصّخيرة، وبتلال مشرفة، وجبال منيعة، شجّعت الإنسان على الاستقرار بها منذ أقدم العصور، كجبال الهندي وشيطانة والصخيرة وبوصفرة وكشتيلو وكسّار القلال. ولا شك أيضا أن مرور الطّريق الرومانيّة العتيقة بها، رابطة بين قرطاج وتبسّة، قد ساهم في تكاثر التجمّعات العمرانية، خاصّة على امتداد المسلكين المتفرّعين عن تلك الطّريق، سواء مرورا بمجاز الباب (Membressa) والسّلوقيّة (Chidibbia)[1] وتستور (Tichilla)[2] وعين طنقة (Thignica) محاذاة لوادي مجردة، أو بعيدا عنه إلى الجنوب الشّرقي، مرورا بقرفة(Coreva)[3] في هنشير الدرمولية (نسبة إلى عائلة درمون الموريسكية اليهودية الأصل) وعين ببوش (Mizigi).

وكان من الطّبيعي أن يكون وادي مجردة أوّل ما يذكر من الأسماء الجغرافية في كتب التاريخ القديمة، وذلك بإسم (Bagrada) في صيغته اللاتينية

(*) من محاضرة ألقيت يوم 1994/11/4 بتستور، وقدّمت بإذاعة الكاف ضمن برنامج " زهرة المدائن " في 8-15-1994/11/22. ونشر ما تعلّق بالصخيرة وعين طنقة وخروفة – دون الهوامش – في : معجم المدائن التونسية. – ميديـاكوم، تونس، ط1/1997 ، ط2/1998. ويمكن الاطّلاع فيه على بقيّة المدن والمواقع المذكورة.

(1) أ. الحمروني : السلوقية. دامت 1995/5. وكذلك :
A. Saadaoui : Slouguia et sa grande mosquée, in : Les cahiers de Tunisie, n. 162-163 (1992-93), P. 119-136.

(2) أ. الحمروني : تستور. دامت 1992/3، تستور/تاريخ ورحلات. – ميدياكوم، تونس1994.

(3) أ. الحمروني : كوريفا جارة تيكيلا. في : تستور المهرجان (نشرية جمعية مهرجان تستور للمالوف...) جويلية 1989 ص 14-16 اعتمادا على م. الطالبي: الدّولة الأغلبية. تعـ.م. الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985 ص 219-221.

الدارجة زمن الرّومان وحتّى قبله[4] . ولئن تواصل الحضور البشري في مواقع مثل السّلوقية وتستور، ولو على حساب الآثار القديمة، وربّما بعد فترة من الإقفار، ما بين نهاية الاستعمار البيزنطي وتاريخ الاستيطان الأندلسي في بداية ق 17م، فإنّ مواقع أخرى بقيت على حالتها الأولى، أطلالا، لا يقطن بجوارها إلاّ بعض الأعراب الفلاّحين، كما هو شأن قرفة وعين يونس وعين طنقة، حيث أخذ في النّموّ تجمّع سكني غربيّها.

وسواء غطّت المباني الجديدة المواقع التاريخية أو جاورتها، فإنّ بقاء تلك المواقع طوال السنين مهملة، وعرضة للنّبش طمعا في كنوزها واتجارا بتحفها لفائدة بعض المعمّرين الفرنسيين وبعض السّياح والهواة، واستغلالها كمحاجر للمباني الجديدة، على غرار صنيع الأندلسيين بآثار كيديبيا وتيكيلا وكوريفا وتنيبكا، قد تسبّب في طمس أغلب معالمها، وإلحاق الضرر بها، الأمر الذي يعسّر دراستها. ولئن أثمرت الحفريات القليلة في عين طنقة، وبعض النّقائش المكتشفة صدفة في السّلوقية بعض الدّراسات المتعلّقة بهذين الموقعين، فإنّ أغلب المواقع الأخرى لم تستكشف بعد، ولم تبح بأسرارها للمؤرخين والمهتمّين. وأمام قلّة الدّراسات إذا، لا يمكن للمعلومات المستطاع جمعها إلاّ أن تكون مقتضبة، محتاجة إلى جهد كبير وتمويلات أكبر لمزيد التثبّت والإكمال.

* **الصّخيرة**، من قبل التاريخ إلى الولهازيين :

تقع الصخيرة في سفح الجبل المعروف بها، غربيّ تستور، بنحو 8كلم، على الضفّة اليسرى لوادي مجردة. وفيها يوجد أقدم أثر بشري بالجهة، ويعود إلى حضارة ما قبل التّاريخ، وتقريبا إلى العصر الحجري الحديث (Néolytique)، أي إلى قرابة 2000 سنة ق.م. ويتمثّل في قبور منحوتة في الصخرتعرف بالحوانت، وهي مجاورة لكهوف محفورة في الصّخر، ذات مدخل وفضاء متّسع للسكنى، في جانب منه فتحة منقورة للتهوئة والحراسة، وبالقرب من هذا الموقع المشرف على

---

(4) J. Gascou : Le nom de l'oued Medjerda dans l'Antiquité romaine, in : Antiquités Africaines, 17, 1981, P. 15-19.

ومعروف انقلاب الباء ميما في لغة العرب في مثل بكة ومكة، ومثل ذلك بجردة ومجردة.

وادي مجردة وسهوله، توجد العين العذبة المقدّسة حسب ديانة كل حضارة، إلى أن أصبحت اليوم محميّة بوليّة صالحة، لا قبر لها ولا رفات، تزار ويُتقرّب إليها بإيقاد الشّموع وذبح القرابين، وهي " أمّ العين " أو إلهة الماء القديمة في مظهر إسلامي. وعلى مشارف جبل الصخيرة من جهة الشّرق، قلعة بيزنطية صعبة المنال، مشرفة على القرية الآهلة اليوم ببني ولهاز- لاغير-، والتي يلاحظ مخترقها بقايا (Zigira) الرومانيّة[5] ، كالسور وأحجار المباني الصّقيلة وبعض الأعمدة والنقائش اللاتينية حذو العين. وهناك بقايا أثرية أخرى متفرّقة في بعض الأراضي الفلاحية، ولا شك أنها مستعمرات رومانية.وفي ناحية الصّخيرة أولياء صالحون، لم ينقطع سكان الصخيرة وتستور عن زيارتهم والنذر لهم والتحدّث بكراماتهم وتجلّياتهم، وهم سيدي بو عمود، ربّما نسبة إلى عمود باق من معبد قديم، وسيدي سالم - قرب السدّ المسمّى باسمه - وخاصّة ابنه سيدي علي بن سالم الذي يُتفاءل باسمه عند اجتياز الوادي. وتروج في الصخيرة الرّواية الشّفوية المفسّرة لتفرّع أهلها عن أصل واحد، لعلّه من قبيلة ولهاصة البربرية.

***عين طنقة :**

على بعد 88 كلم عن تونس، على الطّريق الرئيسية رقم5، الموافقة تقريبا للطريق العتيقة تقع طنقة، التي عرفت بالعين والجبل المنسوبين إلى اسمها، المحتفظ بصيغته القديمة بشيء من التحريف[6] . وكانت أول الأمر تجمّعا سكنيا نوميديا قد يكون متأثّرا بالثّقافة البونية. ولم نعثر فيها على نقائش لوبية أو بونية،

---

(5) لعلّ إسم الصخيرة تعريب للإسم اللاتيني (zigira) حيث وافق موقعها الصخري. وقد سمّاها خيمانات (zegera) أو (Segerda) :

R. Thouvenot : Notes d'un espagnol sur un voyage qu'il fit en Tunisie en 1724, in : Revue Tunisienne, n35-36(1938), P. 320.

(6) يسمّى أيضا الجبل الأعوج المتصل بسلسلة جبال الإيدوغ. وقد ذكرها مؤلف الاستبصار" في جبل عزرو بأنها "كانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة"...تحـ. سعد زغلول عبد الحميد. بغداد 1985 ص 164.

Atlas Archéologique de la Tunisie (1:50.000), f. 28 (Oued Zarga) n.109,f.26n129. Le guide bleu : Tunisie, 1981, P. 244.

انظر صفحة المراجع التي نشرها الحبيب بن حسن في :

Comptes rendus du bulletin des travaux de l'I.N.A.A., fasc. 3, p 46-47.

بل بالعكس، عثرنا على عدد كبير من الأنصاب المهداة إلى الإله ساتورن، بلغ عددها 426 اكتشفها M.Le Glay سنة 1888م بعيدا عن موقع عين طنقة بنحو 800م جنوبا، على الطريق الرئيسية تونس الكاف، متلاصقة ومسندة إلى بقية جدار خلفي، يظنّ أنّه جزء من معبد لم يكتشف بعد. وقد أرّخها مكتشفها بالقرون الثلاثة الأولى للميلاد[7]. وتؤكّد هذه النصب انتشار عبادة الإله ساتورن في العهد الروماني في عين طنقة، إلى جانب آلهة أخرى ذات طابع فلاحي، ربما أقل شأنا، مثل مركور (Mercure) ومنى (Monna) غير المعروفة في أماكن أخرى، وجونون (Junon) وفينوس (Vénus) وأسكولاب (Esculape) وفرتونة (Fortuna) وسيراس (Cérès). وقد اكتشف الحبيب بن حسن سنة 1988 نقيشة مهداة للآلهة فستا (Vesta) النادرة عبادتها، ورأس الإله جانوس (Janus) لأول مرّة في تونس، ومعبد للإله ديس باتر (Dis Pater)، بمعنى الثّري، مجتمعا بالإله ساتورن اللاتيني القديم، لأول مرة حسب نقيشة المعبد التي اكتشفها ورمّمها واستنتج من دراستها مبلغ التحضّر الذي بلغته المدينة المترومنة منذ نهاية ق 1م، ومحافظتها حتّى ذلك التاريخ على التسمية القديمة المحلّية (Dis) للإله الرّوماني حامي المدينة، عوض التسمية البديلة (Pluton)، ونفى بذلك ما كان يظنّ من وجود جالية إيطاليّة فيها، على غرار دقة، وأنه ليس للإيطاليين فيها إلا الطابع الرّوماني، الذي ميّز الأعيان، وطبع المعمار، عندما أصبحت مستعمرة خاضعة لسلطة يوليوس قيصر بقرطاج، وخاصّة عندما ارتقت إلى رتبة بلديّة مدّة سبتيم سيفار (Septime Sévère) حسب J.Gascou و C.Lepelley أو مدّة سيفار الإسكندر (Sévère Alexandre)، وظلّت كذلك خلال ق4م[8] . ويدلّ على ازدهارها إلى نهاية ق5م مشاركة اثنين من قساوستها، أحدهما، كاثوليكي

(7) M. Le Glay : Saturne africain. Monuments, Paris 1966, II, p. 125-202.

(8) Habib ben Hassen : Thignica, découverte d'un ensemble religieux dédié à Dis et à Saturne. in : 115 congrés national des Sociétés savantes, Avignon 1990, V colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, P.201-217.

H.b.H. et Zeineb ben Abdallah : A propos de deux inscriptions d'époque sévèrienne, recemment découvertes à Thignica et Chidibbia (Afrique proconsulaire), in : L'Africa Romana, Atti del IX convegno di studio Nuoro, 13-15 dicembre 1991 Edizioni Gallizzi, Sassari 1992, P. 291-298.

(Aufidius)، وثانيهما منافسه الدوناتي (Iulianus)، في مؤتمر قرطاج سنة411م[9].

وفي ق6م احتلها البيزنطيون. وأسّسوا فيها، مدّة جوستين الثاني (Justin)، قلعة قرب العين ذات خمسة أبراج (Trapèzoïdale). ويلاحظ زائر عين طنقة اليوم بقايا معالمها القديمة، وخاصة منها الحمّامات والخزّانات والبازيليك والمسرح والملعب والساحة العامّة والأسوار وآثارا متناثرة حولها، اعتنى الحبيب بن حسن بوصفها[10]، وعديد اللقى الأثرية، منها قطع نقدية باسم الإمبراطور قسطنطين (Constantin)[11]. كما اكتشف نقيشة قاعدة تمثال مهدى للقيصر (CésarGéta) من رجل من قبيلة كيرينه (Quirina) أوصاه أبوه بذلك احتفالا بترقية المدينة إلى رتبة بلدية[12].

ولا شكّ أنّ الحياة تواصلت بعين طنقة، بعد الفتح الإسلامي وسقوط قلعتها[13]. ولعلّها انقطعت فيما بعد، إذ اقتصر من زارها على ذكر آثارها [14] دون الإشارة إلى من استوطن جهتها من بني هلال.

وينبغي أن ننتظر النّصف الثّاني من ق 19م لنتأكّد من وجود أعراب حول آثار طنقة، لثبوت مساندتهم لثورة علي بن غذاهم[15]، وانضمامهم، في وقت لاحق، إلى الثائر علي بن عمار، إبّان انتصاب الحماية الفرنسيّة.

---

(9) A.Mandouze : Prosopographie chrétienne au Bas-Empire, l'Afrique (303-533), Paris 1982, p.100.

(10) H.b.H. : Thignica jusqu'à la fin du III^{ème} si. ap.J.C., Thèse C.A.R. Université de Tunis, 1986 (dactyl.); Diehl : Afrique byzantine, Paris 1896, P. 276 (plan de la citadelle P.221).

(11) H.b.H. : Thignica, découverte...op. cit, P.216.

(12) H.b.H. : et Z.b.A. : A propos de deux inscriptions ...op. cit.

(13) Paul-Louis Cambuzat : l'évolution des cités du Tell en Ifriqya du VII au XI si, Alger 1986, T2, P. 238-239.

(14) بوكلير موسكاو : سميلاسو في إفريقيا. تعـ. الفندري والثابتي. بيت الحكمة، تونس 1989 ص 406-407، حيث أشار سنة 1835 إلى إقفارها ذاكرا بقايا آثارها خاصة الملعب والقلعة والمعبد. تلك الآثار التي اقتصر عليها غيره من الرحالة الأوربيين أمثال قيران ودي فونتان وبايسونال. وكذلك فعل من قبل مؤلف "الاستبصار" في ق 6هـ/12م دون ملاحظة سكان فيها.

(15) أ. الحمروني : وثائق عن مساهمة تستور ومدن التل الغربي في ثورة 1864. الصدى (أسبوعية تونسية) 1975/12/29 ص22-23.

وتجاور اليوم آثار عين طنقة قرية ما انفكّت تستقطب أعراب البوادي بألقاب الشابي والوسلاتي والهمّامي والماجري والعمدوني. وقرب عين طنقة بنحو كيلومترين في اتجاه عين جمّالة موقعان أثريّان متجاوران حول عين أو بئر طافحة، لعلّهما أطلال مستعمرتين لبعض الفلاّحين الرومان[16] . وفي عين يونس جسر روماني على الطّريق العتيقة، وجدار عظيم مستدير، لعلّه دعامة للطريق أو جانب من فسقية متصلة بالعين. وفي طريق العودة إلى تستور، موقع أثري به نقائش لاتينيّة. وبالقرب منه مقبرة مسيحيّة.

*** خروفة أو باجة القديمة :**

أما خروفة، المعروفة من خلال الرواية الشّفوية المتعلّقة باستقرار الأندلسيين بها ومغادرتهم لها بسبب المجبى مفضّلين الحرّية على الثروة[17]، والمذكورة في عقود الملكيّة بخنيقة خروفة أو هنشير خروفة، والواقعة وراء الصخيرة، غربي تستور بنحو 12كلم، فقد غمرتها مياه السّدّ. ولم تذكرها الكتب. وإذا كان الخيال الشّعبي يفسّر تسميتها بالازدهار الذي حقّقه الأندلسيون فيها حتّى أصبحت كرومهم تنتج عناقيد في حجم الخروف الصّغير[18] ، فإنّه لا مانع من افتراض نسبتها إلى سليمان بن عمران الذي لقّبه أضداده في المذهب بخروفة، لأن أسد بن الفرات كان لا يُرى إلا وسليمان وراءه يتبعه كالخروف[19]. وكان أسد يعلّم القرآن في قرية على مجردة، لعلّها مجاز الباب. كما كان سليمان والي باجة والأربس عندما كان الإمام سحنون قاضي القضاة في القيروان، بل هو الذي اختاره لقضاء الجهة، وأقطعه فيها أرضا خصبة، لا شكّ أنّها في سهول مجردة الوسطى، في المكان المعروف إلى اليوم بهنشير خروفة. وهكذا يبدو من المعقول أن تكون

---

(16) تكفي الإشارة إلى موقع أثري في أحواز عين طنقة ذكره خيماناث باسم (Mizado) أو (Bizado) أو (Pizado) : Thouvenot : Notes ... op. cit

(17) أ. الحمروني : منهجية تاريخ تستور ومصادره. مجلّة الحياة الثّقافية، ع 36-37 س 1985 (تأسيس تستور) ص 148-149.

(18) نفس المرجع.

(19) انظر ترجمة سليمان بن عمران في : ح.ح. عبد الوهاب : كتاب العمر. بيت الحكمة، تونس 1990 ص 899-904.

هذه التّسمية أقدم من الحضور الأندلسي، وأقرب إلى الواقع من حكاية عنقود العنب.

وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون المكان خرائب مدينة قديمة، لعادة الأندلسيين في تعمير المواقع العتيقة الصالحة للسكن والموفّرة للحجر، فتكون خروفة هي نفسها باجة القديمة التي على مجردة[20]. [غير سميّتها جارة منوبة شمالي تونس].

وسواء غلبت كنية سليمان على باجة بصفته قاضيها وصاحبها، فسمّيت خروفة قبل مجيء الأندلسيين، ومثل هذا شائع في تسمية البلدان، أو أنّ هؤلاء الوافدين الجدد قد أطلقوا إسم خروفة على الموقع المندثر الإسم والمسمّى، أو أنّهم حافظوا على إسم باجة إلى أن بلغ إنتاجهم الجودة المعنيّة بالرواية الشفويّة، فاشتهرت بخروفة، وغلب المشهور الأصل، فإنّه مهما كان الافتراض والاحتمال، ومهما طغى الخيال على الحقيقة، لم يكتب البقاء لخروفة بعد أن استقطبت تستور النّازحين منها أوّلا، وأتت المياه على آثارها أخيرا.

وغاية ما بقي في جهة مزوغة اليوم تجمّعات متباعدة، وزوايا أولياء صالحين متناثرة حول بحيرة السدّ، مثل سيدي بوشعّالة وسيدي مزوغي وسيدي مسعود، وأشهرهم سيدي مرعي صاحب النّاقة المتميّز بحنين أهالي تستور إليه، وهو الذي يروى عن دفنه في المكان مثل ما يروى عن النّبيّ وعن الرّبّي[21].

---

(20) انظر موقع باجة القديمة في :

Atlas Archéologique de la Tunisie (1:50.000). f.26 (Oued Zarga). Série P751. IGNF.

والملاحظ أن ح.ح. عبد الوهاب لم يعرّف بها في مقاله عن : باجات إفريقية. ورقات ج 3 ص 424-431. دامت 1990/1 ص68-71.

(21) أ. الحمروني : منهجية... المرجع المذكور (حكاية الربّي فراجي) ص 150.

كوريفـا جارة تيكيـلا(*)

كانت كوريفا (Coreva) مدينة صغيرة ذات حصـن منيـع، تقـع تقريبـا فـي نقطة التقاء وادي سليانة بـوادي مجـردة بنحـو خمسـة كيلومـترات جنـوب شـرقي تسـتور، علـى الطريـق الرابـطة بـين الأربـس (Laribus) وتونـس وقرطاجنـة، مرورا بالفحص (Thuburbo Majus). وكانـت جـزءا مـن عدّة حصون تـتضمّن (Thignica) أي عين طنقـة، و(Bir Tersas) و(Thubursicum Bure) أي تـبرسـق و(Agbia) أي عين حجّة و(Tucca) أي دقّة. وهي مجموعة مخصّصـة لحماية مشارف مجردة وكذلك للاحتماء من الهجمـات القادمـة مـن الغـرب أو مـن الجنوب[1].

ولا تورد أيّة خارطة معروفة، هذه المدينة، لكنّ موقعها الصّحيح في نقطـة تقاطع الإحداثيّة 462 والإحداثيّة 356[2].

ويرى تيسّـو أنّـه لـم يقـم أيّ مركـز علـى موقـع كوريفـا، وأنّ آثـار المدينـة العتيقـة، وكذلـك آثـار عيـن طنقـة استخدمت كمقـاطع عنـد تأسيس مدينـة تسـتور الأندلسيّة الصغيرة[3]. ويبـدو اليـوم واضحـا أنّ كوريفـا قـد نقلـت منهـا أحجارهـا وأعمدتها فلم تبق مـن آثارهـا إلاّ بقيّـة متهدّمـة بيـن متنـاثر ومغمـور. ومـن أهمّهـا الحصن المشار إليه والجسر الذي على الـوادي والحـوض المجـاور لـه علـى هيئـة السدّ وعديد المنازل والمواجل وخاصّة بقايـا السـور الـذي أشـار إليـه المقدسـي فـي

(*) نشر في : تستور المهرجان (نشرية مهرجان تستور للمـالوف) جويليـة 1989 ص 14-16. وأعيد نشـره – دون الهوامش – في : معجم المدائـن التونسية. – ميديـاكوم، تونـس، ط1/1997، ط2/1998.

وقد اعتمدنا على أطروحة الدّكتور محمد الطالبي : الدولـة الأغلبيـة (التـاريخ السياسـي). تعـريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1985 ص 219-221.

(1) Ch. Diehl : L'Afrique byzantine - Paris 1896 P. 277, 285.

(2) Atlas des Ceinturiations romaines de Tunisie, Paris 1954 planche XXXIII.

Atlas Archéologique de la Tunisie, f. XXXIII, n°95, Henchir Dermoulia.

(3) Charles Tissot : La province romaine d'Afrique, Paris 1884, T2, P. 452, 539.

قوله : « إنّها تسمّت قرنة باسم نهر عذب يشقّها، وبها سور من حجارة »[1] ويعني بالنهر وادي سليانة. وبالفعل فقد كانت كوريفا موجودة منذ العهد البيزنطي كقلعة، وفتحت في نفس التاريخ الذي فتحت فيه باجة، واستقرّت بها حامية من الجند العربي خلال ق 2هـ/8م لتحافظ على نفس الوظيفة التحصينيّة أثناء العهد الأغلبي بحكم وجودها في منطقة حرب، ولكنّها زالت فيما بعد، الأمر الذي عرّض إسمها لعدّة تحريفات في كتب التاريخ العربيّة.

فقد سمّاها ابن الأثير[2] وابن عذاري[3] جربة، وصار إسمها جريسة لدى ابن خلدون[4]. ويبدو أنّ هذا الإسم لم يعجب بعض ناشري (العبر) فعوّضوه بفعل (يُغريه)[5]. ولم يسلم من هذه الفوضى غير النويري[6] الذي أثبتها بصيغة (قرْنة) التي تسمح بأن نقول (قُرْفة) أي (Coreva) وأيضا (قُرْبَة) أي (Coreba) اعتبارا لتعويض الباء للفاء وتشابه صوتيهما.

ولئن دلّتنا آثار كوريفا على أهمّيتها الإستراتيجيّة باعتبارها قلعة حربيّة لدى البيزنطيين ثمّ لدى الأغالبة خلال ق 3هـ/9م فإنّها كانت بلا شكّ عامرة بالسكّان في عهودها الأولى وذات فلاحة مزدهرة، إذ تظهر آثارها على مساحة هكتارين ومازالت بقايا [القلعة وسور الحجر] والجسر والسدّ تشهد بعظمتها النسبيّة التي تضاهي جارتها تيكيلا أو تستور حاليا (Tichilla). ومن أهمّ الأحداث التي وصلتنا عن كوريفا من العهد الأغلبي أنّ منصورا الطنبذي (نسبة إلى طنبذة = المحمّديّة،

---

(1) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. قام شارل بلاّ (Ch. Pellat) بتحقيق قسم منه وترجمته بعنوان : Description de l'Occident Musulman au IV^e / X^e s.، الجزائر 1950، ص 19.

(2) ابن الأثير : الكامل في التّاريخ. ج5، ص 215.

(3) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج، س كولان وإ. ليفي بروفنسال، ليدن 1948، ج1، ص102.

(4) ابن خلدون : كتاب العبر، الفصول المتعلّقة بالأغالبة حقّقها وترجمها أ. نوال ديسفرجرس. باريس 1841. ص30، ص102.

(5) طبعة بولاق ج4 ص198، طبعة دار الكتاب ج4 ص424.

(6) النويري : كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب حقق وترجم الفصول المتعلقة بالمغرب الاسلامي م. قاسبار ريميرو في جزءين، غرناطة 1917-1919، ج2، ص71.

قرب تونس) الثائر المنهزم، قد أقام بحصنها ضمن كوكبة من الفرسان أمرهم عامر بن نافع بمرافقته إلى تونس، وأمر قائدها بالتوقّف سرّا بكوريفا وبتسليم منصور إلى ابنه حمديس بن عامر والي المدينة آنذاك، فقتله سنة 211هـ/827م[1]. [ولكن لم يلبث أن ثار عليه منافس آخر هو عبد السلام بن المفرّج فاضطرّ إلى

---

(1) نقل محمد الطالبي رواية ابن الأبّار (الحلّة السيراء. مخطوط الجمعيّة الآسيويّة، باريس رقم 21 أ. وجه الورقة 149، ترجمة مخصّصة لعامر بن نافع) التي أيّدها النويري (النهاية ج2، ص71) وابن خلدون (العبر، ج4، ص424). وكان والي المدينة التي سجن بها منصور شقيق عامر، حسب ابن الأثير (الكامل، ج5، ص215). ولم يورد ابن عذاري أيّ توضيح في الموضوع، لكنّه أخبر أنّ والي باجة الذي ذكر اسمه، كان أخا لعامر. ولذا رأى الطّالبي أنّ ابن الأثير قد التبس عليه أمر والي كوريفا ووالي باجة، وأنّ رواية ابن الأبّار التي أكّدتها مصادر أخرى هي الصّحيحة.

ولم تتّفق المصادر على مكان القتل ولا على القاتل والمقتولين. فقد ذكر ابن الأثير أنّ منصورا وأخاه حمدونًا قُتلا بنفس المدينة (التي سميت جربة أي كوريفا، الكامل، ج5، ص215) من قِبل شقيق عامر بن نافع وبأمر من هذا الأخير، وقال إنّ منصورا طلب ورقة وقلما لتحرير وصيّته لكنّه عدل لشدّة جزعه.

وروى ابن الأبّار (الحلّة، مخطوط، وجه الورقة 149 وظهرها) بعبارة نفس المصدر الذي اعتمده ابن الأثير أنّ منصورا مات بيد حمديس بمقتضى تعليمات كتابية من أبيه عامر بن نافع ولم يذكر أيّ مكان، ووجّه رأس منصور إلى عامر، وهلك أخو منصور بيد حمديس، لكن لم يذكر إسمه في التّعليمات، ودفن الإثنان في مزبلة. وأورد ابن الأبّار نفس التّفاصيل المتعلّقة بمنصور ووصيّته.

وروى النويري (النّهاية، ج2، ص71) أنّ منصورا قُتل بكوريفا بيد حمديس بن عامر بن نافع، وقتل عامر بن نافع حمدونًا بيده.

وذكر ابن خلدون في العبر (ج4، ص424) أنّ منصورا قُتل مع « ابنه » من قبل ابن عامر بن نافع ووجّه رأسيهما إليه. ولا شكّ أنّ تصحيف "العبر" عوّض إسم أخيه باسم ابنه. واكتفى ابن عذاري (البيان، ج1، ص102) بالحديث عن الأمر الذي أصدره عامر بن نافع بقتل منصور وأخيه حمدون متخلّصا إلى القول : « واستقامت الأمور لعامر بن نافع ».

عن ثورة منصور بن نصر الطنبذي راجع : أطروحة الطّالبي المذكورة و : ثورة الطنبذي منعرج في تاريخ الأغالبة. ورقات ج3 جمع م.ع. المطوي، تونس 1972 ص281-297، حيث أثبتها باسم قرنة ونسبها إلى منطقة باجة دون تحديد ص 290.

وباجة أيضا موقع على مجردة قرب تستور يعرف بباجة القديمة. انظر :

Atlas Archéologique de la Tunisie, Feuille XXVI, Oued Zarga, Série P.751, IGNF, Tunisie (à 1:50.000).

الاحتماء بكوريفا، ثمّ خمدت الفتنة وسقطت المدينة من جديد في يد الأمير الأغلبي. كما أنّها تعرّضت لنهب بربر لواتة الثائرين على الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني سنة 269هـ/882م فغلبهم وأجلاهم. ومنذ ذلك التاريخ فقدت كوريفا أهمّيتها إلى أن اندثرت في نهاية ق 5هـ/11م عند تشييد قلعتي باجة والأربس الكبيرتين[1]. ومن طريف الموافقة أنّ عائلة في تستور اليوم تلقّب بالقرفي، فلعلّها نازحة من جارة تيكيلا أو منسوبة إلى نبتة ! وكذلك عائلة درمول التي ملكت هنشير الدرموليّة[2] حيث كوريفا !].

(1) Paul Louis Cambuzat : L'évolution des cités du Tell en Ifriqya du VIIe au XIe si., Alger 1986, T2, P. 124-125.

(2) نسبة إلى عائلة درمون الموريسكيّة اليهوديّة الأصل، وقد أسلم بعضها قبل هجرة الأندلسيّين إلى تستور حيث أسّس أحد أفرادها المسجد المعروف باسمه.

طوبونيميـاء محلّيـة[*]

حاولنا فيما نشرنا عن تاريخ تستور تفسير بعض الأسماء التي اعترضتنا متوقّفين أكثر عند أسماء المواقع مثل تيكيلا وتستور وخروفة والبرقين والتغرين، وكوريفا والسلوقية المجاورتين. ولم نخف عجزنا على الوصول إلى رأي نهائي رغم الجهود المبذولة والمصادر المستنطقة. لذلك بقينا نترصّد كلّ جزئيّة مباشرة أو غير مباشرة تنير لنا سبيل الفصل المقنع.

وإذ نقدّم إضافات لا تعدو أن تكون محاولات فإنّنا لسنا جازمين فيما انتهينا إليه، وحسبنا أنّنا زدنا ما سبق قوله دعما، ووسّعنا باب الاجتهاد والتأويل، في انتظار الظّفر بتفسير قريب يضع حدّا لشتّى الافتراضات.

تيكيـــلا :

اكتفينا فيما كتبنا عن تستور[1] بالتنصيص على المعنى الذي فسّر به شارل تيسّو الإسم القديم تيكيلا (Tichilla)[2]، إذ عنى به في البربريّة الخصب. وها قد عثرنا فيما وصلنا من تلك اللغة المتعدّدة اللهجات على لفظ قريب من تيكيلا وقريب في الوقت نفسه من معنى الخصب. وهو لفظ تيكيليت المفرد الذي يجمع على تيكيلاتن وتيكيلان ويصبح مطابقا لتيكيلا بحذف التاء والنون الزائدتين في الجمع زيادة شبيهة بصيغ اللغة العربية[3]. ويعني هذا اللفظ بركة وقتية يأتيها الماء من نهر أو واد، ويتجمّع فيها في فصل الأمطار[4]. وهذا يطابق حالات الفيضانات التي تغرق سهول تستور على ضفاف وادي مجردة في الشتاء وفي الخريف. والأقرب منه معنى آخر لنفس اللفظ إذ يطلق على موقع عند مصبّ رافد في الوادي[5].

(*) ينشر لأوّل مرّة.

(1) أ. الحمروني : تستور، تاريخ ورحلات. ميدياكوم، تونس 1994 (ونرمز إليه بـ: تستورI) ص15.

(2) Charles. Tissot : La province romaine d'Afrique. T2. p.452.

(3) محمد المختار العرباوي : البربر عرب قدامى، الرباط (المغرب) 1993.

(4) Albert Leriche : Terminologie géographique maure... Sénégal 1955,P. 64.

(5) المرجع السابق.

وهذا الوضع الطوبوغرافي ينطبق على تستور بين وادي سليانة ووادي مجردة عند مصبّ الأول في الثاني.

٢ تستـــور:

لم نخف عجزنا عن تفسير مقنع لأصل لفظ تستور ومعناه عندما بحثنا في الاستعمال اليومي من منتصف ق 17م إلى أوائل ق19م بصيغة تستور[6] القريبة من استعمال التيلي سنة 1628م تاساتور (Taçator) واستعمال داركوس سنة 1631م تاساتور (Tassator) القريبين في الإسبانيّة من معنى الشهود (Testigos) والعدول (Testadores) بينما فسّرها خيماناث سنة 1724م بمعنى الرخصة أو الإجازة (سماح) (Textor) في اللغة العربية. وانتهينا إلى ضرورة البحث في البربرية، فعثرنا على قرية محصّنة في الأطلس الأعلى المغربي تسمّى: تازنتور، ورجّحنا أن يكون إسم تازاتور (Tazatore) تحريفا أندلسيا مؤقّتا لاسم تستور البربري الذي يعني القلعة. وهو معنى موجود أيضا في الإسبانية إذا اعتبرنا إسم تستور مركّبا من (Tasa) أي الأداء و (Torre) أي البرج الحامل للجرس أو الصومعة أو القلعة، ومعناه الجملي قلعة الأداء. وهذا ما يمكن أن يطابق تستور من حيث موقعها الذي تبدو عليه أشبه بقلعة، ومن حيث الأداء الذي يمكن أن يكون الباي قد طالب به الأندلسيين مقابل استقرارهم وأمنهم، حسب ما تؤكّده الرّواية الشّفوية المتعلّقة بانتقالهم من موقع خروفة المجاور إلى موقع تستور، ووجدنا له صدى في المصادر التاريخية في موضوع المجبى المضاعف والامتيازات التي نفّلهم بها عثمان داي وتراجع فيها خلفه يوسف داي[7]. والأصح ما عثرنا عليه في قاموس اللغة الإسبانيّة، وهو لفظ تاسادور (Tasador) بمعنى قابض الأداء، علما بأنّ لفظ (Tasa) يعني الأداء المحدّد بالكيل (أصله العربي دخيل فارسي : طست)، فتكون تستور إسم شخص بارز من مؤسّسي تستور، وظيفته جمع الأداءات

---

(6) العدواني (محمد) : تاريخ العدواني. – تحـ. أبي القاسم سعد اللـه، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996. ص183 : عمّار أو عمران التستوري (منتصف ق17م)، ص260 : قبر تستور، ولعلّه تصحيف قرب.

(7) أ. الحمروني : تستورI ص 30-31.

والضرائب. وهذا معنى غير بعيد عن معنى قلعة الأداء الذي رأيناه. كما يمكن اعتبار المعنى الثاني لـ(Tasa) وهو الحدّ فتصبح تاساتوري (tasa-torre) عبارة مركّبة بمعنى البرج أو القلعة الحدوديّة. وكانت تستور آخر قرية أندلسية على مجردة بعيدا عن العاصمة، كما كان مؤسّسوها ثغريين من سكّان الثغور أو الحدود بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا حيث مدينة تورو (Toro) المجاورة لسمّورة. وقد يكون قابض الأداء هذا هو محمّد تاغارينو أو الثّغري الذي ينسب إليه تشييد الجامع الكبير وتأسيس تستور وإطلاق صفته عليها تكريما، وهو صاحب المال قبضا وصرفا.

ويدعّم ذلك الافتراض وجود اللقب الأندلسي الموريسكي (Torres) أو (Al- Torris) في تطوان وشفشاون بالمغرب[8] وهو في صيغة الإفراد(Torre) نسبة لحامله إلى القلعة أو الثّغر. وكأنّ الاستعمال الدارج "الطغري" أو "الثّغري" الموجود في تستور يذكّر بأصل (Torre) العربي ومعناه الثغر، فيكون الجزء الأخير من إسم تستور (Torre) أو (Tor) موافقا للقب الطّغري أو التغري أو تاغارينو المحرّف عن الثّغري والموجود في إسم باني الجامع الكبير وإسم ناسخ "صحيح البخاري" به وإسم حي التّغرين.[8أ] وبالتالي يدلّ إسم تستور المركّب من (Tasa) و (Tor) على "الثغريين الذين يدفعون الأداء" بالمعنى الحقيقي، سواء للسّلطة في إسبانيا أو في تونس، أو الذين ضحّوا بأملاكهم وأوطانهم لأجل دينهم بالمعنى المجازي.

وهناك تفاسير أخرى لها علاقة بمعنى الخصب والقلعة. فإذا اعتبرنا إسم تستور مركّبا من : تا- ستور (Ta- store) واستثنينا التاء باعتبارها تاء الإسميّة في البربرية بقي من الإسم لفظ (Store) القريب من ستورة (stora) وهي مدينة

---

(8) R.G.Grimau : Documentation sobre moriscos en relacion con Marruecos. - in : Religion, Identité et Sources Documentaire sur les Morisques Andalous, Tunis 1984, T1,P.351; G.G.Busto : Presencia de los moriscos en Tetuan y Xauen.- in : Religion, Identité ... T 1,P. 372.

(8أ) منهم آل الثغري الذين اشتهروا بالدفاع عن مالقة وغرناطة، وفرضت عليهم المسيحيّة فسمّي عميدهم باسم خونتالقو فرناندیث ثغري (م.ع.عنان : دولة الإسلام في الأندلس – دار سحنون، تونس 1990 م6 ص315).

سكيكدة الجزائرية، علما بأنّ إسمي تاستور وستورة ظهرا في نفس الوقت. وأصل ستورة عشترت الفلسطينيّة (Astora - Astoret) إلهة الخصب. وهكذا نفهم لماذا ربط تيسّو (Ch. Tissot) بين معنى الخصب وإسم تيكيلا دون أن يوضّح الكيفية ودون أن ينطلق من إسم تستور. وهذا ما يجعلنا نفترض علاقة بين التّسميتين : تيكيلا وتستور. وأمّا إذا اعتبرنا إسم تستور مركّبا من : تاسه - تور (Tassa = Thacia Torre) فإنّ لفظ تاسة يعني وادي سليانة في مستوى تستور، في حين أنّ وادي تاسة الحالي كان إسمه قديما وادي المثول حسب سومائي، ويبقى الجزء الأخير : تور محافظا على معنى البرج فتصبح تسمية تاساتور بمعنى برج تاسة، نسبة إلى موقعها على وادي سليانة[9]. وهذا التّفسير الجامع بين القلعة والخصب يوافق الافتراضات السّابقة ويدعّم افتراضات مشابهة. منها أنّ الإسم بأصله تاساتورس (Tassatorres) مركّب من تاسة وهو إسم الوادي وتورس المجرى أو القناة التي يسيل فيها[10]، فتكون تستور مجرى وادي تاسة أو مجرى الوادي بدون تخصيص. وهكذا تصادف هذه الفرضيّة موقع تستور على وادي مجردة. وهناك تفسير آخر ينطلق من : تسّاتور (Tassator) ويعني بجزئه الأوّل : تاسة (Tassa) إسم الوادي وبجزئه الثّاني : تور (Tor) إسم شخص في البربريّة[11] ويعني الثّور (Thôr) المقدّس ضمن آلهة مصر الفرعونيّة والثّور في العربية. فتصبح التّسمية كاملة : وادي الثور أو الثّيران، إشارة مرّة أخرى إلى الخصب والحراثة كشأن باجة أو فاقة أي البقرة (Vaga = Vache) وبالتالي الخصب. وسواء كان معنى الجزء الثّاني من إسم تستور القلعة أو المجرى أو الثّور فمن المرجّح أنّ له علاقة تمييزيّة بتاسة المدينة أو الوادي في حالتي إطلاق التّسمية على وادي سليانة أو على وادي تاسة، وكلاهما من نفس الجهة والمصبّ. ومهما تعدّدت الافتراضات يبقى معنى الخصب والخصوبة قاسما مشتركا بينهما.

---

(9) L. Charles Feraud : Documents por servir à l'histoire de Philippeville. in : Revue Africaine. n° 19 (1875) P.86- 87.

نشكر صديقنا محمد التليلي على إفادتنا بهذه المعلومة.

(10) Albert Leriche : Terminologie. Op. Cit.. P.66.
R.P. Giacobetti : Recueil d'énigmes ... Alger 1916. n° 618.

(11) L'abbé Godar : Noms africains du Johannidos de Carippus. in : Revue Africaine. n° 12 (1868) P.207.

خروفـــة :

حاولنا تفسير خروفة، الموقع الذي غادره الأندلسيون إلى تستور، بـالخصب – مرّة أخرى – حيث بلغت عناقيد العنب حجم الخروف الصّغير، ثمّ بنسبة الموقـع إلى سليمان بن عمران الذي كان يتّبع أستاذه أسد بن الفـرات كـالخروف حتّـى لقّبـه أضداده بخروفة، وكان متنقّلا في تلـك النّاحيـة[12]. ثـمّ عثرنـا علـى مقاربـة أخـرى تفسّر خروفة وجمعها خروفات بالنّعجة أو السّحابة أو قطعة من السّحاب أو طبقـة طين سوداء معجّنة موجودة بين طبقات ملح بسبخة إيجل، تسمّت بذلك لأنّ النّعـاج السّوداء هي الشّائعة أكثر من غيرها في موريطانيا [13]. وهذا الوصف ينطبق على نوعيّة التّربة في موقع خروفـة علـى مجـردة، ويجسّم الخصـب والخصوبـة اللّذيـن ميّزا المنطقة وكانا وراء تسميات : تيكيلا وتستور والبرقين وخروفة.

ابن صنـــدل :

لم نعثر –كما قلنا– في كتب التّاريخ على هذا الإسم أو هذه الكنية التي عيّر بها سيدي علي العريان قائد محلّة الباي، الذي رام الاعتداء على تستور، حسب مـا تصوّره الرّواية الشّفوية المعروفة. واكتفينا بتوظيف معناها اللغوي في الدّلالة علـى عظم الرّأس كما في " لسان العرب " [14]. ومنه يتولّد معنى الغباء والجهل بالعاقبة، وهذا ما يناسب الأحداث. ولكنّ ابن منظـور ذكـر خشـب الصّنـدل الصلـب، بلونيـه الأحمر والأصفر، وذكرت القواميس مـن بعـده تسـمية القـارب أو مركـب الصّيـد الصّغير ذي القلاع الواحد والقادر على حمل ثلاثة أو أربعة ركّاب بـالصندل، لأنّـه مصنوع من خشب الصّندل (bois de jantal). فبهذا المعنى يمكن أن يكون وجـه الإسم أو الكنية قوّة السّلاح، أو أن يكون لهذا القائد العسكري نسب ذو صلة بالبحر صيدا أو قرصنة، أو بخشب الصندل. وقد رأينـا فـي روايـة شـفوية أخـرى علاقـة

---

(12) أ. الحمروني : تستور I ص29.

(13) Albert Leriche : Terminologie...op. cit., P. 43-44.

(14) أ. الحمروني : تستور I ص36.

سيدي علي العريان بالبحر[15] . وقد لاحظنا نسبة أحد حمّامات باجة الموجود عند باب العين، في أقدم موقع عمراني، إلى شخص يدعى بو صندل. ومع الخلط في الاستعمال بين "ابن" و"أبي" يحتمل أن توجد علاقة بين قائد المحلّة وهذا الحمّام باعتبار تنقّلاته ومعسكراته في الجهة. وقد رجّحنا أنّه يونس باي الذي ثار على أبيه علي باشا وانهزم وفرّ إلى الجزائر حيث مات في قسنطينة سنة 1752م. وبذلك تحقّق دعاء سيدي علي العريان : « برّا يا ابن صندل وين حصدت تندّر »![16] وبقيت بحيرة ابن صندل، السّهل المحاذي لمجردة، مذكّرة بالحدث.

(15) أ. الحمروني : ثلاث قصائد لإبراهيم الرّياحي حول تستور. مجلّة إبلا (IBLA)، ع 173، 1/1994، ص89.

(16) المرجع السّابق.

معـــالـــم(*)

* الجامع الكبير الأوّل :

يوجد الجامع العتيق في الرحيبة، في الناحية الشماليّة الغربيّة من بطحاء الأندلس، ويحاذيه شمالا وشرقا نهج ابن حوريّة، ويتوافق تاريخه مع تاريخ تأسيس تستور، وخاصة أقدم أحيائها، وذلك عند مجيء الأندلسيين المهاجرين سنة 1609م. وهكذا يكون الجامع قد بني بعجالة، وبوسائل قليلة، في السنوات الأولى من العشريّة الثانية من ق 17م، قبل أن تتّجه النية في نهايتها إلى بناء جامع أكبر وأجمل، هو الجامع الكبير المعروف اليوم، الذي بناه سنه 1630م محمد تغرينو، أبرز أعيان الجالية الثانية. وضمن مخطوطات تستور كتاب "رياض الأنس" ومصحف قرآن كانا محبّسين على جامع الرحيبة، وفي هامش الأوّل أسماء الأيمّة الخطباء إلى سنة 1760م، وفي الثاني إشارة إلى تواصل الخطبة به إلى ما بعد 1806م[1]. ولكنّ الانحطاط الذي عمّ تستور قد وضع حدّا لحياة الجامع في منتصف ق 19م، فلم يبق منه الآن إلاّ جزء من المئذنة والجداران القبلي والغربي وبالمنازل المجاورة.

وتدلّ الصور التي التقطها ج.مارسي سنة 1942 و س.م.زبيس سنة 1950 على هيئة الجامع بالصومعة وجامورها وبيت الصلاة وسقفه، إلى جانب السقيفة ذات السقف المنحني ناحية المدخل من البطحاء و المؤدّية يسارا إلى ميضاة صغيرة ويمينا إلى الصحن حيث الماجل، ويتصدّرها مدخل بيت الصّلاة.

فبيت الصّلاة مربّع (8,50م) ذو سقف مقبّب مغطّى بسطح مقرمد على محملين وذي فتحات للتهوئة وقائم على أربعة أعمدة. والجدران مبنية بطريقة الطّابية، وهي صناديق من التربة المركّزة محاطة بصفوف ودعائم من الآجر على نوعين ربّما لتوظيف فرنين عند البناء أو عند الترميم. وتدلّ قواعد الأعمدة على

(*) ينشر لأوّل مرّة باستثناء الجامع الكبير الحالي وزاوية سيدي نصر.

(1) الحمروني (أ.) : فهرس مخطوطات تستور. – مجلة الهداية، ح1 : مارس 1977– ح10 : جانفي 1984.

رواق متّصل ببيت الصلاة من جهة الصحن، وهذا الأخير أوسع من بيت الصلاة وشبه مستطيل (18,50- 13 x 15,50 - 14,50 م) وقد يكون ذا باب شمالي المفتح. أمّا الصومعة فقد سقط جامورها في بداية هذا القرن، وتلاه قسمها المثمّن في منتصف القرن، وكان مبنيا بالآجر، ولم يبق إلاّ قسماها المربّعان الأوّل والثاني بارتفاع (9م) وقاعدة من الأحجار الرومانيّة مربّعة (10,3 م) ومرتفعة بنحو (3م)، ويتوسّط الصومعة مدرج حلزوني مازال سليما.

إنّ مختلف الأشكال المعماريّة المجسّمة للطابع الأندلسي في جامع الرحيبة قد أثّرت في مساجد تستور التي تعاقب بناؤها، وخاصة في الجامع الكبير، حيث نقلت تلك الأشكال بأكثر إتقان وتوسّع وزخرفة لتجعل منه أنموذجا فريدا ومدرسة معماريّة ثريّة ونادرة[1].

*** الجامع الكبير الحالي [*] :**

بعد أن ضاق الجامع الأوّل المبني سنة 1609م بالرحيبة عند قدوم جالية ثانية من اللاّجئين الأندلسيين استوطنت حي التغرين، شرع في بناء الجامع الكبير المعروف على يد محمد تغرينو سنة 1630م على مراحل كشفت عنها ترميمات سنة 1968م، إذ تؤكّد الفوارق القياسيّة والنوعيّة عند المقارنة أن البداية كانت ببيت الصلاة (18.8x22.7م) ثمّ تلتها الصومعة (4.5x22.5م) والصحن الكبير (17.7x26.2م) حيث المزولة التي صنعها أحمد الحرّار سنة 1760م تاريخ إضافتها بعد إضافة الأروقة حيث المحراب الخارجي المعروف في جامع ابن طولون بالقاهرة وغيره. أمّا الصحن الصغير (22.2x19.5 x19.5x 8.9م) المفتح

---

(1) مارسي (ج.) : تستور وجامعها الكبير. – تعـ. س.م. زبيس، المعهد القومي للآثار والفنون ، تونس 1981 ؛

SAADAOUI (A.) : Testour du XVII^{ème} au XIX^{ème} siècle... Pub. Fac. Lettres, La Manouba (Tunis), 1996. P. 51-62.

(*) نشر ضمن مادّة "تستور" في : الحمروني (أ.) : معجم المدائن التونسية. – ميدياكوم، تونس، ط1/1997 ، ط2/1998.

على بطحاء السوق ببوّابتيه ورواقه فقد أضيف مع الميضاة بعد قرن من بناء الجامع حوالي سنة 1733م نظرا للشبه المعماري مع صحن زاوية سيدي نصر.

لقد اقتضت البداية العاجلة توظيف الأعمدة والتيجان المجلوبة من المواقع الأثريّة الرومانيّة والمرمّمة، وعددها ثمانية وستّون، ثمّ اتّسع الوقت لاقتناء سبعة أعمدة وتيجان جديدة من الطراز الحسيني من تونس لتوسيع الجامع بالصحن الصغير. إنّ ما يلفت الانتباه في الجامع الكبير بناء وزخرفة وفرة تأثير الأراقونيين والطليطليين فيه، ذلك التأثير المجسّم لفنّ النهضة الإيطاليّة الإسبانيّة حسب ما تعوّد عليه بناة الجامع في الأديرة التي كانوا يؤمّونها مخفيين إسلامهم حتّى طردهم. من ذلك تزويق المحراب بالآجر البارز، وبناء الجدران بصناديق من التربة مدعومة بالآجر تعرف بالطابية، والصومعة بقسميها المثمّنين القائمين على قاعدة مربّعة ودربوز مدرجها الحلزوني، والساعة الفريدة التي تتوسّط إحدى واجهاتها، وقد انقطعت عقرباها اللتان كانتا تدوران عكسا، ربّما تيمّنا باتّجاه الخطّ العربي أو بالطواف وربّما معاكسة لساعات الكنائس أو تفنّنا، وكذلك المحراب الطريف بإطاره المثلّث القائم على تجويف مقوّس وما تضمّنه من أشكال. ويعبّر ذلك الإطار الشبيه بواجهة معبد بيزنطي وسقف بيت الصلاة بمنحدراته الأربعة المقرمدة والصومعة المماثلة لصوامع الكنائس بإسطواناتها المخروطة عن تأثيرات مسيحيّة، مثلما يعبّر المحراب بمسلاّته الثلاث الدافعة للأذى وزخارفه النباتيّة والهندسيّة المثلّثة والمسدّسة كما في التيجان عن تأثيرات يهوديّة، علما بأنّ بعض اليهود المطرودين قد أسلموا في وطنهم الجديد، فلا غرابة أن تلفت أنظارنا النجمة المسدّسة في أعلى الصومعة وفي أكثر من موضع ببيت الصلاة وهي المعروفة بخاتم سليمان والمشهورة بنجمة داوود عليهما السلام، وقد ضربها صلاح الدين الأيّوبي في سكّته وفُضّل شكلها في سورة النحل واستعملت لدفع الأذى بمفعولها السحري فيما يعتقد. هذا التزاوج بين المثلّث والمسدّس في جامع يؤمّه المسلمون وبين النجمة المخمّسة وقبّتي المحراب والوسط كما في جامعي القيروان وقرطبة وبما خطّ عليهما من آيات من سورة الرحمان وشهادة وأدعية لدليل رمزي على التسامح بين الأديان والحوار بين الحضارات، سواء كان بناة الجامع واعين بما يفعلون أو يدسّون أم كانوا ينقلون عن حسن نيّة. وربّما تدلّ صور مفاتيح العقود

المدلاة في قباب بيت الصلاة المكوّنة للسقف الداخلي – وعددها إحدى وستّون ما بين نباتيّة وهندسيّة ورمزيّة – على مختلف الأطراف المساهمة في بناء الجامع، هذه التحفة الغنيّة بالرموز والفريدة في العالم الإسلامي.[1]

*** مسجد الطبيب :**

يقع هذا المسجد الصغير في حي الثغريين بنهج إشبيلية، وقد بناه – حسب المظنون – حمّودة بوسسّة الطبيب الأندلسي في أواخر ق 17م[2]، في فترة توسّع عمراني وازدهار واضح في معماره، وتهدّم في نهاية ق 19م متأثرا بانحطاط المدينة العام، ولم يبق منه إلاّ الجزء المربّع من الصومعة القائمة كغيرها على قاعدة من الأحجار الرومانيّة (2,72م) تعلوها جدران من الآجر (9م) ذات تجاويف تشبه النوافذ المغلقة المزدوجة والمقوّسة، ويحيط بها حزام من جليز القلاّلين الشبيه بجليز صومعة مسجد سيدي عبد اللطيف، إضافة إلى نافذتين صغيرتين منفتحتين على القبلة في مستويين متفاوتين.

ونتصوّر أن الجامور الذي سقط، شبيه بجامور صومعة سيدي عبد اللطيف، كما أنّ الباب المفتح على النهج المذكور، الذي أغلق الآن، كان يؤدّي إلى صحن صغير (8 x 7م تقريبا) ذي ماجل، ثمّ إلى بيت الصلاة (7 x 4,50م تقريبا) ذي السقف المنحدر في اتجاه الصحن، على غرار بيت الصلاة بمسجدي درمول وصاي، حيث يرتكز على عمودين في الوسط .

وبصفة عامة يمثّل هذا المسجد أنموذجا لمساجد الأحياء التي تكاثرت لتعبّر عن تعلّق السكّان بالدّين وحرصهم على تجنّب المناوشات بين الأندلسيين الأصليين والجماعات الدّخيلة حتّى سمّي بمسجد الهزارصة، بينما تذكّر الصومعة بالمآذن

---

(1) مارسي (ج) : تستور... المرجع المذكور.

SAADAOUI (A.) : Testour..., op.cit., P.63-145.

والملاحظ أن ترميم 1968–1973 أزال من تجويف المحراب نقيشة الآية 255 من سورة البقرة. انظر الصورة في : زبيس (س.م.) : بيوت أذن الله أن ترفع. – تونس 1968 ص106.

(2) هو الطّبيب الجرّاح الذي اشترى منه القنصل البريطاني بتونس جوزيف مورقن قصيدة محمد ربضان المخطوطة، وذلك سنة 1719م. انظر : أ. الحمروني : تستور/تاريخ ورحلات.– ميدياكوم، تونس 1994 (نصّ مورقن ضمن فصل : تستور في كتب الرحلات).

المغربيّة في مظهرها العام وحزام الجليز والنوافذ المغلقة ممّا يضفي على البساطة جمالا متميّزا[1].

*** مسجد سيدي عبد اللطيف :**

يعرف هذا المسجد بالجامع الحنفي وبجامع القوس، نسبة إلى علوّ على النهج المجاور تهدّم في بداية ق20م. بناه عبد اللطيف الساحلي سنة 1170هـ/1757 م، ورُمّم سنة 1968 م. ويتميّز بزخرفة صومعته بالآجر، مابين بارز ومخالف، وكذلك بازدواج سقف بيت الصلاة، وبالميضاة - استجابة لرغبة لم تتحقّق - في جعله جامع خطبة حنفيّة. إثر ذلك نقلت جمعيّة الأوقاف منبره إلى الجامع الكبير سنة 1940 بدل المنبر الأصلي الذي نقلته إلى جامع قبلاّط سنة 1944.[2]

*** مسجد ابن الأميرة :**

يقع هذا المسجد الصغير - المعروف أيضا بمسجد الزيتونة التي مازالت به - في حي الثغريين، عند تقاطع المرير الأسفل مع زنقة ابن عطيّة، مع انحراف بسيط في اتجاه القبلة. ويتركّب من بيت للصلاة (7,95 - 8,45 x 5,20-5,50م) يفتح غربا على سقيفة (2,65 x 1,60م) تؤدّي إلى المئذنة (10,80x2,90م) وإلى الميضاة المضافة بعد 1968م وشمالا على صحن شبه مستطيل (10,45-8,55 x 7,90-4,85م). ويتميّز في مظهره العام بالبساطة، حيث لا وجود للخزف والنقائش الجصيّة به، سواء في الواجهة أو في المحراب أو في الصومعة، ما عدا زوجين من التيجان المرتكزين على عمودين ممّا تمّ توظيفه من الآثار الرومانيّة في بيت الصلاة ذي السقف المزدوج المحمل والمرفوع على أعواد السرداوي والمغطّى بالقرميد. وتبدو الصومعة المربّعة ذات الجامور المستدير والمخروط والمبنيّة بالآجر أشبه بحاملة الأجراس في أديرة القرى الإسبانيّة.

---

(1) MASLOW (B.), TOURI (A.), cités par SAADAOUI (A.) : Testour... op.cit., p. 178-181.

(2) SAADAOUI (A.) : Testour... op.cit., P. 146-163.

وأمام جحود الوثائق و الأخبار لا يمكن تأريخ بناء هذا المسجد إلاّ بالنّسبة إلى موقعه من النسيج العمراني وإلى تشابهه مع مسجد درمول. وهكذا يكون قد تأسّس في نهاية ق 17 أو بداية ق 18م.

مع الملاحظ أن وثيقة تعود إلى نهاية ق 19 م تنصّ على تمتّع المسجد بوقف بسيط متأتّ من كراء متجرين بمائة وأربعين ريالا[1].

*** مسجد بوتريكو :**

يقع هذا المسجد الصغير بحي الحارة عند تقاطع نهج الهادي بن عطيّة مع نهج باب سيدي ناجي، وكان يقابله مسجد متشينش الذي هدم سنة 1984 ليتحوّل إلى منزل خاص. ويعرف المسجدان "بجوامع الإخوة " نسبة إلى مؤسّسيهما حسب المعروف من الرواية الشفويّة. ويدلّ مظهره العام، بالمقارنة مع المساجد الأخرى، على أنّه تأسّس خلال ق 18م بعيد تأسيس مسجد متشينش بسنوات، وتداعى للسقوط في نهاية ق 19م حتّى لم يبق منه اليوم إلاّ بعض الجدران المتّصلة بالمنازل وجزء من الصومعة (6 م تقريبا) قائم على قاعدة مربّعة من الأحجار الرّومانيّة (2,65م) على ارتفاع 2,80م ومدعّمة في الزاوية الخارجيّة بسارية تزينها، بينما بنيت الصومعة بالآجر المحيط بصناديق من حجر تذكّر بصومعتي الجامع الكبير و جامع الرحيبة، وتوسّطت جدار الصومعة الشمالي نافذة صغيرة، وتحلّى المدخل بقوس من الآجر يدلّ مع المربّعات الحجريّة المحيطة بالصومعة على رغبة في التميّز عن المساجد الأخرى بمحاكاة الجامعين الأقدمين حيث يتجلّى التأثير الطليطلي. ونتصوّر أنّ المدخل كان يفتح على صحن (4x6 م) يؤدّي يمينا إلى الصومعة، وقبلة إلى بيت الصلاة (6x8 م تقريبا) ذي السقف المنحدر في اتجاه الصحن، والمرتكز على ساريتين تتوسّطان البيت، كما في المساجد الصغيرة الأخرى[2].

---

(1) A.G.G.T., C/2/2 cité par SAADAOUI (A.) : Testour... op.cit., p.164-172.

(2) SAADAOUI (A.) : Testour... op.cit.. p. 182-185.

زاوية سيدي نصر القرواشي(*) :

تقع زاوية سيدي نصر بن علي القرواشي بجانب الطريق الرئيسيّة رقم5، وتفتح على نهج الهادي بن عطيّة قبالة نهج 26 فيفري 1953 المعروف بنهج سيدي نصر. وهذه الزّاوية مشهورة بالقبّة الخضراء الّتي تجاورها أخرى بيضاء أصغر منها وأقلّ ارتفاعا، وبينهما ثالثة برميليّة الشّكل، يلاصقها سقف بيت الصلاة بمنحدريه المغطّيين بالقرميد المحلّي. ففي القاعة الرئيسيّة ضريح الوليّ المُزار، وفي القاعة الثّانية ضريح ابنه سيدي عمّار، وتنتشر قبور أحفاد الولي في عدّة أماكن وخاصّة في الصّحن.

ولا نعرف عن سيدي نصر سوى أنّه معاصر لسيدي علي العريان في النّصف الأوّل من ق 12هـ/18م، وأنّه أخذ الولاية الصوفيّة عنه باعتباره شيخ الأولياء، حسب قصيدة الشّيخ إبراهيم الرّياحي الّتي يقول فيها :

«ذا مقام العريان أستاذ نصر يوم أعطاه لقمة خواصه
فتلقّى الأسرار منه وأبدى للشقيّ الشقاء منه مناصه »[1]

وهو ما تشير إليه الرواية الشفويّة بطعام غريب.[2] وإذا كان بعض أحفاد الولي يذكرون أنّه بنى الزاوية قبل وفاته، فإنّ ما كتب على الجليز عند مدخل القاعة المستطيلة يؤكّد تاريخ بنائها « على يد الحاج عبد الواحد المغراوي في سنة 1146 هـ » الموافقة لسنة 1733 م.[3] وهذا التاريخ يتماشى وتطوّر تستور العمراني الذي لا يمكنه أن يبلغ الحارة (بمعنى حيّ في العبريّة) – حيث الزاوية –

(*) نشر –دون الهوامش– في : العمل 1984/8/23 ص12 بعنوان : معلم حضاري ملائم للثقافة. وانظر عن الزاوية : مارسي (ج) : تستور... المرجع المذكور، ص21 ؛
SAADAOUI (A.) : Testour... op.cit.. P. 236-282.

(1) تعطير النواحي. – تونس1902 ج2 ص113 ؛ الحمروني (أ.) : ثلاث قصائد لإبراهيم الرياحي حول تستور. – مجلة إيبلا (IBLA) 1994/1، ع173، ص81-89.

(2) يقال إنّ سيدي علي العريان، وقد لاحظ تعلّق سيدي نصر به، أعطاه صحفة حشرات، على أنّها طعام، فتناولها سيدي نصر بيسراه، وشرع في الأكل بكلّ لهفة، ولذلك لقّب "ببوجنفة" ربّما لأنّه حتى ظهره طاعة لشيخ الأولياء وانحرف عن المألوف، فظهرت عليه أحوال الصالحين.

(3) لا كما نقله س.م.زبيس خطأ 1149هـ/1736م في : آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، تونس 1955 ص18، بل كما أثبتناه ووافقنا فيه ج. مارسي في المرجع المذكور.

إلاّ بعد ما لا يقلّ عن قرن من استقرار المهاجرين الأندلسيين، أي في بداية القرن الثامن عشر.

كما نقرأ على مدخل القبّة الخضراء من الداخل نقيشة على الجبس تؤرّخ تجديد الزاوية «على نظر الجمعيّة مدّة الأمين أحمد الشريف على يد الصادق بن الحاج محمد عام 1339 هـ/ 1921 م» ممّا يدلّ على اهتمام جمعيّة الأوقاف بهذا المعلم وعلى أهميّة الأملاك المحبّسة عليه، لأنّه لم يكن مجرّد مقام للوليّ وذويه.

وتدلّ بعض قطع الجبس المنقوش المحفوظة في الجدار الغربي، والتي عثر عليها أثناء ترميم المعهد القومي للآثار والفنون للمقام المذكور سنة 1968م، على أنّ التجديد الذي قامت به الجمعيّة لم يطمس المعالم الأصليّة التي لا تختلف شكلا ولا تقلّ جودة عمّا عوّضها جزئيّا. وتزخر القبّة الخضراء (5,65 x 5,65م) مدخلا وداخليّا بالخصوص بنقائش على الجبس رائعة الأشكال وتزاويق على جليز القلاّلين بديعة الألوان. منها كتابة بالخطّ الثلثي المزهر للأبيات 53 و54 و55 وبداية 57 من قصيدة "البردة" للبوصيري :

« فمبلغ العلم فيه أنّه بشر ... وأنّه خير خلق الله كلّهم
وكلّ آي أتى الرّسل الكرام بها ... فإنّما اتّصلت من نوره بهم
فإنّه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم »

إنّ المثال المعماري لزاوية سيدي نصر بفضاءاتها المتكاملة واضح وموافق لوظيفتها كمدرسة قرآنيّة لا تختلف عن مدارس المدن، لأنّ مؤسّسي القرى الأندلسيّة، وبعد قرن من المحافظة على الأشكال الإسبانيّة في مبانيهم، أخذوا يندمجون في المعمار التونسي مع تطعيمه ببعض الملامح الأندلسيّة في نطاق تفتّحهم على المجتمع المحلّي، بل إنّ هذه الزاوية تعتبر حسب شهادة جورج مارسي ومن خلال مجموعات اللّوحات الخزفيّة والنّقائش الجصّيّة المحلّية للقاعة الكبرى، أجمل ما أبدعته صناعة الخزف بتونس من حيث رقّة الأشكال وتناسق الألوان.[1] وهذا يذكّر بزخارف زاويتي سيدي محرز بتونس وسيدي علي عزّوز بزغوان، ويشهد بازدهار الفنّ المعماري المتأثّر بالروافد الأندلسيّة في العهد الحسيني، ويجعل هذا المعلم وثيقة عن تقنيات البناء بالمواد المحلّية، بما في ذلك

(1) مارسي (ج) : تستور... المرجع المذكور، ص21.

بناء الجدران بالتربة بطريقة الطابية، والتسقيف بالعود، وتغطية السطوح بالقرميد. ويدلّ كذلك على أهمّية الوظائف الثقافيّة والاجتماعيّة للزاوية. ففضلا عن كونها مزارا تقدّم فيه الأضاحي ويأوي إليه الفقراء وأبناء السبيل، هي أيضا كتّاب يقيم به طلبة القرآن، ويتوافد عليه مؤدّبو النواحي للتنافس في الحفظ والترتيل إلى وقت قريب، ولذلك احتوى المقام على بيوت عديدة تحيط بالصحن الفسيح (11,8 x 11,8 م)، ويُنفذ إليها عبر الأروقة، وعلى مسجد (9,6 x 6,05 م) يتّسع لخمسين مصلّيا، وعلى مرافق الإقامة، وكذلك على علوّ (4,5 x 4,5 م) استغلّه في الستّينات [من ق20م] الشيخ محمد عبد الجوّاد لتحفيظ المالوف، في نفس الوقت الذي استغلّت فيه أنحاء الزاوية لصناعة النسيج.

إنّ الترميم الذي استؤنف بالزاوية سنة 1992 يساعد على توظيفها كمتحف جهوي للفنون والتقاليد الشعبيّة[...]

• **معالم أخرى**[1] :

– **مسجد درمول** : يتوسّط نهج سيدي نصر الرابط بين الزاوية والسوق، ويعدّ أنموذجا لمساجد الأحياء الصّغيرة التي لا تحتاج إلى ميضاة. واعتبارا لموقعه وتشابهه مع مسجد ابن الأميرة يكون قد تأسّس في بداية ق18م.

– **مسجد صاي** : يعرف بمسجد النخلة –التي كانت به– ويفتح على السوق، قرب البطحاء. وتدلّ النقيشة التي أرّخ بها إبراهيم الرّياحي بناءه –والموجودة عند مدخل بيت الصّلاة– على أنّه بناه الصغيّر صاي الأندلسي سنة 1812م[2]. ويختلف عن مسجد درمول وابن الأميرة بمحرابه وشرفات صومعته. وقد رمّم سنة 1982 والصومعة سنة 1992.

– **مسجد ابن عطيّة** : يتوسّط السّوق (الشارع الرّئيسي). وتدلّ نسبته إلى الوليّ سيدي محمد بن عطيّة على تأسيسه في نهاية ق19م. وكانت به صومعة وميضاة وبئر لا تزال. وقد تهدّم أثناء الحرب العالميّة الثّانية.

---

(1) راجع عنها : SAADAOUI (A.) Testour... op.cit.

(2) أ. الحمروني : ثلاث قصائد... المرجع المذكور.

- **مسجد المصري** : كان يوجد في المدخل الغربي للسّوق. بني في ق17م، وهدّم سنة 1957م. وميزته صومعته المسدّسة من القاعدة إلى الجامور، والمبنيّة بالآجر، من دون حجر.

- **مسجد متينش** : أو متشينش -كما تنطق- كان يوجد بالحارة قبالة مسجد بوتريكو. ويعرفان "بجوامع الإخوة" -حسب ما توضّحه الرّواية الشّفويّة- بني في ق18م، وهدم سنة 1984م، ويمكن إزالة الطلاء عن ركن الصومعة الخارجي لإظهار النقيشة اللاّتينيّة التي بقاعدتها.

- **الزّاوية الرّحمانيّة** : بنيت في ق17م لتعليم القرآن. احتضنت الطّريقة الرّحمانيّة منذ بداية ق19م. بها دفن المناضل الهادي بن عطيّة شيخ الرّحمانيّة.

- **الزّاوية العيساويّة** : بنيت في ق17م، وتهدّمت أثناء الحرب العالمية الثانية. بها دفن سيدي صالح بن طراد، أوّل شيوخ إبراهيم الرّياحي.

- **الزاوية العزّوزيّة** : كانت توجد بالحارة. بنيت في بداية ق18م، وهدّمت سنة 1969م، وألقي بنقيشة مدخلها في أسس المنزل الجديد.

- **زاوية سيدي عبد اللّه الملّيتي** : توجد بأسفل نهج دار لياهو، حذو الفخاخريّة. وقد بنيت في ق18م.

- **زاوية سيدي محمد بن عطيّة** : توجد بأسفل نهج مسجد ابن الأميرة. بنيت في ق19م.

- **الزّاوية القادريّة** : توجد بالنهج المعروف بها. وحسب الأرشيف الوطني (D/99/2) فقد بناها محمد بن العرابي بن حسن بن عيسى الفيلالي المغربي (ت1917م) سنة 1885م. وتتميّز بتعدّد فضاءاتها، وطابعها البغدادي خاصّة في أشكال المحراب والقبّة والشّرفات.

- **الزّاوية الصّالحيّة** : مجاورة للزاوية القادريّة. بنيت لسيدي محمد بن صالح الشّابي في ق19م.

- **زاوية سيدي إبراهيم الرعّاش** : توجد بالمدخل الغربي للسّوق. بنيت في منتصف ق19م. أصبحت مقرّا لجمعيّة صيانة المدينة منذ تأسيسها سنة 1998.

- **زاوية سيدي أحمد بوغرارة** : توجد بالحارة. بنيت في منتصف ق19م -على سبيل التقريب-.

- **الزّاوية التّجانيّة :** توجد بالنهج المعروف بزنقة القاضي (نسبة إلى القضاة من آل موسى). أسّسها الشّيخ إبراهيم الرّياحي سنة 1805م، وجدّدها القاضي محمد الطّاهر بن موسى وابنه الصّادق سنة 1891م.

- **زاوية سيدي صالح بن الحاج :** توجد بالمقبرة. بنيت في منتصف ق19م – حسب التقريب–.

- **زاوية سيدي الصغيّر صاي :** كانت توجد بالمقبرة. بنيت عقب وفاته سنة 1820م.

- **زاوية للاّ زهرة بنت العريان :** توجد على الرّبوة المشرفة من الشّرق. بنيت في بداية ق18م.

- **كتّاب المؤدّب الحاج الهادي الغريبي :** هو العلوّ (صبّاط) الواقع بطرف نهج سيدي بوغرارة (أو زنقة القوس– نسبة إلى قوس العلوّ–) عند اتّصاله بالسّوق. بني في نهاية ق18م.

- **دار لياهو (حاليّا دار الثّقافة إبراهيم الرياحي) :** تقع بالنهج المعروف بها. بناها لياهو بن دافيد ميموني لمعشوقته الفنّانة حبيبة مسيكة قبل سنة 1930م تاريخ نهايتهما المعروفة. ويدلّ معمارها وزخارفها على محاولة الجالية اليهوديّة الاندماج في المجتمع المحلّي.

دفاتر الحالة المدنيّة مصدرا لتاريخ تستور (*)

سعيا إلى تنويع المصادر التاريخيّة يحسن بالباحث أن يستقرئ دفاتر الحالة المدنيّة المحفوظة بالبلديّة ليستخرج معلومات مفيدة عن أصول العائلات وعلاقاتها ومختلف الوظائف والمهن والمؤسّسات والمعالم وغير ذلك ممّا يجدر إثراؤه بما يشبهه في دفاتر العدول ومقارنته بالواقع لكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدينة.

وتمثيلا على ذلك المصدر بعيّنة محدودة فحصنا على عين المكان دفاتر الحالة المدنيّة ببلديّة تستور النّاصة على الولادات منذ بدء التسجيل في سنة 1912 والمشيرة إلى ما سبق بما يشمل سبعين سنة، من 1850 إلى 1920، وهي فترة مرجعيّة تمكن مقارنتها - في دراسة أعمق - بفترة الاستقلال لمعاينة تحوّلات طارئة كظاهرة النزوح المؤثّرة في ألقاب العائلات والأنشطة بالذين وفدوا على تستور وبالذين رحلوا عنها إلى العاصمة.

فممّا يسترعي الانتباه تطوّر البنية الاجتماعيّة - وبالتالي الاقتصاديّة - بجماعات دخيلة على الأندلسيين والوسلاتيين ساهم في استقطابها الحضور الاستعماري، وتقلّص الجالية اليهوديّة بعد أن كانت واضحة النسبة، واندثار بعض الصناعات التقليديّة كصناعة "الشعر" بعد أن تزامن من حرفيّيها عدد كبير، وصناعة الفخّار والحدادة والنّجارة، وتناقص العدول والمؤدّبين والكتاتيب والطلبة وحتّى شيوخ المالوف !

(*) ينشر لأوّل مرّة. انظر عن العائلات والقبائل : الروزنامة التونسية 1295هـ/1877م، 1320هـ/1902م (محمد بن الخوجة)، التقويم التونسي 1927-1928 (الشاذلي بلحسن)، النزهة الخيرية.

- NOEL (A.H.) : Nomenclature et répartition des tributs de Tunisie. - Chalon-sur-Saône, 1900, P. 25-27.

*** أصـول العـــائـــلات :**

إبراهم = ابن براهم ← حنفي

ابكّر = أبوبكـر ← وسلاتي

ابن إسماعيل ← وسلاتي

ابن بريك ← وسلاتي

ابن بشير ← وسلاتي

ابن جنات ← مانسي

ابن الحاج ← مانسي، وهناك ابن الحاج الأندلسي.

ابن الحاج حمّة ← وسلاتي

ابن الحاج سالم ← طرابلسي

ابن حسين ← زواوي

ابن حفصيّة ← وسلاتي

ابن حمادي ← دريدي

ابن حمدة ← همامي مكناسي

ابن دغمان ← غربي بلدي نسبة إلى البليدات، وهناك ابن دغمان الجمّازي

ابن الرحيّم = رحيّم ← وسلاتي، وهناك رحيّم الكرامتي

ابن ساسي ← وسلاتي

ابن سالم ← ولهازي

ابن سديرة ← ساحلي

ابن شعبان ← وسلاتي

ابن الشهيديّة ← عرفاوي

ابن صابر ← طرابلسي

ابن الصغيّر ← مانسي

ابن طالب علي ← وسلاتي

ابن الطاهر ← كرامتي

ابن ظاهر ← همامي

ابن العارة ← مانسي

ابن عبدة ← وسلاتي

ابن عبد السلام ← وسلاتي

ابن عرفة ← كافي

ابن عطيّة : من بنبلة بالساحل التونسي، وينسب إلى الحنفي وكذلك إلى الكافي.

ابن عمّار ← زواوي

ابن غنيّة ← همّامي سلاّمي

ابن فرحات ← وسلاتي

ابن فيّالة ← كرامتي وسلاتي، باعتبار كرامت في جبل وسلات.

ابن قرويّة ← وسلاتي

ابن كاملة ←

ابن مبروك ← وسلاتي

ابن مَحمد ← حنّافي = حنفي

ابن ميلاد ← عبيدي

ابن نافلة ← جلاصي، وينسب أيضا إلى الوسلاتي.

ابن نجمة ← ساحلي

ابن نجيمة ← وسلاتي

ابن هشيم ← جزيري مستغانمي غربي، أي جزائري.

الأحول ← مانسي

أندلسي : نسبة إلى الأندلس (راجع جدول العائلات الأندلسيّة المهاجرة إلى تستور سنة 1609م في كتابنا : تستور I).

الباجي : نسبة إلى باجة، ويرتفع إلى الشريف.

الباش ← كرامتي

البجاوي : نسبة إلى بجاوة بجهة ماطر. ويتّصل البجاوي بالوسلاتي.

البحريني : نسبة إلى البحرين، منطقة جنوبي مجاز الباب (راجع أصل البحرينيين في مقالنا : السلوقيّة. – دامت 1995/5).

بحيرة ← مانسي

البرني ←

البريقي ← ساحلي، وينسب أيضا إلى زرمديني من زهرة مدين شمالي باجة.

بزّة ← وسلاتي

البلدي ←

بالعيد ← بحريني، وهناك بالعيد العرفاوي.

البو ← وسلاتي

بوترعة ← عرفاوي

بوثلجة ← مانسي. ومنهم محمد (ت 1996/4/28) إمام الخمس بمسجد سيدي عبد اللطيف. ويوسف (ت 1994/8/6) إمام الخمس بالجامع الكبير.

بوجمعة ← وسلاتي

بوخريص ← شريف، وهناك بوخريص الجبالي وبوخريص الوسلاتي.

بوخشيم ← زواوي

بودودة ← وسلاتي

بورقعة ← ورتتاني أصيل سرى ورتان غربيّ الكاف. ولعلّ إسم الشهرة منجرّ عن تجارة الجلود.

بوزيّان ← ورتتاني

بوستّة ← وسلاتي

بوشيخ ← جربي

بوعلاّق ← وسلاتي، وهناك بوعلاّق الزواوي

البوغانمي : أصيل تاجروين وقلعة سنان.

بوغرارة ← رزقي

بوفارس ← سعيدي

بوليلة ← زواوي، وهناك بوليلة القروي.

بومراح = ابن مراح ← وسلاتي

بوناب ← بحريني. وبوناب بطن من بلّي، وبلّي حي من قضاعة، وقضاعة من حمير. (محمد أحمد جاد المولى بك – علي محمد البجاوي. أبو الفضل إبراهيم : أيّام العرب في الجاهلية، ط1، مصر 1942 ص408).

بوناصري ← رياحي

بيّوض ← مانسي

التاهنتي ← وسلاتي

التبّاسي : نسبة إلى تبسّة بالشرق الجزائري.

التركي ← حنفي

التكابري = التوكابري : نسبة إلى تكابر غربي مجاز الباب.

الجبالي : نسبة إلى جبال نفزاوة بالجنوب. ومنهم من استقرّ بجبال خمير وينسب إليه النفزي من نفزة جبال خمير.

الجربي : نسبة إلى جربة

الجريدي : نسبة إلى الجريد، (الجنوب التونسي = قسطيلية). وهناك الجريدي الوسلاتي.

الجزيري ← مستغانمي، أي جزائري. وهناك الجزيري الحمروني أو الأندلسي. ومن هذا الأخير عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب البليغ أمين البلاط الموالي لطرفة الفتى العامري. قتلهما الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر سنة 396هـ/1005م. (م.ع.عنان : دولة الإسلام في الأندلس.- دار سحنون، تونس 1990 م2 ص617)، وعلي بن محمد بن رزين الجزيري داعية من الخوارج الأزارقة فرّ من مرّاكش سنة 579هـ/1183م وقتل أيّام الخليفة المنصور الموحّدي (عنان : م5 ص112).

جعفر ← حنفي

الجلاصي : نسبة إلى قبيلة جلاص بجهة القيروان. ومنهم جلاص طرابلسيون بخنق مورو شرقي تستور. ومنهم المؤدّب محمد بن علي الجلاصي (حي 1916م).

الجمّالي ← وسلاتي

الجندوبي : نسبة إلى جندوبة.

جهين (انظر جدول العائلات الأندلسيّة في : تستور I) : يرتفع إلى جهينة، حي من قضاعة (أيّام العرب : المرجع المذكور، ص408)

الجويني = أولاد جوين أصيلو قعفور.

الحسني = أولاد حسن

الحمروني = الحمارنة فخذ من بني يزيد من دبّاب. ويرتفعون إلى بني حمران بن جابر بن فائد بن رافع بن دبّاب بن ربيعة بن زعب (رحلة التجاني ص134، رحلة الورثيلاني ط. الجزائر ص251). استوطنوا مارث وجهة قابس، ولهم بها زاوية سيدي يحي. والحمرونيّة شمالي باجة. وحمرون بجزيرة مالطة. وهناك الحمروني الجزيري. ومنه :

- أحمد بن علي بن صالح الجزيري الحمروني (1322هـ/1904م - 1367هـ/1947م) أحرز على شهادة التطويع من جامع الزيتونة سنة 1360هـ/1941م تاريخ تسميته مديرا بالمدرسة الخيرية بأريانة (حسب شاهد قبره).

- شلبيّة بنت عمر بن أحمد التبّاسي التبسّي وابنة فاطمة بنت عمر الجزيري الحمروني (و 1915/3/4).

- محمد العربي بن علي بن صالح الجزيري الحمروني وابن مبروكة بنت الشايب ابن حسين (و 1912/4/20).

- محَمد الجزيري بن الصادق بن المزوغي الحمروني وابن شلبية التوكابري (و1913/10/14).

- أحمد بن عمر الجزيري الحمروني، شهد على ولادة سنة 1915م.

- محمود الجزيري بن علي بن صالح الجزيري الحمروني وابن مبروكة بنت الشايب؟ ابن حسين الكرامتي (و1915/3/8م).

- محمود الجزيري بن الصادق بن المزوغي الجزيري الحمروني وابن شلبية بنت حسن بن أحمد التوكابري (و 1916/5/8م).

- أحمد بن محمد الجزيري الحمروني.

- حنيفة بنت سالم بن أحمد بن سالم الولهازي وابنة منوبية بنت المزوغي الجزيري الحمروني (و 1917/2/1م).

- منوبية الجزيري زوجة سالم بن أحمد بن سالم، أنجبت محمد الصالح يوم 1912/3/11.

- فطومة بنت علي بن محمد بن هشيم المستغانمي وابنة صالحة الجزيري (ت 1913/12/2).

- حلـومة الجزيـري بنـت بـوجـمـعـة بن محمـد الجزيري الحمروني وابنة فاطمـة بنت محمد الخليـفي بوغـرارة الـرزقـي (و 1917/4/20م).

الحنفي : نسبة إلى المذهب المعروف.

الخضـيري = الخذيـري ← وسـلاتي، وهنـاك الخضـيري الولهـازي والخضـيري الجويني.

الخليفي ← وسلاتي. ومنه بوغرارة الرزقي.

خميس ← وسلاتي

الخميسي ← وسلاتي، وهناك الخميسي الأندلسي. ومنه صالح بن علي بن عبد الله الخميسي الوسلاتي وابن فطومة بنت محمد بن رمتانة الأندلسـي (1912/9/13 - 1958/7/10)، الفكاهي المعروف.

دبّاش ← زواوي

الدريدي : نسبة إلى دريد، بطن من بني هلال.

الدقّي : نسبة إلى دقّة، قرب تبرسق.

دقيقة ← وسلاتي

دَوْ ← وسلاتي

ذياب ← يعقوبي

الرجيل ← بحريني

الرزقي ← دريـــدي

روبه ← عوني أصيل سليانة.

الرياحي : فرع من بني هلال المستقرّين في البلاد منذ منتصف ق 5هـ. ومنهم من استوطن العروسة وقبلاّط شرقي تستور.

الزّرقي ← عبيـدي

الزّرلّي ← ساحلي

زغدود ← كافي

الزغواني : نسبة إلى زغوان، والأصل وسلاتي.

الزّقيمي ← جريدي

الزّوابي ←

الزّواوي : نسبة إلى قبيلة زواوة.

الزين = ابن الزين ← وسلاتي. ومنه محمد (ت 1999/2/14)، إمام الخمس بمسجد عبد اللطيف.

الساحلي : نسبة إلى الساحل من الذين كانوا يفدون على الجهة للحصاد أو التجارة.

ساريج ← زواوي

السبتي ← جندوبي

سعيدان ← زواوي

سكر ← وسلاتي

السوسي : نسبة إلى السوس المغربي.

السيّد ← شريف. وأصله الصوابني من نابل، حسب رواية العائلة.

الشابي : نسبة إلى شابيّة الجريد. ومنهم فروع في عين يونس وعين طنقة ووادي مجردة وزلدو والنتّاقة والملاّحة وبريويق وهنشير الدخليّة وبيت الشرياح.

شاخ = شيخ ← زواوي

الشايب ← توكابري نسبة إلى توكابر شمالي مجاز الباب. وهناك الشايب الكرامتي نسبة إلى كرامت بجبل وسلات.

شبّح ← زواوي

الشريف ← زواوي. ومنه السيّد.

شنّوف ← بوغانمي

الشنّي ← وسلاتي

الشوّاشي : نسبة إلى شوّاش شمالي مجاز الباب أو إلى صناعة الشاشيّة.

الشويحي ← مانسي

شيبة = ابن شيبة ← ولهازي

شيطيّة ← كافي

الصبّاغ ← زواوي، والصبّاغ لامتهان الصباغة.

صدّيق ← غربي

الصيد ← جريدي

الظريّف ← عبدلّي شابي. ومنه الصادق بن العربي (ت1993)، ومحمد بن العربي (ت1963) إمام بمسجد ابن الأميرة ومؤدّب.

الطرابلسي : نسبة إلى طرابلس. والطرابلسيون من رياح من بني هلال. منهم من استوطن خنق مورو شرقي تستور، ومنهم أولاد سيدي خضر بهنشير القليعة وآخرون بتفرشة غربي السلوقيّة. ومنهم المؤدّب حسن بن عمر الطرابلسي (حي 1916م).

الطويل ← وسلاتي، وهناك الطويل الأندلسي.

العاشوري ← خميري

عبّاس ← زواوي. ومنه الطيّب (ت1980/4/5) مؤدّب.

عبد الجوّاد ← مانسي. ومنه الحاج محمد (ت1942) شيخ مالوف.

عبد الرحمان ← وسلاتي

العبدلّي ← شابي

عبد المولى ← وسلاتي

عبد النبي ← مانسي

عبشّة ← ولهازي

العرفاوي : هم أولاد عرفة، فرع من دريد، موجودون في زلّدُو، ووادي جدرة وفيض التونسي وفيض زرّوق وعين يونس وكنانة وشتلو والخوالديّة. وهناك العرفاوي الوسلاتي.

العكّاز ← مانسي. ومنه محمد الصالح (ت 1982/10/26) إمام الخطبة بالجامع الكبير.

عمامو ← زواوي

العنّابي ← زواوي ولعلّه منسوب إلى مدينة العنّاب أي عنّابة بالجزائر.

عوينة ← زواوي

عيّادي ←

العياري : نسبة إلى أولاد عيّار بجبل الهندي من أصيلي جهة مكثر.

العيفة ← يعقوبي

الغالي ← تابعي، يعقوبي

الغربي ← زواوي، فرشيشي

الغريبي ← كافي. ومنه المؤدّب الحاج الهادي بن علي الغريبي (حي 1916).

الفالح ← يعقوبي

فتح الله ← وسلاتي

فرحات ← وسلاتي

الفرشيشي : أصيلو جهة تالة.

فرهود ← وسلاتي

الفرياني : نسبة إلى فريانة التي قدم منها أخوان بوجمعة وعبد الرحمان. اشتغلا في الفلاحة السقويّة ثمّ امتهنا الجزارة منذ أواسط ق 19م تاريخ فرارهما من الجنديّة بإيعاز من أخيهما شيخ فريانة (حسب رواية العائلة). وتعني فران (Feren) في البربريّة الأرض المختارة أي الصالحة للزراعة.

(Pellegrin (A.) : Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie. - éd. S.A.P.I., Tunis 1949, P . 86-87).

فريحة ← حمروني، وهناك فريحة الكافي وفريحة القلعي.

الفزّاني ← شيطيّة الكافي

الفقرة = فقرا ← وسلاتي

قاوة = قاواوة ← زواوي

قدقود ← طرابلسي

القربي ← زواوي

القرفي : نسبة إلى قرفة أو كوريفا قبلة تستور (راجع فصل: كوريفا جارة تيكيلا)، أو نسبة إلى نبتة.

القرواشي : نسبة إلى قرواشة قرب مكثر. قدم بعضهم إلى تستور في بداية ق18م. والأصل منسوب إلى قرواش بن عمر من أبطال عبس في حرب داحس والغبراء يوم الهباءة (أيّام العرب في الجاهلية، المرجع المذكور ص263). ومنهم سيدي نصر بتستور وسيدي القرواشي بهنشير الكشباطيّة قرب تبرسق. وينسب بعض القرواشي إلى العرفاوي والرزقي وهميلة والكبير.

القروي : نسبة إلى القيروان.

قصد الله = ابن قصد الله ← مانسي

قعلول ← وسلاتي

قمرة ← زواوي

قنا : من قبيلة قناوة التي بجنوب المغرب والتي تسمّت بها غانا أي غينيا، وهي بلاد "القناويّة". ومنه السوسي نسبة إلى السوس الأقصى جنوبيّ المغرب. وقد تكون النسبة إلى قنا التي بالصعيد المصري.

الكافي : نسبة إلى الكاف

كرامتي : نسبة إلى كرامت، قرية بجبل وسلات. والكرامتي فرع من الوسلاتي.

كردي ← ولهازي. ومنه البشير بن سالم بن أحمد الكردي الولهازي وابن منوبيّة بنت مزوغي الجزيري (و1914/10/1) بتستور، شيخ مالوف.

الكوّاش ← وسلاتي. ومنه التجاني بن محمد الصغيّر (ت1985) شيخ العيساويّة ومقصّد بالجامع الكبير.

الكيلاني ← ساحلي، وهناك الكيلاني الجبالي والكيلاني الوسلاتي.

اللاّص ← ساحلي

الماجري : نسبة إلى قبيلة ماجر بتالة والقصرين.

مامي ← حنّافي = حنفي

مانسي : نسبة إلى مانس، قرية بجبل وسلات، والمانسيون فرع من الوسلاتيين، قدموا معهم إلى تستور في نفس التاريخ سنة 1762م. ومنهم فرع بسيدي ناجي. ومانس من بني دانس من قبيلة مصمودة البربريّة (عنان : م1 ص305).

المحجوب = المحجوبي ← مرعي

مختار ← ابن حسين = حسيني زوابي

المديوني ←

مراح ← قمّودي

مرجوع ← وسلاتي، والمرجوع الوشم المجدّد وحتّى الراجع من المقبرة ! ومنه عثمان (ت 1986/2/12) شيخ مالوف.

المرداسي ←

المرواني ←

مريقة ← مانسي، وينسب أيضا إلى الوسلاتي.

المشري ← عرفاوي

المغراوي : نسبة إلى مغراوة، فرع من قبيلة زناتة الكبرى ابتدأ ظهورها في أواخر ق 4هـ حينما انضمت إلى الأمويين بالأندلس وحاربت الأدارسة. وأشهر زعمائها زيري بن عطيّة الذي أسّس إمارة مستقلة استمرّت نحو نصف قرن (381-428هـ) وجعل عاصمتها وجدة (الصديق بن العربي : كتاب المغرب. - دار الغرب الإسلامي، ط3 / 1984 ص187). وأطلق إسمها على مستقرّها بجهة مكثر. ومنها سيدي المغراوي بباجة (الخريطة العسكرية : ورقة مكثر).

المقرحي ← زرمديني ساحلي، نسبة إلى زرمدين بالساحل.

المكناسي : نسبة إلى مكناس بالمغرب.

مهنّي ← كرامتي، وكذلك مهنّي الوسلاتي لوجود كرامت في جبل وسلات.

ميساوي ← جويني

ميلاد ← كافي

الناصري ← رياحي

النفزي : نسبة إلى نفزة، فرع من القبيلة المستقرّة بجبال خمير في الشمال الغربي. استقدمهم المعمّرون الفرنسيون للعمل الفلاحي نظرا لاستنكاف الأهالي. ومنه الجبالي.

نكّاعة ← وسلاتي

النياطي ← محواشي

الهمّامي = منهم أولاد سلامة في خنق مورو شرقي تستور، ومنهم فروع في هنشير البنّاي وسيدي ناجي وفيض التونسي. ويتّصل لقب الهمّامي بالمكناسي.

هميلة ← قرواشي

وسلاتي : نسبة إلى جبل وسلات بجهة القيروان، وقد فرّق أهله الثائرين علي باشا الثاني سنة 1762م، فاستوطن بعضهم تستور ونواحيها مثل كنانة وفيض التونسي وشتلو. ومنهم أمين المعاش الصادق بن إبراهيم الطويل الوسلاتي (حي 1914م).

ولهازي : بنو ولهاز، من ولهاصة أو لهيصة البربريّة، مستقرّون بالصخيرة.

اليعقوبي ← تابعي

يوسف ← زواوي

* **اليـهـــود :**

براهمي

بشموط

بلعيش

حجّاج

الحميـاسي ← غربي

حيّون

ذويب

زرقة = زارقة

سماجة

سيود

شنتوف

شوّاط

شوالم

العنفري

فيتوشي = فيتوسي

القربي

كوهين

لالوش

المسلاّتي ← طرابلسي

مشماس

ميموني

* **عـائـلات أنـدلسيّـة :** (راجعها في كتابنا : تستور I)

ابن عاشور : منها السبتي (حي 1915م).

ابن موسى : منها حمودة بن مَحمد(حي 1915) وكيل الذوقان، والشيخ محمد بن الحاج محمد (حي 1917م).

باتيس : منها بوجمعة بن عمر (حي 1915م).

بكيل : منها عثمان بن خميس (حي 1914م).

بنتيرو : انقرضت في أواسط ق 20م. منها زينة بنت عمر بن الحاج محمد الصغير (حيّة 1913م).

بوريقة : منها حليمة بنت عمر (حيّة 1914م)، وعمر بن محمد (حي 1912م).

رباح : نسبة إلى قلعة رباح بالأندلس. منها مصطفى بن بوجمعة (حي 1912م).

زبيس : منها محمد عبيد بن الطيب (1925/9/26 - 1994/2/23) شيخ تستور وإمام الخمس بمسجد درمول فمسجد ابن الأميرة فمؤذن ومقرئ بالجامع الكبير. ومقرئ به. نسخ الجزء الضائع من صحيح البخاري المخطوط بالجامع الكبير ودوّن سجلّه التاريخي في 63ص مختومة بتاريخ 1987/4/21 ولخّص رسالتين في القراءات (مخ. أ. الحمروني).

زعفران : منها الطيب بن عمر (حي 1914م).

شوشان : نزحت إلى تونس بعد الاستقلال. منها مصطفى بن محمد (حي 1913م).

الهنديلي : منها الشيخ محمد (حي 1914م).

*** وظائف ومهن :**

عامل يومي - فلاح - خضار - حدّاد - صفايحي - كوّاش - شعّار - تاجر - بياع (متجوّل) - جنّان (مساقاة) - قهواجي - ميكانيكي (قراج) - كرارطي - فخاخري - برادعي - نجّار - بنّاء - أمين معاش - شيخ - إمام - رقّاع - بلاغجي - ساعي بريد - صبايحي - طبّال.

*** صنّاع "الشعر" :**

الطيّب بن الحاج محمد بن هجالة (حي 1916م)

خميس بن عمر بن الحاج حمّة الوسلاتي (حي 1913م)
صغيّر الطبيب الأندلسي (حي 1913م)
عمار بن محمد الشايب الكرامتي (حي 1913م)
محمد بن محمد مامي الحنفي (حي 1913م)
محمد الصالح بن مصطفى الطبيب الأندلسي (حي 1917م)
محمد بن ساسي بن فرحات الوسلاتي (حي 1914م)
محمد بن حسين بوناب البحريني (حي 1914م)
خميس بالحاج عمر حمّة الوسلاتي (حي 1915م)
بوبكر بالحاج عمر حمّة الوسلاتي (حي 1915م)
خميس بن مصطفى الطبيب الأندلسي (حي 1916م)
محمد بن حمدة مامي الحنفي (حي 1916م)
أحمد بن محمد بن الصغير المانسي (حي 1916م)
المكي بن سليمان المكي العياري (حي 1916م)
الحاج حسين بن عبد الرحمان الوسلاتي (حي 1917م)
خليل بن محمد مامي الحنفي (حي 1917م)
محمد الشايب بن حسين الكرامتي (حي 1917م)

* عـــــدول :

علي بن أحمد الطبيب الأندلسي (حي 1915م)
أحمد بن حمدة بن موسى (حي 1914م)
محمد البشير بالحاج محمد بن موسى (حي 1915م)
محمود بن الحاج محمد بن موسى (حي 1917م)
حمودة بن محمد بن موسى (حي 1917م)

كتب الرحلات مصدرا لتاريخ تستور(*)

سبق أن قدّمنا عدّة نصوص من كتب الرحلات في كتابنا الأوّل عن تستور[1] إدراكا لقيمتها الوثائقيّة، باعتبارها شهادة عيان في الغالب - باستثناء بعض الإعادات -. ولم نعلّق عليها بعد أن استغللناها في أصل الكتاب مع مصادر تاريخيّة متنوّعة. وكأمثلة على ذلك، فقد أشار نصّ داركوس - وهو أقدمها بتاريخ سنة 1631م - إلى أنّها أسّسها الثغريّون والكاطالونيّون، وأنّها عامرة جدّا بألف وخمسمائة ساكن يقطنون بمنازل جميلة، أوروبيّة الطراز، وأنّ لهم سبعة مساجد جميلة المآذن، بينما اهتمّ مورقن سنة 1719م باللغة الإسبانيّة في ألقابهم وتخاطبهم وأدبهم وغنائهم، عندما أشار إلى إنشادهم جماعيّا بالأعواد والقيثارة قصيدة محمد ربضان التي اشترى مخطوطتها من الطبيب الجرّاح حمّودة بوسنّة. وذاك نفس اهتمام بايسونال سنة 1724م مع لفتة إلى النقائش اللاّتينيّة التي تتبّعها قيران سنة 1860م. وفي حين أدرك خيمانات سنة 1724م وفيشرا سنة 1746م الطابع الإسباني في لغتهم ومعمارهم ونظامهم، فإنّ ديفونتان سنة 1783م وبليفير سنة 1876م قد أعجبا بفلاحتهم المتقدّمة وحبّهم للزّهور. وتميّز كانيا وصلاح الدّين سنة 1881م بوصف تفاصيل الواقع، بما له وما عليه، دون نسيان الماضي بآثاره ونقائشه. وكلّ ذلك بروح مرحة.

ومن العرب وصفها الورثيلاني الذي زارها سنة 1768م، فنوّه بأخلاق أهلها باعتبار أصلهم، بناء على حادثة مؤكّدة لثقتهم، وأشار إلى تنظيمهم بوجود شيخ البلد، وأعجب خاصّة بفلاحتهم وبساتينهم. وهو ما سيتبسّط فيه بعد خمس عشرة سنة عالم النبات ديفونتان. ولكنّ الورثيلاني لم يلاحظ بقايا السّور الرّوماني الذي سيدركه قيران بعد قرابة قرن، لاختلاف الاهتمامات. فبقدر ما كان الرحّالة الغربيّون يبحثون في مستعمراتهم عن بقايا ماضيهم الوثني والمسيحي -في شكله الرّوماني والبيزنطي أو الإسباني- ويستكشفون البلاد تمهيدا لاستعمارها أو تبريرا

(*) ينشر لأوّل مرّة.

(1) أ. الحمروني : تستور/تاريخ ورحلات.- ميدياكوم، تونس 1994.

له – وأكثرهم عسكريّون أطّرتهم قنصليّـاتهم – كـان الرحّالـة العـرب يبحثـون عـن امتداد الحضارة الأندلسيّة المسلوبة متحسّسين القيم العربيّة والإسلاميّة لدى الفـارّين بهويّتهم.

وهذه نصوص أخرى توضّح مظاهر جديدة من تاريخ تستور.

1- نصّ المكناسي[1] أو تستور سنة 1787م :

«... ومن الغد سافرنا من هـذه البلـدة، فنزلنـا بظـاهر بلـدة يقـال لهـا تستر [كـذا]... فخـرج أهلهـا بعلامـاتهم [كـذا] وطبولهـم، كبـارا وصغـارا، وبـالغوا فـي التّرحيب... وجلّ أهل هذه البلدة من الأندلس، في غايـة الحضريّـة والأدب وحسن الأخلاق، ولازالوا [كذا] يسألون عن بلادهم بالأندلس. وقد كنت علـى بصـيرة بهـا لمّا رحلت إليها عام ثلاثة وتسعين ومائة وألـف [هـ]، فكنـت أخـبرهم عـن بلادهـم وأرضهم وينشرحون لذلك. وكلّ واحد يقول : أنا من البلاد الفلانيّـة، ويطلـب منّـي وصفها، فأصفها له، فينشرحون بما يحصل لهم من التأصّل في الحضريّة، ولاسيما من كان منهم من بلاد القواعد العظام، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وجيّان، ومـا أشبه ذلك. واجتمع علينا جمع من طلبتهم، فتذاكرنا في مسـائل علميّـة، أصلح اللّـه حالهم...»

لقد أفادتنا هذه الارتسامات بمبلغ إعجاب هذا السّفير المغربي بأصالة أهـالي تستور واعتزازهم بأوطانهم الأندلسيّة، وحسن استقبالهم لضيفهم. وقد جرت العـادة باستقبال الحجيج أو بتوديعهم بذلك الموكب وما فيه من رايـات وطبـول. ويبـدو أنّ هذا الحاج المغربي قد دخل تستور مع حجيجها سنة 1202هـ/1787م، وقضى بها مدّة اجتمع لديه فيها طلبة العلم للأخذ عنه، بما يؤكّد تواصل العلاقـات الثّقافيّـة بيـن تونس والمغرب، لا سيما في تستور التي اختارهـا هـذا العـالم المكناسـي، لمكانتهـا

---

(1) السفير محمد بن عبد الوهّاب بن عثمان المكناسي، مؤلّف رحلة حجازيّة باسم "أحراز المعلّـى والرقيب في حجّ بيت اللّه الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتبرّك بقبر الحبيـب"، م.م. ز. 5264. وقد زار تستور في طريـق إيّابـه مـن حجّتـه عـام 1202هـ/1787م بعد أن عـرّج علـى تونـس. انظر : محمد المنّونـي : ملامح من تطوّر المغرب العربي في بدايات العصور الحديثـة. – في : أشغال المؤتمـر الأوّل لتـاريخ المغـرب العربـي وحضارتـه، مركـز الدّراسـات والأبحـاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس 1979 ج2 ص75–113 وخاصّة ص87 بتعاليقها.

العلميّة، محطّة من محطّات رحلته. وقد كان رحّالة واسع الاطّلاع جديرا باستطلاعات أحفاد الأندلسيّين بعد أن حدّثهم عن الأندلس التي زارها سنة 1193هـ/1779م، أي قبل تاريخ حلوله بينهم بتسع سنوات فقط.

2- نصّ بربروقر[1] أو تستور سنة 1850 م :

نقل تسع نقائش وجد أغلبها في الأنهج، وأهمّها نصب ميلي بميضاة الجامع الكبير يحدّد المسافة بين تستور وقرطاج بـ 69 ميلا (أي ما يعادل 102,258 كلم). ولكنّه أخطأ مثل شَاوْ وبوكلير وقيران في حين شكّ دي فْلُو في النقيشة المعتمدة التي نقلها بايسونال وشاوْ، ثمّ اندثرت، بعد أن ثبت أنّ إسم تستور القديم هو تيكيلا (Tichilla) وليس بيزيكا لوكانا (Bisica Lucana).

ومن أطرف تلك النقائش شاهد قبر لشخص مات في تيكيلا عن سبعين سنة ويُدعى روبريوس روقاتوس بلاليتانوس (Rubrius Rogatus Belalitanus) وينسب إلى بلطة المعروفة بهنشير الفوّار شمالي بوسالم ممّا يؤكّد العلاقات القديمة بين مدن الجهة. وقد ذهب بربروقر مذاهب شتّى في تفسير النسبة. وغادر تستور يوم 29 أوت بعد قضاء يوم وليلتين بها.

3- نصّ الرّحلة الفلياريّة[2] أو تستور سنة 1912م :

«... انتظم بباب المحطّة [محطّة مجاز الباب] قطار مركّب من نحو ثلاثين عربة سيّارة، في طليعتها السيّارة الرّئيسيّة. وسار الموكب على هذا النّظام قاصدا تبرسق. فمرّ بطريقه على بلد تستور ذات الصّومعة الأندلسيّة التي تحاكي شكل صومعة جامع إشبيلية على عهد السّلطة الإسلاميّة. وهناك التفّ حول ركابه جموع لا تحصى من الفرسان والعربان. وكانت بأيديهم مباخر الطيب. وطفقوا يلهجون بالدّعاء لفخامته، ويخفّقون أعلاما مثلّثة كانوا قابضين عليها. فوقع صنيعهم لدى

(1) BERBRUGGER (A.) : Itinéraires archéologiques en Tunisie.- in : Revue Africaine, n°1, années 1856-1857, P. 385-387.

(2) محمد بن الخوجة : الرحلة الفلياريّة.- تونس 1330هـ/1912م، ص246-248 (مصوّر).

فخامته موقع الاستحسان. ولا يسع القارئ إلاّ النّظر بعين الاعتبار والإعجاب لهذه الصّومعة التي بناها إخواننا الأندلس...»

هكذا وصف محمد بن الخوجة مراسم استقبال أهالي تستور لرئيس فرنسا أرمان فليار (A. Vallières) عند مروره بها في طريقه إلى الكاف سنة 1912م. وهو نصّ يذكّرنا بسابقه وبعادة هذا الشّعب المضياف في حسن استقبال ضيوفه -حتّى ولو كان الضيف ممثّل الاستعمار-. ولا حرج، في ذلك الوقت، على محمد بن الخوجة -مؤلّف الرّحلة الفلياريّة- أن يتبنّى موقف النّاطق الرّسمي، المدوّن للرّحلة بلسان حال الرّئيس الفرنسي. ألم يعبّر عن استحسان الرئيس لحفاوة التّرحاب بصفته موظّفا ساميا في الإدارة الاستعماريّة مدعوّا إلى توثيق الرّحلة ؟ فتلك مشاعر الرّئيس فليار. أمّا التفاتة ابن الخوجة إلى الصومعة البديعة فتلك مشاعره الشّخصيّة بصفته مؤرّخا. وهكذا تتداخل وجهات النظر، وتتكامل مع هذه الرّحلة الفريدة من نوعها مقارنة بالرّحلات الأخرى المعبّرة عن وجهات نظر القائمين بها بأقلامهم.

تلك نماذج من المعلومات التي يمكن استنباطها من كتب الرّحلات المختلفة الرّؤى والنّوايا، شريطة التّعامل معها بحذر ونقد ومقارنتها بمصادر أخرى.

أهمّية الرّوايات الشّفويّة في إثراء تاريخ تستور(*)

تحاول هذه الدّراسة أن تبيّن أهمّية الرّواية الشفويّة المتناقلة في تستور في إثراء تاريخ هذه المدينة، وبصفة عامّة مدى اعتماد الرواية الشفوية كمصدر من مصادر كتابة التاريخ والشروط اللازم توفيرها لتلافي ما قد يتسبّب فيه هذا المصدر المزلق من مغالط.

*** علاقة الرّوايات الشفويّة بالتاريخ وشروط اعتمادها :**

وفي البداية نودّ الإشارة إلى أنّ الرواية الشفويّة ليست حديثة الاعتماد في التاريخ إذا استثنينا منهجيّة الاستفادة منها. فهي ليست غريبة عن التاريخ منذ نشأته، بل إنّها تمثّل الطّور الأوّل من أطوار فنّ التّاريخ، عندما كانت الثّقافة شفويّة، وعندما كان التاريخ قصصا شعبيّة قريبة من الأدب، تروى في مجالس السّمر وفي حلقات الأسواق، من نوع أيّام العرب وسير عنترة وسيدنا علي وبني هلال. ولايخفى ما تتسبّب فيه ظروف الرّواية وناقليها، المتمثّلة في جودة الحفظ أو قوّة الذّاكرة والرّغبة في التّشويق والمبالغة أو التّهويل، والمتعلّقة بشخصيّة الرّاوية وثقافته ومستوى المستمعين، من التحريف بالزيادة والنقصان والتغيير، ممّا تسبّب بدوره في أخطاء المؤرّخين الأوائل أمثال المسعودي والواقدي، تلك الأخطاء التي نبّه إليها ابن خلدون فيما بعد، واضعا منهجا نقديّا لتخليص علم التّاريخ ممّا ينقص من مصداقيته، الشّيء الذي فرض على أتباعه من المؤرّخين تحكيم العقل في التّثبّت من السند، متأثّرين في ذلك بمناهج علوم الحديث فيما يتعلّق بالرجال والتّجريح إلى درجة من التحرّي والتخوّف جعلت المؤرّخين المحدثين يبحثون عن مصادر أخرى يثقون فيها ويطمئنّون إليها، مستفيدين من نتائج علم الآثار ووثائق الأرشيف المخطوطة، ملقين بالرّوايات الشّفويّة جانبا سنوات عديدة، إلى أن ظهرت المدرسة الأنتروبولوجية الأمريكيّة لتعيد الاعتبار إليها، لا باعتبار مضمونها الذي

(*) نشر في مجلة الحياة الثقافيّة، ع36-37، س 1985، ص 147-151.

يعسر البتّ في حقيقته التاريخيّة، وإنّما باعتبار مدلولها الرّمـزي، بشـرط مقارنتهـا، بحذر كبير، بمصادر التّاريخ الأخرى.

*** الرّوايات الشّفويّة كمصدر من مصادر تاريخ تستور :**

وأمام ندرة هذه المصادر فيما يتعلّق بتاريخ تستور منذ انبعاثها مع استيطان المهاجرين الأندلسيين بها، كـان لا بـدّ مـن اللّجـوء إلـى الروايـات الشّفويّة الكثيرة المتناقلة جيلا بعد جيل بكلّ اعتزاز مع مظـاهر أخـرى مـن تراثهـا الشّفوي، بقـدر ربّما يفوق غيرها من المدن الأصيلة التي تلاقح فيها الخيال بالواقع ليلدا رصيدا من الرّوايات الشفويّة الموضّحة لملابسات تأسيسها وأبرز مراحل تطوّرها[1].

ويمكن تصنيف الرّوايات الشّفوية المأثورة في تستور إلى خمسة مواضيـع، هي : تأسيس تستور والخلاف بين سيدي علي العريان والقـائد ابـن صنـدل وأصـل الأرض في أحباس يوسف داي وحكاية الربّي فراجي وقدوم الوسلاتيّة. وهي تعـود باستثناء الأخيرة المتأخّرة إلى القرن السّابع عشر.

*** تأسيس تستور :**

تشير الرواية إلى أنّ سكّان تستور قد استوطنوا أوّل الأمر بمكان يبعد عنهـا بحوالي اثني عشر كيلمترا على وادي مجردة سمّوه خروفـة، لأنّ خصوبـة الأرض وحسن استغلالها جعلا عنقود العنب في الكروم التي غرسها الأندلسيون يبلغ حجم ألية الخروف، ممّا جعل البـاي يضـاعف عليهم المجبـى، فاسـتمهلوا رسـوله شـهرا اقتلعوا فيه مغروساتهم وانتقلوا إلى تستور تاركين تحت قصعة في صحن الجـامع حمامتين، إحداهما منتّفة، ومعها ورقة كتب عليها :

" المتنقلة على شبوب أيّـامـهـا يلحـقها المـنى وتـعـيشْ
واللّي قعدت على رسوم ديارها لا لها بالصّحّة ولا لها بالرّيش "

هذا هو المضمون المشترك بين الرّوايات المتعلّقة بتأسيس تستور والمختلفة في بعض التفاصيل. فمنها ما تذكر أنّهم قدموا إلى خروفة من قلعة الأندلس، ومنها

(1) راجع مثلا الروايات المتعلّقة بفتح إفريقيّة وتأسيس القيروان.

ما تنسب إليهم تسمية وادي مجردة بمعنى مجرى الدّاء لملوحة الماء ممّا جعلهم يحفرون الآبار، ومنها ما تدقّق أن الأداء على العنقود ناصري أو صنتيم. وتشير المصادر التّاريخية إلى خلاف نشأ حوالي سنة 1613م بين أندلسيي تونس وشيخهم من جهة وبين الدّاي والباشا من جهة ثانية، عندما تراجع يوسف داي في الامتيازات التي منحها عثمان داي للأندلسيين، تشجيعا لهم على الاستقرار والإنتاج. من ذلك إعفاؤهم من الأداء طيلة ثلاث سنوات من قدومهم، ولكنّه توفّي قبل ذلك. ويعلّق الرّواة بأنّ الذي جعل الأندلسيين يغادرون خروفة ليس معلوم الأداء بل إخلاف الوعد ونقض العهد. فمرجع الغضب ليس إذا ماديّا بقدر ما هو أخلاقي. وعلى كلّ، فمغزى هذه الرّواية، التي تعطينا صورة عن العلاقة بين السّلطة المركزية بتونس وبين أندلسيي تستور، هو -فيما يبدو- أنّ هؤلاء يفضّلون حرّيتهم واستقلالهم على ربحهم المادي.

*** الخلاف بين علي العريان والقائد ابن صندل :**

بعد التضحية السّابقة وجد الأندلسيون أنفسهم مرّة أخرى في صراع مع السلطة المركزية المتمثّلة في يونس بن صندل قائد يوسف داي. ولئن كان الاعتداء في الرّواية الأولى ماديّا فإنّه في هذه الرواية أخلاقي، ولكنّ المحتوى واحد. وتذكر هذه الرّواية رغم بعض الاختلافات أن ابن صندل جاء في جنده لسبي بنات تستور الأندلسيات، فأشار بهلول على الأولياء بإرسالهنّ إلى زاوية شيخ البلد الولي سيدي علي العريان، وهو ميّت، لحمايتهنّ. وعندما أقبل الجند لاغتصابهنّ شوهدت الأكر النّاريّة منطلقة من زاوية الوليّ ساقطة على الجند، مفرّقة ومحرقة. وسمع دعاء الوليّ الصّالح يصرخ "برا يا ابن صندل، وين حصدت تندّر". وقد أصيب ابن صندل ومات في المكان المعروف ببحيرة ابن صندل. وتذكر رواية أخرى أنّ ابن صندل قد حلق لحية سيدي علي العريان، وهو حي. فانتفض داعيا عليه، حتّى إذا عاد من الحرب مع الجزائر مات في تستور ودفن، وأصبح كوم التبن الذي تحدّث عنه الوليّ الصّالح. ويقال في تستور إنّ الأكر النارية قد تركت أثر خروجها من القبّة، وهو النافذة الصغيرة المواجهة لبحيرة ابن صندل، ومنها ما سقط وراء مضارب أولاد عيّار حيث أقيمت لها حوطة. وقد سجّل هذه الواقعة ابن تستور

العلاّمة الشاعر والوليّ الصّالح سيّدي إبراهيم الرياحي قائلا من قصيدة مدح بها سيدي علي العريان معدّدا كراماته[2] :

« واسأل الناس ما ليونس ولّى مظهرا بالفرار منه خلاصهْ
حين رام المبيت بالخود غصبا مكرها أهلهنّ فيما أناصه
فغدا في محلّة لـه حرب قد أثار ابتلاءه وقماصه»

وبعد بحث طويل عن صلة بين هذه الرواية وبين الأحداث التاريخيّة التي عرفتها البلاد في ذلك الوقت، وجدنا إشارة في "المؤنس"[3] إلى ابن صندل. فهو كاتب مراد باي والمستشار الخاص لابنه محمد باشا، باي تونس من 1631م إلى 1659م. وقبل ذلك أرسله يوسف داي إلى مراد باي عندما أراد تسميته، ومعروف أنّ محمد باشا باي قد قام بعدّة حروب في جهة تبرسق والكاف، فلا غرابة أن يمرّ قائده ابن صندل بتستور. وبقطع النظر عن الحقيقة التاريخيّة لهذه الرواية، التي يدحضها تاريخ وفاة العريان المنقوش على تابوته 1165هـ/ 1752م، فإنّها ترمز إلى استطاعة تستور المحافظة على الأسوار التي تحميها من كلّ غزو خارجي بفضل شيخها وحاميها سيّدي علي العريان. وهكذا ينتصر النفوذ الديني المحلّي المتمثّل في القوى الغيبية على السلطة السياسيّة العسكريّة المركزيّة المتمثّلة في يوسف داي ومحمد باشا باي وقائده ابن صندل وجنده. ولا يخفى على أحد أهمّية الاعتقاد الديني في تستور المتمثّل في كثرة المساجد والزوايا. ولا عجب فالأندلسيون المهاجرون قد فرّوا بدينهم.

*** أصل الأرض في أحباس يوسف داي :**

أما الرواية الثّالثة فمفادها أنّ الأرض التي استقرّ بها أندلسيو تستور تعود إلى يوسف داي بصفة أحباس، وكانت تشرف على كرائها جمعيّة الأوقاف، ثمّ انتقلت إلى ملكيّة الأهالي عن طريق الإنزال بعد أن قسمت. ويعتقد أحد أعيان الأندلسيين أنّ القسمة قد تمّت دفعة واحدة مستندا في ذلك إلى طريقة قسمة البساتين

---

(2) تعطير النواحي.- ط. تونس 1320هـ/1902م، ج2 ص 113.
(3) ابن أبي دينار : المؤنس، ص381-384.

المعروفة بسواني البرقين وسواني الرمّان. ولكنّ ذلك لا يتأكّد إلاّ بمراجعة عقود الأحباس ومحاولة ضبط أعمار الآبار والزّياتين المجاورة لمعرفة الفرق بين طريقتي تقسيم الأراضي التي بنى فيها الأندلسيون منازلهم. على أنّ بعض الأراضي قد عادت إلى أحباس يوسف داي، خلافا للشّرع، ووكّل عليها منذ 1887م ساسي بن موسى الحنّاشي ذي الأصل الجزائري[4]. وبعد وفاته أصبح تسجيل هذه الأحباس شكليّا، لا يدفع عنه معلوم الكراء. ومن تلك الأراضي ما وقع خلاف بشأن تسجيله بين الحنّاشي وعائلة ابن موسى المنتصبة على القضاء والإمامة، وذلك سنة 1901م، عندما اعتبر الحنّاشي أنّ هنشير وادي جدرة وتوتة الذي يمسح 300 هك هو من أحباس يوسف داي، وبالتّالي لا يمكن اسناده إلى معمّر فرنسي، بينما ادّعت عائلة ابن موسى أنّه من الأحباس العموميّة المخصّصة للجامع الكبير بتستور، فسجّله رئيس الجمعيّة سنة 1908م حبسا على الجامع الكبير من قبل محمد باشا باي. وذلك ما كفى لإسناده بعد ستّة أشهر إلى أحد المعمّرين. وهو ما وقع بالنّسبة إلى عشرة هناشير أخرى على الأقلّ، فيما بين 1904 و1933. ويذكر عقد دفتر خانة رقم 235662 تواجد أغلبها غربيّ تستور. ولكنّه لا يكفي لمعرفة طريقة توزيع أندلسيي تستور على الأراضي التي يسكنونها ويستغلّونها إلى الآن، وإنّما يعطينا فكرة عن كيفيّة نشأة الأحباس في نهاية القرن التّاسع عشر ومعلومات أخرى عن الفلاحة، لا غير.

*** حكاية الربّي فراجي :**

يروى في تستور أنّ الربّي فراجي بن نسيم شوّاط قدم من المغرب واستقرّ بباجة، حيث عرف بالصّلاح. وعندما مات نقل جثمانه على بغلته، كما أوصى، حتّى إذا اقترب الموكب من تستور اعترضه جيش، ولمّا حاول القائد رفع يده ضدّ الموكب تجمّدت. واستطاع الموكب مواصلة السير حتّى إذا أدرك وادي مجردة حصلت الكرامة الثّانية، إذ انفتح له نفق تحت الماء، واستطاع العبور. وعندما وصل الموكب إلى مكان، أصبح فيما بعد مقبرة لليهود، توقّفت البغلة. وهناك دفن

(4) أرشيف الحكومة التّونسية : سلسلة س، مجلد 4، مُلف 3.

الربّي فراجي. وتشير الرّواية التي أوردها نيكولا هوبكنز[5]، نقلا عن جول مونتال الذي جمعها بباجة سنة 1888، إلى أنّ القائد هو يوسف داي قبل ارتقائه إلى العرش. وتضيف أنّ الجنود قد نطقوا بالشّهادة له إثر دفنه باعتباره وليّا صالحا، وأنّ يوسف داي أمر ببناء قبّة على قبره فسقطت للمرّة الثالثة، وأنّ الربّي فراجي قد بدا ليوسف داي في المنام، في وقت لاحق، وقد ارتقى إلى العرش، وطلب منه تزويد بيعة اليهود بتستور بالزّيت، ففعل ذلك كلّ سنة. وفي الرّواية يبدو الربّي فراجي وليّا صالحا ذا كرامات لا تقلّ عن كرامات الأولياء الصّالحين المسلمين. ومن شأن هذه الرّواية أن تجلب له تقدير الجميع، وأن تخلق جوّا من الانسجام والتقدير المتبادل بين مسلمي تستور والجالية اليهوديّة التي التحقت بها فيما بعد. ولا غرابة أن يكون يهود تستور من أصل أندلسي إذ تشير الرواية الثّانية إلى أنّ الربّي فراجي طُرد من إسبانيا بعد أن نكّل المسيحيون بزوجته وأبنائه. ورغم اشتراك هؤلاء وأولئك في المحنة والمصير، ممّا يجمع الشمل بينهم، فالمعروف أنّ اليهود [غير الطرابلسيين] قد طُردوا قبل المسلمين بأكثر من قرن، أي سنة 1492م. ويبدو أنّهم أقاموا بالمغرب والجزائر في تلك المدّة ليتحوّلوا إلى تستور مع الجالية الأندلسيّة الثانية التي استوطنت حي التغرين (بمعنى الثغريين، سكّان الثّغور شمالي الأندلس) وحي الحارة (نسبة إلى اليهود) في أواسط القرن السابع عشر. والمهمّ أنّه لا شيء ذا بال يفرّق بين يهود تستور ومسلميها، إذ يشتركون في اللباس، ويتعاونون في الفلاحة والتجارة والأفراح والمآتم، إلى وقت قريب. [وإنّما يميّز منازلهم الطلاء الأزرق ووليّهم الربّي فراجي الطلاء الأصفر. وأصل هذين اللونين أنّ الأوّل فرضه عليهم في ملابسهم الخليفة الموحّدي المنصور في مرّاكش سنة 595هـ/1198م، وأنّ الثاني بديل سمح لهم به ابنه وخليفته محمد الناصر[5أ]]. كما تدلّ هذه الرواية من وجهة نظر أخرى على تدخّل يوسف داي في استيطان اليهود بتستور [على غرار صنيع سيدي محرز مع يهود تونس]، وتربط

(5) N. S. Hopkins : Notes sur l'histoire de Testour. - in : Revue d'Histoire Maghrébine, N°19, juillet 1977, P. 294-313.

(5أ) [م.ع. عنان : دولة الإسلام في الأندلس. – دار سحنون، تونس 1990، م5 ص235].

مرّة أخرى علاقة بين هؤلاء وبين السلطة المركزية عن طريق الربّي فراجي الذي لعب دورا شبيها بدور سيدي علي العريان، لكن بأقلّ حدّة.

*** قدوم الوسلاتية :**

الرّواية الأخيرة تسجّل موقف أندلسيي تستور من الوسلاتية الوافدين عليهم وصعوبة الاندماج معهم. ولئن اشتركت مع الروايات السّابقة في مقاومة الدخيل الأجنبي رغبة في الاستقلال والاستقرار، فإنّها تختلف معها في هذا الدخيل هذه المرّة لا يمثّل السّلطة المركزيّة. وتشير هذه الرواية إلى أنّ الثقة المنتشرة بين أندلسيي تستور جعلت هؤلاء لاينقطعون عن العمل ببساتينهم، ويكتفون بإرسال دوابهم إلى السوق محمّلة بالخضر والغلال المعدّة للبيع، فيأخذ الخضّارون ما شاؤوا منها ويضعون الثمن في الزنبيل. وذات يوم عاد الحمار إلى صاحبه في البستان بزنبيل فارغ، فصاح : " دخلنا الأربش" (تحريف الأعراب ساكني الريف). ورغم أنّ هذا "الأربش" غير مسمّى فالمشهور أنّ المقصود به هو الوسلاتية الذين انعدمت الثقة في تستور بسببهم، وتعكّر بقدومهم صفو الجالية الأندلسيّة. وذلك عندما هزمهم علي باشا وفرّقهم سنة 1763م[6] من جبل وسلات (قرب القيروان) الذي اعتصموا به وانقطعت عنهم المؤونة حتى أكلوا دوابهم تنفيذا فيما يروى لدعاء فيهم الولي الصالح سيدي عمارة الماني الذي ظلموه وفرضوا على قبيلته المستضعفة إعداد طعام الحساء وصبّه في شقّ بالجبل لجبره، حسب اعتقادهم ! فدعا عليهم بقوله :

"يا وسالتيّة يا مخالفين الشريعة يا وكّالين البغل

يشتّتكم في عام جادب كيما شتّت فرخ النحل"

وبقطع النظر عمّا يدلّ عليه هذا الصنيع من طبع خشن ذي أصل بربري لا ينسجم بسهولة مع طبع الأندلسيين المتحضّرين، فالمعروف أنّ الوسلاتيّة قدموا دفعة واحدة إلى تستور، ولكنّهم أقاموا مدّة بأحوازها الشرقية للتشاور مع الأندلسيين، ولم يدخلوا المدينة إلاّ عندما أملوا أنّ في اتحادهم قوّة، وقد عانى كلّ

(6) حمّودة بن عبد العزيز : الكتاب الباشي.- تحـ. محمد ماضور، تونس، ص 89.

فريق منهم جور الباي. وهو دائما نفس السبب الذي ألّف بين المسلمين واليهود والوسلاتيّة. وظلّ الأندلسيون سنينا متحفّظين من الوسلاتيّة، متعالين عليهم، لا يزوّجونهم بناتهم، إلى أن أنشأوا صندوقا للإنفاق على العوانس اللاّئي لم يجدن من يخطبهنّ من الأندلسيين، حفاظا على نقاوة دمهم، وكذلك على أملاكهم. لكن فيما بعد استطاع الوسلاتية أن يندمجوا في الأندلسيين منذ تعريفهم بأكلتين بربريّتين هما الكسكسي والمحمصة. واختفى الصراع العنصري بين الفئتين ليظهر في مناسبات تعيين الخليفة والشيخ والإمام في القرن التاسع عشر.

*** الرّوايات الشفويّة ديوان الذّاكرة الجماعيّة :**

ختاما، إنّ تحليل هذه الروايات باعتبار مدلولها ومقارنتها بالمصادر التاريخية المختلفة يمكّننا من تفسير أصحّ لمعلوماتنا عن تستور، لأنّها بمفردها لا تزوّدنا بحقائق تاريخيّة لارتباطها بحاضر الراوي والسامع بقدر ارتباطها بالماضي، ولكنّها تعبّر عن الذاكرة الجماعيّة لتستور ورؤيتها للأحداث.

ثلاث قصائد لإبراهيم الرّياحي

حول تستور[*]

ما قصدنا بهذه الدّراسة مزيد التعريف بشخصيّة الشّاعر الأديب والعالم الفقيه الشّيخ إبراهيم بن عبد القادر الرّياحي (1180هـ/1767م - 1266هـ/1850م) ولا إضافة جديد إلى ما استخلصناه من دراسة إنتاجه الغزير المتنوّع[1].

وإنّما قصدنا فقط التّعليق على ثلاث قصائد - منها ماهو غير معروف - تعليقا لا يهتمّ بمظاهر الفنّ فيها، إذ هي غير ذات قيمة من هذه النّاحية، وإنّما قيمتها في مضامينها المتقاربة التي توجّه دراستنا هذه إلى الأهداف التالية :

1- علاقة إبراهيم الرّياحي بتستور.

2- موقفه من الأولياء الصّالحين.

3- مكانة الأولياء في مجتمع تستور.

القصيدة الأولى[2] :

(الكامل)

انظر[3] له نورا بدا مشهودا يأوي له من قد[4] غدا مسعودا

(*) نشر في مجلّة إيبلا (IBLA) ع 173، س 1/1994، ص 81-89.

(1) أ. الحمروني : " مساهمة في دراسة إبراهيم الرّياحي "، 4 حلقات، جريدة الصّدى 7-14-1975/07/28 و 75/8/4. بيبليوغرافيا إبراهيم الرّياحي، مجلّة الهداية، نوفمبر 1980، ص 116-119. [علم " الزيتونة " الشيخ إبراهيم الرّياحي. - ميدياكوم، تونس 1996].

(2) منقوشة بخطّ ثلثي على لوحة رخاميّة (30/60 صنتم) بسوق تستور (شارع الحبيب بورقيبة)، ووضعت أثناء التّرميم على يمين المدخل، وهي مخطوطة في مجمع الدّواوين : 42أ وأثبتها عمر ابن محمد بن علي بن إبراهيم الرياحي في : تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرّياحي، ط1، مطبعة بكار وشركائه، تونس، 1328هـ/1902م، ج1، ص 77-78. وبرواية التّعطير نفسها أثبتها محمد اليعلاوي وحمادي السّاحلي في ديوان الشّيخ إبراهيم الرّياحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 50-51.

(3) في ديوانه تعطير النّواحي : " وقال مؤرّخا بناء المسجد الذي أنشأه محمد الصّغير الأندلسي بتستور". وتستهلّ القصيدة في أعلى اللّوحة بالبسملة. وفي الدّيوان بتحقيق اليعلاوي : " وقال تغمّده الله بحرمته مؤرّخا المسجد الذي أنشأه محمد الصغير الأندلسي بتستور 1227هـ".

(4) في ديوانه : رجل، وكذا في التّعطير.

في ظلمة الأسواق لاح كأنّما ... نشر الصّباح على الظّلام بنودا
يا رنة الشّيطان منه إذ النّدا ... نادى فولّى خاسئا مطرودا
وغنيمة السّعداء إذا لم يلههم ... شيء فلبّوا ركّعا وسجودا
قربت[5] لذوي الديانة عين[6] ... وبه غدا حزب الشّقا مفؤودا
للّه [أ] سّسه الذي هو آمل ... أن سوف يحرز أجره الموعودا
ربحت تجارته فأنفق فانيا ... لينال في دار النّعيم خلودا
فلمثل هذا الصّنع[7] يستبق[8] النّهى ... وعليه تنفطر اللّئام[9] كبودا
فاقبله من بانيه يا ربّ الورى ... من لا يخيّب لآمل مقصودا
فأجب بفضلك دعوتي إذ قلت ... في تاريخه جازى الصغير جودا[10]

القصيدة الثانية[11] :

(الكامل)

يا غافلا في غيّه عن رشده ... أنسيت من مثواك غمّة لحده
حتّى متى لا تستفيق تمسّكا ... من خطب الدّهر الخؤون بوعده
فتزوّد التّقوى فنعمت صاحبا ... لا يختشي نكث لمبرم عهده
واجهد لفعل البرّ جهدك مثلما[12] ... كان الصغير صاي باذل جهده

---

(5) في ديوانه : قرّت به، وكذا في التّعطير.
(6) في ديوانه : أعين، وكذا في التّعطير.
(7) كذا في ديوانه وفي التّعطير، ولا يستقيم الوزن بـ "الصّنيع" حسب النّقيشة.
(8) في ديوانه : تستبق، وكذا في التّعطير.
(9) في ديوانه : الكرام، وكذا في التّعطير.
(10) بأسفل النّقيشة تاريخ النظم : "سنة 1227". ولا يستقيم هذا التّاريخ إلاّ بقراءة "جازى" عوض "جاز" كما في التّعطير والنّقيشة.
(11) هذه المرثية أرخ بها إبراهيم الرياحي وفاة سيدي الصغير صاي الأندلسي سنة 1235هـ/1820م : وهي منقوشة بخطّ ثلثي على لوحة رخامية (45/55 صنتم) داخل داره بنهج 26 فيفري 1953 (دار المرحوم صالح صبيح بن عبد الرحمان الوسلاتي حاليا). ورغم غيابها في التّعطير وفي الديوان فقد رجحنا نسبتها إليه. وبأعلاها : بسم اللّه الرّحمان الرّحيم وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وصحبه".
(12) في النّقيشة : "مثل ما".

ذاك الذي جرح القلوب مصابه ... إن كان للرّاجي نهاية قصده
ولكم سعى في الصّالحات مساعيا ... دلّت على استكماله في مجده
فضل توارثته بنو صاي كما ... درّ نظمتَ نفيسه في عقده
ثم انقضى ومضى لرحمة ربّه ... مترجّيا حسن القرى من عنده
فافسح له اللّهم عندك منزلا ... واجعل رضاك خليله في خلده
واجبر مصيبته أهل تستور ففي ... تاريخه عظم المصاب بفقده[13]

القصيدة الثّالثة[14] :

(الخفيف)

من يكن في ضنى ورام خلاصه ... فإلى ذا المقام يحدو خلاصه
حضرة قد حوت سنى وسناء ... ومقاما يعطيك دون خصاصه
فاقترح ما تشاء مخلص عزم ... واقتنص ما أردت منه اقتناصه
ذا مقام العريان أستاذ نصر ... يوم أعطاه لقمة خواصه
فتلقّى الأسرار منه وأبدى ... للشّقيّ الشقاء منه مناصه
والذي جاءه ابن عزّوز يحبو ... خاضعا مظهرا لديه انتقاصه
واذكر ما حييتَ يوم مراد ... يوم جرّ البلا عليه اغتصاصه
يوم وادي الزرقاء إذ رام ظلما ... وطغى جنده وأفنى رصاصه
فكان الرّصاص في الشيخ ماء ... أنزلته السماء مزنى خلاصه
قال يا ظالما جواديك هذا ... رأسك المجترى أريك خصاصه
فقضى نحبه بطعنة سرّ ... عجّلت هلكه وقدّ دلاصه

---

(13) في النّقيشة : ذكر أسفل القصيدة تاريخ نظمها : "سنة 1235هـ".

(14) تعطير النواحي، ج2، ص 113. بأعلاها : "وقال رضي اللّه عنه يمدح الولي العارف باللّه الشّيخ علي العريان بتستور"، وفي مجمع الدّواوين، 9ب : "دفين تاستور". وهي مرثية لأن الشيخ توفي قبل ولادة إبراهيم الرّياحي وذلك سنة 1124هـ/1712م حسب مخطوط نملكه، بينما نقش على تابوته تاريخ 1165هـ/1752م. وفي الدّيوان بتحقيق اليعلاوي ص 125-126 : "قال أسكنه اللّه فسيح الجنان يمدح الشيخ سيدي علي العريان" بقافية "قلاصه". [وهذه العبارة تحيل على أسطورة الدبران الذي جاء يخطب الثريّا من القمر باعتبار سيدي علي العريان جدّا لبنات تستور].

واسـأل النّـاس مـا ليـونـس ولّـى ... مظـهـرا بالـفـرار مـنـه خلاصـه
حـيـن رام المبيت بـالـخـود غصبـا ... مـكـرها أهلهنّ فيـمـا أنـاصـه
فـغـدا فـي مـحـلّـة لـه حـرب ... قـد أثـار ابـتـلاءه وقـمـاصـه
يـا لـهـا مـن مـنـاقـب لإمـام ... صـفـوة الأوليـاء طـرّا خـلاصـه
فـلـكـم قـد أجـار مـن مستـجـيـر ... فـي حـمـاه وعـنـه ألقـى فـراصـه
ولـكـم قـد أغـاث في البحـر مـن قـد ... صـار في قـعـره غريقـا وغاصه
فـابـق يـا ربّ فضـلـه وارض عـنـه ... وأدم مـجـده وأكـرم أصـاصـه

التّعاليق :

1- علاقة إبراهيم الرّياحي بتستور

لم نجد في إنتاج الرّيـاحي مـا يـدلّ علـى حنينـه إلـى مسقط رأسـه وموطنـه الأوّل تستور، كأنّ ذكريات صباه ظلّت ضبابيّة في ذاكرته أو لـم تكـن ذات اعتبـار ضمن اهتماماته الفكريّة والدّينيّة ومسؤوليّاته الشّرعيّة والسّياسيّة. إلاّ أنّ تخصيـص ثلاث قصائد لرجلين بارزين في مجتمع تستور في المجال الدّيني يدلّ علـى نوعيّـة الصّلة التي ربطت الرّياحي بتستور، وهي صلة ربطته فـي نفس الوقت بالظّـاهرة المحوريّة في بنية مجتمع البلدة متمثّلة في الأولياء الصّالحين وفـي نفوذهم الدّينـي. ومعروف أنّ الرّياحي قد جلب إلى تستور الطّريقة التّجانيّة، ومقامها معروف إلـى اليوم بزاوية سيدي أحمد التّجاني. ولا شكّ أنّ صلة الرّياحي بسـيدي علـي العريـان وسـيدي الصغيّر صـاي قـد أكّدتهـا القيم الرّوحيّـة المنشـودة التـي مثّلهـا الأوّل فـي كراماتـه النّافعـة لأهـالي البلـدة ومثّلهـا الثّـاني فـي أعمالـه الصّالحـة، وأهمّهـا بنـاء المسجد. وتطلعنا الوثائق على أنّ هذا الأخير قد كان نـائب الأوقـاف، وأنّـه أشـرف بنفسه على استكمال نسـخة خطّيّـة مـن صحيـح البخـاري محفوظـة بالجـامع الكبـير عندما ضاع منها الجزء السّابع عشر.

كما أنّه نسخ بيده كامل أجزاء صحيح البخاري وحبّسه على مسجده المذكور[15]. ولعلّ هذا المسجد كان منطلق الدّعوة إلى نشر الطّريقة التّجانيّة قبل بناء الزّاوية المذكورة.

2- موقف إبراهيم الرّياحي من الأولياء الصّالحين.

لعلّ من الطّريف أن يجمع إبراهيم الرّياحي بين شخصيّة العالم المستنير بالعقل والمعرفة وبين شخصيّة المتصوّف المؤمن بالأولياء الصّالحين المعتقد في ما ينسب إليهم، ومن بينهم سيدي علي العريان، من كرامات عجيبة متواترة الرّواية شفويّا دون التّثبّت في صحّتها المنطقيّة وموافقتها للحقيقة التّاريخيّة. وهكذا يبدو الرّياحي بتأكيده على مناقب العريان مماشيا لمجتمعه المرتكزة حياته الرّوحيّة على الاعتقاد في الأولياء، ومتأثّرا بشيوخه في هذا الاعتقاد، ومجاريا لعادة البايات في التّبرّك بهم وخدمتهم. ولا شكّ أنّ الرّياحي يدرك قيمة هؤلاء في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة إدراكا يفسّر رغبته في الاستفادة منهم فيما يطمح إليه إلى أن أصبح معدودا ضمنهم، وله ما لهم من النّفوذ في البلاد.

3- مكانة الأولياء في مجتمع تستور.

من النّاحية الثّقافيّة لم يخلّف لنا أولياء تستور إنتاجا شخصيّا من نوع المدائح والخطب والفتاوى، وإنّما ساهموا بطريقة غير مباشرة في ظهور أدب ورواج مدائح ألّفها غيرهم فيهم وأثّرت في استمراريّة العقليّة السنّية المحافظة.

أمّا من النّاحية التّعليميّة فقد ساهمت زواياهم في تحفيظ القرآن وإنشاد الأوراد الصّوفيّة، وإن استغلّت بعض الزّوايا في تحفيظ المالوف وفي أنشطة أخرى.

ومن النّاحية الاجتماعيّة كان الأولياء بمثابة السّند الرّوحي والنّفسي وأحيانا المادّي لكافّة الأهالي، وخاصّة للفقراء بما ينفق عليهم في المناسبات الدّينيّة من

(15) أ. الحمروني : "فهرس مخطوطات تستور"، ح7، مجلّة الهداية، جويلية 1979. حيث يشير الجزء الثّاني عشر من صحيح البخاري إلى أنّه نسخه بيده سنة 1230هـ/1815م وحبسه على مسجده الذي بناه سنة 1227هـ/1812م كما نسخ المجالس السنية على الأربعين النووية (نفس المرجع، مخ 1121).

مساعدات وأطعمة وذبائح متأتية من ذوي البرّ والإحسان أو من ذوي القرابين وحتّى من الطّامعين في الجاه، وكذلك من الأملاك المحبّسة على الزوايا، التي يستفيد منها بالخصوص طلبة العلم المقيمون فيها، والمشرفون عليها، وهم عادة من ذرّيّة الأولياء.

ولا تخفى في تستور الأمس واليوم أهمّيّة الاعتقاد في الأولياء العديدين المحيطة مقاماتهم بالبلدة في شكل حزامين يحميان السكّان من قريب وبعيد[16]. وإلى وقت قريب كان كلّ فرد ينتمي إلى إحدى الطّرق الصّوفيّة القائمة في إحدى الزّوايا وخاصّة منها العيساويّة والرحمانيّة المستحوذتين على الأغلبيّة أمام القادريّة والتّجانيّة[17]. وكان المحظوظ من يتبرّك أهله بدفنه بجوار الوليّ.

وقد بقي تأثير الأولياء واضحا في تستور إلى الآن في المناسبات الدّينيّة وفي الأزمات الاقتصاديّة وحتّى السيّاسيّة، حيث يطاف عليهم بالأضاحي استسقاء أو توديعا للحجيج أو احتفالا بقرار إيقاف تجربة التّعاضد. ويزداد التّأثير وضوحا فيما نلاحظ في تسميات الأشخاص والمحلاّت التّجاريّة والحمّامات والمساجد، وفي القسم والدّعاء والحديث عن رؤيتهم في الحجّ ورؤياهم في المنام.

---

(16) في الحزام الأوّل المحيط بالبلدة نجد زوايا : سيدي عبد اللّه المسوسي، عبد اللّه المليتي، ابن عطية، عبد القادر، ابن رابح، ابن صالح، عبد اللّه أبي البهائم، أبي الرّشيد، ابراهيم الرّعاش، أحمد أبي غرارة، عمّار القرواشي، نصر القرواشي، ابن عبد الرّحمان، علي عزّوز، أحمد التجاني، صالح بن الحاج، محمد بن عيسى، أسلاف مديوني، شيخ الأولياء علي العريان الذي ينسب إليه قوله : "تستور قصعة وأنا مكب عليها ظالمها هالك كي يكون منها فيها". وفي الحزام الثّاني الأوسع نجد زوايا سيدي عقيل، علي بن سالم، ناجي وعمر، للّة زهرة (منتصف ق 18م).

(17) كثيرا ما استند النّفوذ السّياسي في تستور إلى نفوذ ديني. فقد استندت عائلة الهنديلي التي يعين منها شيخ تستور وخليفتها إلى الطّريقة العيساويّة التي يتبعها نصف السكّان إذ كان الحاج عمر الهنديلي مقدما عليها من 1902 إلى 1931 أي بعد المقدم علي بن عطية سنة 1884 الذي أصبحت عائلته مستندة إلى الطّريقة الرّحمانيّة ويتبعها ثلث السكّان وعلى رأسها الشّيخ الهادي بن عطيّة الذي ساهم في الكفاح التّحريري وتوفي بعيد الاستقلال، في حين اتّبع خمس السكّان الطّريقة السلاميّة، ولم تظهر القادريّة إلاّ سنة 1892 والتجانيّة سنة 1895، ولم يكن لهما دور معتبر، وقد يكون لهما نشاط لا نعرفه منذ تأسيس زاويتيهما.

أمّا من النّاحية السياسيّة فقد مثّل أولياء تستور وخاصّة سيدي علي العريان موقف المعارضة لتدخّل السّلطة المركزيّة بتونس في شؤون تستور التي سئم أهلها الظّلم والاستغلال خاصّة عن طريق مضاعفة المجبى عندما ازدهرت فلاحتهم إبّان استقرار المهاجرين الأندلسيّين بخروفة، فكانت سببا في تحوّلهم إلى تستور، بعد أن كانوا قد فرّوا بكرامتهم وإسلامهم من وطنهم الأندلس[18].

وتشير قصيدة الرّياحي الثّالثة إلى ما تؤكّده الرّوايات الشّفويّة في تستور والرّائجة إلى اليوم من دفاع سيدي علي العريان عن بنات الأندلسيّين ضدّ محلة يونس باي بن علي باشا وضدّ محلة مراد باي بن علي بن حمودة باشا (1699-1702) العائد ربّما من حرب على حدود الجزائر والمعسكرة قرب تستور، ذلك الدّفاع الذي توّج بانتصار النّفوذ الدّيني المحلي على السّلطة السّياسيّة الخارجيّة بالنّسبة إلى مجتمع تستور المنغلق والأعزل من السّلاح إلاّ من القوى الغيبيّة التي يتصرّف فيها الأولياء، أحياء كانوا أو أمواتا[19]. ومعروف أنّ مرادا هذا -المشهور بمراد بوبالة- قتله إبراهيم الشريف في وادي الزّرقاء سنة 1702م. ومعروف أيضا أنّ يونس باي -هذا الذي تذكره الرّواية الشّفويّة باسم ابن صندل- قد مات في قسنطينة بعد أن ثار على أبيه علي باشا وانهزم وفرّ إلى الجزائر سنة 1752م. وهكذا تحقّق دعاء العريان.

وفي نفس الوقت تبرز نفس القصيدة مصدر النّفوذ الذي يمثّله العريان باعتباره شيخ البلدة وشيخ الأولياء الذي فرض على سواه وخاصّة على سيدي علي عزوز[20] وعلى سيدي نصر بن علي القرواشي[21] ولايته، ومغيث الحجيج الذين أشرفوا على الغرق في البحر فاستغاثوا به ورأوه في منامهم - حسب ما تؤكّده

---

(18) أ. الحمروني : "تستور والتّواصل الحضاري"، مجلّة الحياة الثّقافيّة، جانفي 1982، ص 52-55.

(19) أ. الحمروني : "منهجيّة تاريخ تستور ومصادره : أهميّة الرّوايات الشّفويّة في إثراء تاريخ تستور"، مجلّة الحياة الثّقافيّة، ع 36-37، س 1985. الخلاف بين سيدي علي العريان والقائد ابن صندل، ص 149 حيث دعاؤه : "برّا يا ابن صندل وين حصدت تندّر" بمعنى : أين قتلت تقتل.

(20) له زاوية بتستور وأخرى بزغوان دفن بها سنة 1710.

(21) دفن بزاويته المبنية بتستور سنة 1733 (حي 1750).

الرّواية الشّفويّة مرّة أخرى – مرتديا غطاء الفراش مساعدا السّفينة على استرجاع توازنها. وإلى هذه الحادثة المتواترة ترجع تسميته بالعريان والبحري[22] . وربّما بالنّظر إلى هذه الإغاثة اختيرت زاويته لاجتماعات سرّيّة للمقاومين للاستعمار الفرنسي بنسبة أكبر من الزّوايا الأخرى كزاوية ابنته للأزهرة[23].

إنّ أهمّيّة مكانة الأولياء الصّالحين في مجتمع تستور بمختلف مظاهرها في الماضي والحاضر ترجّح دراستهم لتكون مفتاحا لفهم عقليّة أهالي البلدة وإدراك معيار تطوّرهم المحتشم عبر التّاريخ[24].

---

(22) دوّن أ. السّعداوي (Testour (Dactyl.), Paris (Sorbonne), 1987, P. 252.) رواية غير لائقة تقول إنّ سيدي علي العريان في السّنة السّابقة لوفاته وبينما كان يحضر صلاة الجمعة انقطع فجأة عن الصّلاة وخرج إلى بطحاء السّوق، وعندما أدركه المصلّون ينكح حمارة استغربوا واستفسروا فأجاب بأنّه يسدّ ثقبا أحدثته الزّوبعة في مؤخّرة سفينة حجيج تستور. وعند عودتهم استخبروهم فأثبتوا جواب الشّيخ. وهذه الرّواية شبيهة بما عدّ من كرامات سيدي محمد القروي (ق18م القيروان) وسيدي عنتر الخوتلي (ت 1682م فاس) (Dermenghem E. : Le culte des Saints dans l'Islam maghrébin, Paris 1954 P. 31) وسيدي علي الوحيشي الشّارف (ت 1076هـ القيروان) وسيدي سعيد الوحيشي (ت 1101هـ القيروان) (محمد الكناني : تكميل الصّلحاء والأعيان لمعالم الإيمان. تحـ. محمد العنابي، تونس 1970، ص70–71). وإذا كانت هذه الرّواية المشتركة تدلّ على تبادل الكرامات بين الأولياء أو اضطراب الذّاكرة الشّعبيّة في نسبتها إلى هذا أو ذاك خاصّة إذا كانوا متزامنين بما فيهم سيدي علي العريان، فإنّها أيضا تدلّ على أنّ قوّة الاعتقاد في الأولياء تقتضي من المجتمع الإسلامي تأويلا رمزيّا لشذوذهم الظّاهر حثّا على التّسامح مع ظاهرة الحيونة المنتشرة في الأوساط الرّيفية خاصّة في الظّروف العصيبة التي شهدتها البلاد خلال القرن الثّامن عشر. ويبقى سيدي علي العريان بالطّابع الجنسي للرّوايات المتعلّقة به رمزا لخصوبة تستور وعذريّتها.

(23) أ. الحمروني : "ذكرى مظاهرة 1953/2/26 بمدينة تستور"، العمل، 1980/2/27، ص 5–6 ؛ "صورة من نضال تستور"، العمل، 1982/2/27.

(24) للمقارنة راجع محمد الحبيب الهيلة : "الزّاوية وأثرها في المجتمع القيرواني بداية من منتصف القرن السّابع إلى نهاية القرن الثّامن الهجري من خلال كتاب معالم الإيمان"، المجلّة التّونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، ع 40–43، س 1975، ص 97–131 ورياض المرزوقي : "الأولياء والصّالحون في إتحاف أهل الزّمان"، مجلة الفكر، أكتوبر 1974، ص 33–48.

الديـن والمجتمـع في تستـور(*)

تحاول هذه الدراسة تتبّع أبعاد الدين المختلفة في مجتمع محلّي، متميّز بتنوّع أصوله العرقيّة والعقديّة، لتستجلي مجالات حضور الدين وتوظيفه ومدى تأثيره المتواصل في عقليّة المجتمع وسلوكه، ماضيا وحاضرا، قصد تحديد نسبة إمكانية اعتماد الدين مدخلا لدراسة تاريخه وفهم واقعه وتصوّر تطوّره(**).

ولذلك تنطلق هذه المحاولة المطبّقة على تستور من بيان مدى تعلّق مؤسّسيها الأندلسيين بالإسلام، دينا ولغة، وفي حدود العبادة في المساجد، كرمز لهويّتهم المتضرّرة خلال قرن ونصف من استقرارهم.

وإثر ذلك تسجّل نقلة من الإسلام الرسمي البسيط إلى الإسلام الصوفي الثري، عند التحاق الوسلاتيين وغيرهم بالأندلسيين، وتتحسّس إسهام العناصر الاجتماعيّة المختلفة في إثراء الدين ثقافة وممارسة بطابع شعبي، بفضل الزوايا، إلى جانب تنويع الطوائف الدينيّة المسلمة واليهوديّة للمشاعر المقدّسة والطقوس.

وتتعمّق بعد ذلك في الكشف عن خلفيات الدين الرمزيّة والروحيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة من خلال ما تعبّر عنه المعالم والأنشطة والتكتّلات.

وفي هذا الصدد، لابدّ من ملاحظة اختصاص المساجد بالرجال والزوايا بالنساء، والحالات الموجبة لظهور فارق الجنس أو اختفائه، وتدخّل الأولياء الأموات في حلّ مشاكل الأحياء بكرامات شبيهة بمعجزات الأنبياء، خاصّة منها المتعلّقة بالماء ـ رمز الحياة والطهارة والعبادة والسلامة ـ وضمان التوزيع الجغرافي للمعالم الدينيّة وملحقاتها لقدسيّة المكان المصان غيبيّا من أيّ عدوان.

(*) ينشر لأوّل مرّة.

(**) قارن بـ: أبعاد الدين الاجتماعية. تعـ.صالح البكاري، الدار التونسية للنشر 1993، لطفي عيسى: أخبار المناقب، سيراس للنشر، تونس 1993، نفس المؤلف: مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر، سيراس للنشر، تونس 1994، خاصة الفصل الرابع.

A. Demeerseman : Les croyances aux "Oualis" des mzaras en Kroumirie. in: IBLA. Avril 1939. P.3-39.

وفيه يتحدث عن سيدي عمارة في أحواز تستور.

ولا يخفى انعكاس الخيال على الواقع في الاعتقاد السائد بالتوازي بين عائلة الأولياء وعائلة الأحياء في مستوى عمودي، وبين أولياء غرباء وأعيان أجانب، في مستوى أفقي. بيد أنّ ذلك الخيال الموحّد في الظاهر لم يمنع من صراع داخلي بين العائلات على السلطة بصورة تظهر الدين مؤلّفا بينها في أصله الرسمي المحدّد بالمَساجد، ومفرّقا بينها في فروعه الشعبيّة المتشعّبة بالزوايا.

وتختتم هذه الدراسة بالوقوف على نهاية الطرق وتقلّص دور الزوايا، منذ تصفية أحباسها وتعصير التعليم بعد الاستقلال، واقتراح طرق لتوظيف التراث الديني في شتّى مظاهره.

تعتبر الظاهرة الدينية من أهمّ الخصائص المميّزة للمهاجرين الأندلسيين مستوطني تستور[1]. ومازال هؤلاء إلى اليوم يفاخرون العناصر الاجتماعيّة الأخرى بأنّهم ضحّوا بأملاكهم وأوطانهم وفرّوا بدينهم. ومعروف تاريخيّا أنّهم عند مجيئهم إلى البلاد لم تكن معرفتهم بالإسلام صحيحة وعميقة بسبب تحريم شعائر الدين الحنيف عليهم وما يتعلّق به من احتفالات قرابة قرن من الاضطهاد وتتبّعات محاكم دواوين التفتيش[2]، وأنّهم في مهجرهم الجديد أقبلوا بكلّ شغف على تعلّم اللغة العربيّة، لغة القرآن، واعتنى بعضهم ممّن حافظ على لغة الأجداد بنقل أهمّ مصادر الشريعة إلى القشتاليّة أو الكاطالونيّة حتّى ظهر ذلك التداخل اللغوي بين العربيّة واللهجات الإسبانيّة المصطلح عليه بالألخميّة (أو الألخميادو = Aljamiado، تحريف الأعجميّة)[3].

وكان طبيعيّا أن يسعى هؤلاء الأندلسيون، المتعارف عليهم بالموريسكيين، في تستور وغيرها من القرى التي أسّسوها أو أحيوها، إلى تجسيم شعورهم الديني المرهف والممثّل لانتمائهم إلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة في التنافس في تشييد الجوامع وتخريج المساجد من بيوتهم وتحبيس أملاكهم عليها تخليدا لأسمائهم

---

(1) الحمروني (أ.) : تستور. دامت 1992/3 ص 62-72.

(2) عبد الله حمادي : المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس، تونس 1989.

(3) الحمروني (أ.) : تستور : تاريخ ورحلات. ميدياكوم، تونس 1994 ص41، ونرمز إليه بـ: تستورI.

ورفعة لمكانتهم[1] وتأكيدا لهويّتهم وصدق عقيدتهم في وجه من شكّك في ذلك من بعض أصيلي البلاد المسلمين، الأمر الذي اضطرّ وليّ نعمتهم أبا الغيث القشّاش إلى أن يتدخّل لصالحهم لدى عثمان داي ويوصي بالتسامح معهم فيما يصدر عنهم من أخطاء في دينهم بسبب الجهل لا القصد، تطويقا للمناوشات التي بدأت تظهر ربّما اعتبارا للامتيازات التي منحهم إيّاها عثمان داي تشجيعا لهم، ثمّ تراجع فيها خلفه يوسف داي[2].

فلم يمض قرن عليهم حتّى تعلّموا الدين بل فقهوه، ونبغ منهم فيه أيمّة وفقهاء. ولا غرابة إذا في أن نجد بعض الأسماء منهم في عداد العلماء بالنسبة إلى مجتمع تستور الصغير كعلي الكوندي المدرّس والمؤلّف وعومر الباشاريرو إمام الجامع الكبير. ومازالت مساجد الأحياء بأسمائها الأندلسيّة سواء ما بقي منها أو خرب أو اندثر تماما، وبالروايات الشفويّة الطريفة المردّدة لظروف تأسيسها والمعلّلة لتجاورها وتعدّدها شاهدة على حرارة الإيمان وبساطة المعتقد مثل رواية مسجدي الإخوة[3].

ولم يصبح إسلام أندلسيي تستور ثريّا إلاّ فيما بعد ـ ومنذ النصف الأوّل من ق 18م وخاصّة في نصفه الثاني ـ عند التحاق الوسلاتيين وغيرهم بهم ومنافسة هؤلاء أولئك في الدين بإعمار الزوايا ونشر الطرق الصوفيّة وإحياء احتفالاتها وترويج أورادها شفويّا وكتابيّا. وإنّه لطريف ألاّ تحمل زاوية إسما أندلسيّا كما لا يحمل مسجد إسما غير أندلسي إلاّ ما شذّ ممّا بني متأخّرا ودلّ إسمه على أصله وموطنه. ولا أدلّ على ذلك من أسماء مساجد الطبيب وابن الأميرة ودرمول وبوتريكو ومتينش (أو متشينش كما تنطق) وصاي، وكذلك الجامع الكبير المنسوب إلى محمد التغرينو والجامع العتيق المجهول، دون شكّ في أصله الأندلسي. أمّا مساجد المصري والدقّي وابن عطيّة فهي تدلّ على أصول مؤسّسيها أو على الأيمة

---

(1) نفس المرجع، ص42 حيث تواريخ المساجد. راجع وصفها في :
A.Saadaoui : Testour... op.cit.

(2) المنتصر القفصي: نور الأرماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش. مخ الوطنية.

(3) يروى عن مسجدي متينش وبوتريكو أنّ أحد الصديقين لم يستنهض الآخر لصلاة الفجر حسب العادة، فاغتاظ هذا الأخير وبنى مسجدا في جانب من داره قبالة مسجد صاحبه.

الذين لازموها حتّى غلبت أسماؤهم أسماء مؤسّسيها المنسيين ربّما من الأندلسيين. ولا أدلّ على ذلك أيضا من أسماء زوايا ابن عيسى والعريان وعبد الله وعبد القادر وابن صالح والرّعّاش وبوغرارة والقرواشي وعزّوز وعبد الرحمان والتجاني وغيرها داخل المدينة وفي أحوازها، ويبلغ عددها الأربعين باعتبار الأولياء الصالحين الذين لم تشيّد على أضرحتهم زوايا والأولياء المدفونين في منازلهم أو في المقبرة حيث زاوية سيدي صالح بن الحاج وزاوية سيدي الصغيّر صاي المندثرة[1].

وهكذا فكأنّ أرض تستور أصبحت مباركة لا بالمساجد العديدة التي تتخلّل نسيجها العمراني فقط بل كذلك بالأولياء وزواياهم التي تتداخل في ذلك النسيج مع المساجد وتحفّ به وتجاوره. وكما أنّه للأحياء أولياؤهم ومزاراتهم فللموتى مثل ذلك في الناحية الشرقيّة من وادي الجبّانة، في مدينة الأموات المقابلة لمدينة الأحياء والمنتشرة على ربوة مثلها، لا عبور بينهما إلاّ على الجسر رمز التواصل بين الدنيا والآخرة. ومادام أولياء تستور بهذا العدد وفي كلّ مكان فلا حاجة للفارّين بدينهم وللمتجاورين معهم إلى أسوار من تراب وحجر لحماية مدينتهم المقدّسة وملجئهم الآمن، حتّى أنّ اليهود شركاء مسلمي الأندلس في الاضطهاد والطرد استفادوا من أرض تستور المباركة - على طريقتهم - بضريح الربّي فراجي الذي دفن، كما أوصى، حيث توقّفت به الدابة الحاملة لتابوته بهداية غيبيّة في سياق من الكرامات شبيه بأولياء المسلمين ومقرّب بين الطائفتين، حسب الرواية الشفويّة المتداولة بين الأهالي بإعجاب وتقدير متبادل بين أهل الكتاب وأبناء العمّ[2]. ومثلما

---

(1) راجع تواريخ الزوايا في كتابنا: تستور I ص 37. والملاحظ أن عددا من الأولياء أقيمت لهم زوايا في تستور وغيرها دون أن يدفنوا فيها. راجع وصفها في Saadaoui : op.cit وجميعهم مذكورون في منظومة مطلعها :

عدّالة يا عدّالين المَيْ * ما تعدلوا مَيْلي حملي عليّ ثقيل.

(2) الحمروني (أ.) : منهجية تاريخ تستور ومصادره. مجلة الحياة الثقافية، ع 36-37 س1985 ص 146-154 (حكاية الربي فراجي) ص 150. كان عدد يهود تستور 156سنة 1909 و100سنة 1926 و107 سنة 1936 و91 سنة 1946 حسب :

J.P.Allali: L'album d'images de Gagou et Kamouna, Paris 1985.

يذكّي اليهود مشاعرهم الدينيّة بالصلاة في البيعة وزيارة الربّي السنويّة والترحّم على موتاهم في المقبرة فإنّ المسلمين في تستور ينشّطون حياتهم الروحيّة بالاعتكاف في المساجد والاحتفال بالزردة للأولياء والطواف على زواياهم بالأطفال قبل ختانهم وبالحجيج قبل سفرهم ليطهّروا إسلامهم ويعوّضوا الأسماء المسيحيّة التي كانت فرضت عليهم بلقب "الحاج"، إلى جانب إشهار ختان ولدانهم بعد أن كان ممنوعا عليهم في إسبانيا المسيحيّة.

ويساهم معمار الجامع الكبير بتزاويقه الإسلاميّة والمسيحيّة واليهوديّة - فيما يبدو - وكذلك أشكال الصوامع الشبيهة بالكنائس وزخارف بعض الأبواب وخاصّة منازل اليهود[1] في تذكير كافة السكّان بأهمّية العنصر الديني في حياتهم بصفته مؤلّفا بين قلوبهم في الله. وإن اختلفت أديانهم في الأعراض والطقوس، فوجهتهم واحدة وموحّدة بينهم في كنف التسامح والتعاشر والاحترام المتبادل. أفلا تعبّر قمم القباب ومدارج المآذن عن توق المادة إلى المطلق وتحليق الإنسان إلى الله!

ولئن تقلّص اليوم عدد المساجد والزوايا العامرة فإنّ الجامع الكبير، المتميّز بمعماره وعظمته بين شطري تستور كالقلب بين الرئتين، يبقى قطب الحياة الدينيّة ومركز إشعاع روحاني على كافة المدينة وعلى كامل السنة وخاصّة في الأعياد الدينيّة أو في احتفالات الأفراد بعقد القران وبفضل الدروس اليوميّة بين صلاتي الظهر والعصر. ويقابل هذا القطب الديني الرسمي قطب ثان شعبي يتمثّل في زاوية سيدي علي العريان شيخ الأولياء وملجإ الأهالي عند الشدّة حسب الروايات الشفويّة الشائعة. غير أنّ نشاط هذا القطب يتكثّف بمناسبة الزردة السنويّة لاستنزال أمطار الخريف أو الربيع، حيث تطوف فرقة العيساويّة على الأولياء الصالحين وتذبح القرابين لإطعام الناس وتقام سهرة سلاميّة في زاوية الوليّ. ويتواصل ذلك النشاط ضعيفا في مناسبات الختان والحجّ وأثناء الزيارات العائليّة العاديّة استشفاء أو استنجاحا أو استعدادا للزواج، وغير ذلك ممّا يوعد به، إلى جانب تحفيظ القرآن للصبيان.

---

(1) من ذلك محراب الجامع الكبير الشبيه بواجهة معبد بيزنطي لتأثره بفن النهضة الإيطالية الإسبانية وتعدد نجمة داوود والصليب في أكثر من موضع بالجامع وبأبواب المنازل.

أمّا ما لم يندثر من المساجد الأخرى فيقتصر نشاطها على الصلوات الخمس. وتميّز منها مسجد سيدي عبد اللطيف بمراسم القران. ومنذ سنة 1986 أضيف إليها جامع الرحمان للخطبة في حي غرناطة الجديد ليقوم بنفس أدوار الجامع الكبير في الناحية الأخرى دون أن ينافسه. ولم يبق من الزوايا النشيطة نسبيّا سوى زاوية سيدي نصر القرواشي بصفتها مدرسة قرآنيّة ذات بيوت لسكنى الطلبة ومسجد أصبح مركزا للصناعة التقليديّة منذ 1967 ثمّ من 1994 إلى 1997. ولكنّ تبعيّتها لعائلة كبيرة جعل زردتها محتشمة واستغلالها في الأفراح مقتصرا على ذرّيّة الوليّ والأجوار، وكانوا من قبل يدفنون موتاهم فيها. أمّا زاوية سيدي عبد القادر فمختصّة بزيارة النساء وخاصّة العوانس والراغبات في الخطوبة وفي التمائم لمآرب شتّى. وأمّا زاوية سيدي محمد بن عيسى فمجرّد كتّاب، بينما تحوّلت زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى ناد للأطفال وبعض الزوايا الأخرى إلى مسكن لعائلات معوزة كزوايا سيدي علي العريان وسيدي عبد القادر وسيدي محمد بن صالح وأسلاف مديوني. وغيرها فوّتت فيها بلدية الستّينات - مع بعض المساجد شبه المندثرة كمسجد متشينش - للخواص، مثل زاوية سيدي علي عزّوز. ولم ترمّم إلى الآن زوايا متداعية كزاوية سيدي أحمد التجاني. ولا نعلم ما كان عليه مقام للّة مباركة بنت العريان وسيدي أحمد مكروهة الذي هو الآن مسكن عائلة. ولعلّ مقامات أولياء محيطة بالمدينة كانت مقابر يتبرّك بها الأجوار شأن سيدي أبي البهائم الذي لم نلاحظ عليه قبّة ومازالت حوله الزياتين المظلّلة للقبور المجاورة له، وكذلك زاوية سيدي أحمد بوغرارة التي استغلّت سابقا ككتّاب، فقد عثر حولها على قبور قديمة جدّا، ومازالت توقد بها الشموع كالعادة. وقد كانت الزوايا من قبل تحظى بعناية أكثر من المساجد، فكأنّ المساجد للعبادة ومقصورة على الرجال، والزوايا للحياة دينا ودنيا وعامّة للرجال والنساء مع تفوّقهنّ عليهم وتأثيرهنّ فيهم، خاصّة في مجتمع ساد فيه التصديق برؤى الأولياء في المنام مساندين أو متوعّدين لمن لم يف بالوعد! حتّى أنّ الكثير يخشى القسم بهم، ويقسم بالله كذبا! ويطلب وساطة سيدي فلان وينسى التوجّه المباشر إلى الله، منحرفا عن جوهر الدين!

ويجد ذلك الاعتقاد المبالغ فيه مبرّرا في كرامات الأولياء الدّالة على تدخّلاتهم في حياة النّاس اليوميّة. فسيدي علي العريان سلطان المدينة وحامي حماها وعذريّتها ضدّ أيّ عدوان أجنبي ومنقذ الحجيج من الغرق في البحر، ولذلك يستغاث به بعبارة : "يا بحري يا عريان"، كما هو مذكور في الروايات الشفويّة الخاصّة به وفي المدائح الموازية لها[1]، وهو أيضا سبب في تواصل تدفّق الماء ببئر الحمّام القديم المعروف باسمه والقريب منه والمستمدّ لمفعوله الاستشفائي منه خاصّة أيضا أنّه بجوار الجامع الكبير، وكذلك شأن الحمّام الجديد المعروف بحمّام بزّة صاحبه أو بحمّام سيدي إبراهيم الرعّاش الوليّ المجاور له والمتسبّب في تدفّق الماء عند حفر البئر العميقة. فعندما يئس صاحبه وكاد يفلس رآه في المنام يشجّعه ويعده بأن يُجري إليه ساقية من بئر زمزم! وهكذا ترسّخ في الأذهان الشبه في المفعول الاستشفائي والطابع القدسي المبارك بين تلك البئر وهذا الحمّام مجسّما الانعكاس الشعبي لمعجزة سيّدنا إسماعيل وأمّه هاجر على سيدي إبراهيم الرعّاش وصاحب الحمّام. ولذلك تشترى للولي شمعة بنقد وضع تحت القطّار وأدير حوله سبعا ليتدفّق ماء الزهر غزيرا شافيا. وبالتالي تحقّق التوازن المقدّس بين القطبين : الحمّام القديم في حي الرحيبة الأصلي والحمّام الجديد بين الأحياء المضافة، وقد تقابل كلّ منهما على طرفي السوق، أي الشارع الرئيسي. وهكذا يكتنف الجوّ الديني المكان الدّنيوي ليكمل نظافة الجسد بطهارة الروح، وإنّما النظافة من الإيمان. فزيادة على ذلك يوجد بجوار حمّام بزّة مسجد المصري، وبجوار كلّ من الحمّامين ساحة كبيرة ومقهى ومتاجر، وفندق لمبيت الباعة الجوّالين[2].

ويتصوّر الخيال الشعبي شبكة تربط الصلات بين الأولياء وشيخهم سيدي علي العريان. فهو الذي تكرّم بالولاية على سيدي نصر القرواشي عبر الطعام

---

(1) الحمروني (أ.) : منهجية... المرجع المذكور (الخلاف بين سيدي علي العريان والقائد ابن صندل) ص 149 ؛ ثلاث قصائد لإبراهيم الرياحي حول تستور، مجلة إبلا (IBLA) 1994/1ص81-89.

N.S. Hopkins : Facteurs sociaux dans l'Islam d'aujourd'hui : Cas de l'Egypte et de la Tunisie. in : S. Ferchiou : l'Islam pluriel au Maghreb. CNRS. Paris 1997. P. 293-312.

(2) أزيل الفندقان بعد الاستقلال.

العجيب الذي جنف إليه عن المألوف فأصبح يدعى : "ياقرواشي يابوجنفة"، وهو أيضا الذي تفوّق بقدرته الغيبيّة على سيدي عزّوز، رغم أنّ هذا الوليّ له زاوية بتستور ولكنّه مدفون في زغوان! ومثل هذا يفسّر علاقة سيدي علي العريان بسيدي عبد الله الملّيتي وسيدي ابن عيسى في تستور وسيدي إبراهيم الرياحي بتونس، فيما بعد. فلا غرابة أن يطلق إسمه "البحري" على الأشخاص والمتاجر استحضارا وتبرّكا إلى جانب أسماء نصر وعمّار وتجاني...

ولأنّ أولياء تستور عائلة واحدة وإن اختلفت أصولهم ما بين قادم من المغرب وقادم من الساحل أو من مكان قصيّ، فإنّ أهالي تستور المختلفي الأصول يكوّنون بالجوار والقربى عائلة كبيرة، أفراحها واحدة ومآتمها واحدة.

وهو ما يعبّر عنه بأن "تستور يد واحدة، فمن مسك اصبعا كأنّما شدّ على كامل اليد". وهذا انعكاس آخر للحديث النبوي على واقع المجتمع، مع ما ينجرّ عن ذلك من قوّة واتحاد وتآزر حينا، وصعوبة لإقامة الحدّ أحيانا، إمّا لضرورة التنازل أو لكثرة التدخّلات الصلحيّة!

ولعلّه من طريف المصادفة أن يكون جلّ أولياء تستور من الغرباء - حتّى ولو كانوا بهاليل أو مجانين - ربّما لأنّ أغلب السكّان نازحون، سواء من الأندلس أو من جبل وسلات أو من الأرياف والقرى المجاورة. وهذا ما يفسّر اليوم النجاح الذي يحقّقه الأجنبي عندما يقيم في تستور محظيّا بكلّ تبجيل ومساعدة، مستفيدا من "قنديل باب منارة"!

نقول هذا دون أن ننكر إسهام هؤلاء في تقدّم تستور وتفتّح عقليّتها. وقد كان من قبل أن بنى أحد السّواحليّة، الذين كانوا يأتون للتجارة ويقيمون في العلوّ المعروف بقوس السواحليّة، المسجد المجاور المعروف باسم سيدي عبد اللطيف الساحلي، أخرجه من داره. وكذلك الشأن بالنسبة إلى مساجد المصري من مصر، والدقّي من دقّة، وابن عطيّة من بنبلة في الساحل، ومنها جدّ العائلة سيدي محمد بن عطيّة صاحب الزاوية. والأمثلة عديدة اليوم على اندماج هؤلاء في المجتمع التستوري وتحمّل بعضهم لمسؤوليّات جمعياتيّة، وجميعهم أصبحوا "أولاد بلاد" بفضل النشاط الجمعياتي اليوم، وبفضل العمل الديني بالأمس.

وإذا كان لكلّ حي أو لكلّ عائلة مسجد قريب وزاوية مجاورة أو وليّ تنتسب إليه وترعاه، فإنّ العائلات الأصيلة وخاصّة الدخيلة وجدت نفسها مضطرّة، للرفع من شأنها وتنمية مكاسبها، إلى تبنّي إحدى الزوايا قياما بشؤونها اليوميّة وتعهّدا لبنيانها. ومثال ذلك استناد عائلة ابن موسى الأندلسيّة المتمسّكة بالقضاء إلى سيدي أحمد التجاني، وإشراف عائلة الفرياني، الوافدة في أوائل هذا القرن من فريانة، على زردة العريان بحكم اشتغالها بالجزارة، وانطلاقا من الشعبيّة المكتسبة بعمل ديني واجتماعي أصبحت ممثّلة في جلّ الهياكل والمنظّمات. وهكذا مرّة أخرى تتدخّل الظاهرة الدينيّة في تستور، في الماضي والحاضر، لتفسّر وتوجّه تاريخها وواقعها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وهناك أولياء وزوايا أقلّ شأنا لدى الأهالي لا نعرف عنهم شيئا حتّى وجه التسمية، كسيدي أبي البهائم، ربما لأنّ الأعراب كانوا يوم السوق الأسبوعيّة يعقلون دوابهم في الزياتين المحيطة به، أو أنّه أشبه بسيّدنا سليمان. وحتّى لا يكون هناك تهميش لهؤلاء فإنّهم يخرقون العادة ويمزّقون الصمت من حولهم بتجلّيهم المهدّد لمن تحدّثه نفسه بالاعتداء على مقاماتهم في معنى حكاية سيدي أحمد بوغرارة والعجمي السايب المعتمد بعيد الاستقلال (1956-1959). ومن ذكريات الطفولة أنّ أمّهاتنا، إذا لم نشبع، يرسلننا للطواف حول زاويته مردّدين:"يا سيدي بوغرارة ضيّق لي في الشكارة"، هكذا نتعوّد على الطواف الأصغر ثم نتدرّب على الطواف على الأولياء توديعا للحجيج. حتّى ينعم اللّه علينا بطواف الحجّ.

وحول تستور أولياء أشبه بالمرابطين يراقبون مشارفها ويحتفي الأهالي بزيارتهم خاصّة في الربيع، منهم سيدي عقيل "حوّال الوادي" لأنّه عقل مجردة وأوقف مياهه ليتمكّن الزوّار من عبوره وكذلك الفلاّحون، وسيدي علي بن سالم الذي يُتفاءل بذكره عند اجتياز الوادي في الطريق إليه أو إلى البساتين، وسيدي ناجي مثيله على وادي سليانة، ولالّا زهرة بنت العريان حيث يقضي الحجيج العائدون ليلتهم الأولى، وبجوارها شجرة بطّوم يُطاف حولها بالدعاء على طريقة البربر، وبزاويتها كان يجتمع المناضلون. وهكذا تبدو تستور كالكعبة محاطة من قريب وبعيد بزوايا أولياء لا تنقطع زيارتهم تقرّبا وتنزّها واستمتاعا بالتعارف والاختلاط بين الجنسين، ممّا لا يبيحه المجتمع المحافظ في سائر الأيّام، باستثناء

العيدين، حيث تتحوّل الحياة إلى المقبرة لإيناس الموتى وعقد الزيجات في العام الموالي!

وفي الأرياف القريبة أولياء تزورهم بعض العائلات خاصّة الحاملة لألقابهم كسيدي مرعي وسيدي مزوغي وسيدي مسعود وسيدي قرميط وسيدي بوعمود ممّن لا يحصى عددهم، ولا يشكّ أجوارهم في تدخّلهم في نشاطهم الفلاحي على طريقة آلهة القدامى.

وقد تدعّم الاعتقاد في الأولياء وتفاقم خطر الزوايا وأثرها في حياة العامّة عند انتشار الطرق الصوفيّة في صيغتها الشعبيّة. وأشهرها في تستور العيساويّة والرحمانيّة، وتليهما القادريّة والسلاميّة والتجانيّة والعزّوزيّة[1] وربما تعود شهرة الأولى وانتشارها إلى سرعة ايقاعات مدائحها وما يتبع حفلاتها من فرجة عجيبة[2]، نادرة في الطرق الأخرى، وإن كانت موجودة في السلاميّة. أما القادريّة والتجانيّة فكانتا مناسبتين لتستور حيث طائفة اليهود لتميّزهما بالتسامح مع أهل الكتاب.

إن التنافس الذي شهده مجتمع تستور بين عائلات ابن عطيّة والهنديلي وابن موسى حول المسؤوليّات الهامّة كإمامة الجامع الكبير والقضاء الشرعي، وظهر في شكل تقابل بين المذهب المالكي في الجامع الكبير وبين المذهب الحنفي الذي حاولت عائلة ابن عطيّة تقوية نفوذها به من خلال محاولتها الارتقاء بمسجد سيدي عبد اللطيف إلى رتبة جامع للخطبة وتوظيفها لمسجد ابن عطية وزاويته، قد تواصل في مجال النشاط الطّرقي الأكثر شعبيّة والأنسب لظهور الفوارق والصراع على السلطة بين عائلة ابن عطيّة الوافدة من الساحل والمتحرّكة في إطار مسجد بناه قادم من الساحل ـ أيضا ـ وبين عائلتين أصيلتين أندلسيّتين : الهنديلي وابن موسى.

---

(1) انظر تعريفاتها في: محمد البهلي النيّال: الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي، تونس 1965. الصادق الرزقي: الأغاني التونسية، تونس 1967. فتحي زغندة: الطريقة السلامية في تونس، تونس 1991، مع ملاحظة التقارب بين العزّوزيّة والقادريّة في تأثّرهما بالمالوف.

(2) مثال دروك الذي كان يأكل الدجاج نيئا والطيب بن شعبان الوسلاتي شهر الدبّيري الذي كان يأكل الزجاج ويبتلع الموسى في حفل عيساوية بمحضر خليفة تستور، وتواصل مثل ذلك اليوم.

ففي نطاق الطريقة العيساويّة انتهى التنافس بين عائلتي ابن عطيّة والهنديلي إلى أن آلت مسؤوليّة الإشراف على الطريقة، من خلال شخصية المقدّم، إلى العائلة الثانية بداية من سنة 1884م، الأمر الذي اضطرّ أحد مشائخها من العائلة الأولى إلى التحوّل إلى الطريقة الرحمانيّة التي بدأت تستقطب المريدين عسى أن تسترجع هذه العائلة نفوذها المغتصب في نطاق الطريقة الثانية المنافسة للعيساويّة خاصّة عندما بلغت أوجها مدّة الشيخ الهادي بن عطيّة الذي وظّفها في الكفاح التحريري[1]. كذلك كانت هذه الطريقة الرحمانيّة مسرحا للتنافس بين عائلة أندلسيّة أصيلة تارة وعائلة ابن عطيّة الدخيلة ـ عندما تحوّلت إليها من العيساويّة ـ طورا[2].

وظلّت الطريقة القادرية بعيدة عن مجال الصراع الاجتماعي محافظة على تواصل مشيختها في عائلة مؤسّسها، وربّما لهذا السبب ولضعفها المعنوي وحتّى المادي ـ إذ هي الوحيدة التي لم تكن تنتفع بالأحباس ـ فضّل الشيخ محمود الباي أن يتحوّل عنها إلى الطريقة العيساويّة[3].

وبينما ظلّت عائلة ابن موسى الأندلسيّة منفردة بالطريقة التجانيّة التي لم تكن محتاجة إليها إلاّ عندما ظهرت بوادر التنافس بين عائلة الهنديلي الأندلسيّة

---

(1) بنيت زاوية سيدي محمد بن عيسى منذ ق17م، ولم تحتضن الطريقة العيساوية إلاّ خلال ق19م، ومن شيوخها ابن عرعار ومحمود الباي (ت 1924م)، وكانت قبل ذلك حكرا على عائلة ابن عطية قبل سنة 1884 إذ كان منها المقدّم علي بن عطية والشيخ محمد بن أحمد بن عطية، ثم آلت إلى عمر الهنديلي فمحمد الهنديلي، واضطر محمد بن أحمد بن عطية إلى التحول سنة 1891 إلى الطريقة الرحمانية.

(2) بنيت زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان خلال ق 17م لتعليم القرآن، ولم تحتضن الطريقة الرحمانية إلاّ منذ بداية ق 19م. ومن شيوخها محمد الأندلسي سنة 1884م فمحمد بن أحمد بن عطية سنة 1891م فمحمد باتيس الأندلسي المدرّس بالزاوية فالشيخ الهادي بن عطية إثر وفاته. وهكذا تناوب عليها اثنان من عائلة أندلسية واثنان من عائلة ابن عطية واحدا بواحد. وفي نفس الزاوية دفن محمد باتيس والهادي بن عطية.

(3) بنى زاوية سيدي عبد القادر محمد العرابي المغربي سنة 1885م لتحتضن الطريقة القادرية من سنة 1892م وبإشرافه إلى بداية التسعينات من القرن العشرين تاريخ وفاة حفيده الشيخ إبراهيم العرابي(و1908م) مرورا بجدّه سليمان المكّي.

وابن عمر المانسيّة حول منصب الخليفة لتستأثر عائلة ابن موسى بالقضاء بدعم الباي[1]، توزّعت العائلات الأخرى الأقل شأنا على أضعف الطرق: السلاميّة[2] والعزّوزيّة[3]. وشيئا فشيئا أخذ الأهالي يتحوّلون عنها إلى القادريّة ثمّ إلى العيساويّة وإلى الرحمانيّة بصفتهما قطبي النشاط الطرقي، وباعتبار ما بينهما من تنافس حينا وتقارب حينا آخر[4]. وانتهت الأمور إلى استئثار عائلة الهنديلي بالعيساويّة وابن عطيّة بالرحمانيّة والعرابي بالقادريّة وابن موسى بالتجانيّة، وأخذت الطرق الأخرى الثانويّة في الاندثار لفائدة الرحمانيّة أوّلا ولصالح الحركة الوطنيّة ثانيا من خلال هيكلة جديدة للسكان تقلّص فيها البعد الطرقي تدريجيّا مواكبة لظروف جديدة.

ولا شكّ أنّ استغلال تلك العائلات لدورها الطرقي، سواء في نطاق علاقتها بالمجتمع المحلّي أو في إطار موقفها من السلطة المركزيّة المناهض للثائرين عليها حفاظا على امتيازاتها الاقتصاديّة والسّياسيّة[5]، قد أدّى بها إلى استنزاف أفرادها وأحفادها المتكاثرين لموارد الزوايا من الأحباس والهدايا، ممّا تسبّب في عجزها عن تعهّد مبانيها وكفالة القائمين عليها تعليما وتعلّما. وهكذا قضت تلك العائلات على مصدر قوّتها المعنويّة والماديّة ونشبت الخلافات على العقارات في صلب

---

(1) أسس زاوية سيدي أحمد التجاني الشيخ إبراهيم الرياحي سنة 1805م وجدّدها القاضي محمد الطاهر بن موسى وابنه الصادق سنة 1891م لتحتضن الطريقة التجانية ـ ربما من جديد ـ في السنة التي لوحظ فيها تحوّل محمد بن أحمد بن عطية من العيساوية إلى الرحمانية عندما استأثرت بها عائلة الهنديلي.

(2) مقرّ الطريقة السلامية زاوية سيدي علي العريان. ومن شيوخها محمد بن يوسف سنة 1884م.

(3) مقرّ الطريقة العزّوزية زاوية سيدي علي عزّوز. وقد تحوّلت إلى منزل بعد 1967.

(4) جرت العادة باستضافة أتباع العيساوية لجماعة الرحمانية أوّل سبت بعد المولد "تبريدا لخاطرهم" كما يقال. فيتحوّل هؤلاء في خرجتهم التقليدية إلى زاوية سيدي ابن عيسى عصرا حيث يستقبلهم مقدّم العيساوية والشوّاش فيرشّونهم بماء الزهر ويقدّمون لهم مثارد الكسكسي، وفي الليل تقام "حضرة" رحمانية على شرف أتباع العيساوية. وفي السبت الموالي يقام العكس.

(5) تستور I ص 58-59.

N.S. Hopkins : Testour ou la transformation des campagnes maghrébines. - Cérès Productions, Tunis 1983, p.125-130 ; Testour au XIXe siècle, in : Revue d'Histoire Maghrébine, n°17-18 (1980), p.19-31.

العائلة الواحدة ليستأثر الأقوياء بنصيب الأسد، وما تبقّى تصرّفت فيه جمعيّة الأوقاف أو الجمعيّة الخيريّة بصفة ظرفية ثمّ أحيل إلى أملاك الدولة بعد الاستقلال، ولنا في أحباس زاوية سيدي نصر خير مثال.

هكذا، إذا، يكون قد اتّضح تواصل الماضي في الحاضر من خلال أثر الظاهرة الدينيّة في مختلف مجالات الحياة في تستور بصفتها مفتاحا لفهم مجتمعها عقليّة وسلوكا أثناء تطوّره المحتشم[1].

ولئن تواصل ذلك الأثر اليوم خفيّا نتيجة تطويق الممارسة الدينيّة في حدود العبادة فإنّه قد ترك تراثا غزيرا متنوّعا بإمكانه أن يوظّف في التنمية حسب التشكيلات الملائمة[2].

فما كان قصصا وكرامات استُلهم في الأدب[3]، وماكان أشعارا ومدائح وألحانا سجّل وهُذّب في عروض فنّية[4]، وما كان معمارا رُمّم للتنشيط الثقافي والشبابي والسياحي[5]، وظلّ وثيقة للأثريين ومعينا للمعماريين والفنّانين[6].

---

(1) الحمروني (أ.) : ثلاث قصائد... المرجع المذكور، ص89.

(2) الحمروني (أ.) : ثلاثيات ثقافية، تونس 1983 ص 31-42.

(3) وهو ما قمنا به في بعض ما نشرنا من قصص مثل: حديث الطوفان (العمل الثقافي 1983/1/24) وحكاية الرجم (الشروق 1985/8/13 - رسم، دار سحر، تونس 1995 ص 101-103).

(4) مثل "عنبر الليل" في افتتاح مهرجان المالوف عام 1992 حيث تداخل المالوف مع العيساوية حسب العادة في تستور وفي الزاوية القشّاشية بتونس تحقيقا للمثل :"المالوف الأندلسي في الجدّ والهلس" وقد كانت فرقة شيوخ المالوف بتستور هي نفسها فرقة العيساوية والسلامية والقادرية ومازالت كذلك، حتّى المالوف رمز الدنيا والخلاعة لم يسلم من أثر الدين في باطنه الرمزي الجاد. انظر: تستور I ص 47. فهرس مخطوطات تستور. مجلة الهداية ح1: مارس 1977 - ح10: جانفي 1984 مخ 202 - 203 - 1107-1108 -1122.

(5) بعض المساجد استرجعت وظيفتها الأصلية كمسجد درمول المرمّم سنة 1994، والبقية تمّ ترميمها وتنتظر التوظيف. أمّا زاوية سيدي بن عبد الرحمان فمستغلّة كناد للأطفال، وبعض الزوايا الأخرى عبارة عن كتاتيب. انظر مقالنا: التنشيط الثقافي في محيط تراثي: مثال تستور (الحرية الثقافية 1989/12/7).

(6) تكفي الإشارة إلى بحوث خرّيجي معهد الفنون الجميلة والمتخصصين في التاريخ والآثار من تونس والخارج المذكورة في: تستور I البيبليوغرافيا، وإلى إبداعات عديد الرسّامين والمصوّرين أمثال السويسري جاك فينر (Jacques Feiner). وقد أنتج المخرج لطفي الصيد شريطا قصيرا عن تستور ساهمنا فيه بكتابة النص (ميدياكوم - تونس 1994).

الجنّ والسّحر والخوف في مجتمع موريسكي : تستور[*]

رغم استقرار المهاجرين الأندلسيّين في وطنهم الجديد منذ بداية ق 17م، ظلّوا مسكونين بالخوف الذي كان مسيطرا عليهم في الأندلس تحت حكم النّصارى الإسبان، طوال قرن ونيف من الاضطهاد[1]، ممّا أضفى على عالمهم النّفسي والمادّي تخيّلات غريبة دوّنتها الذّاكرة الشّعبيّة وأثرتها الأخبار الحادثة إلى وقت قريب، حتّى أصبح من خصائص الأقلّيات الأندلسيّة في المدن التّونسيّة الاعتقاد القوي في الجنّ والسّحر، وهاجس الخوف من أشباح الظّلام وأرواح الأموات[2].

ولعلّ عقليّة الإيمان بعالم الغيب تمثّل الوجه الآخر من الإيمان بعالم الشّهادة، ويكوّنان معا البعد الرّوحي والدّيني للمجتمع الأندلسي المسلم[3]. وفي عدّة حالات يتحوّل ذلك الإيمان المزدوج إلى سلاح معنوي لمن لا يملك سلاحا ماديا

(*) نشر في المجلّة التاريخيّة المغاربيّة، ع89-90، ماي 1998 ص 109-114.

(1) حمادي (عبد اللـه) : الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616).- الدار التونسية للنشر، (تونس)، المؤسّسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1989.

(2) قواقيسيلو (خوان)، بارالت (لوث لوباز) : غم المنفى الخفي : شهادة موريسكي من تونس. - في : التميمي (عبد الجليل) : أعمال المائدة المستديرة العالمية الأولى للجنة العالمية للدراسات الموريسكيّة الأندلسية حول : الأدب الألخاميادو الموريسكي : تزاوج لغوي وعالم الاستطرادات اللاّمتناهي، تونس 1986 ص 61-83.

التركي (عبد المجيد) : وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس.- في : حوليات الجامعة التونسية، ع4 س1967 ص 23-82.

(3) TEMIMI (Abdeljelil) : « Attachement des morisques à leur religion et à leur identité à travers les hadiths dans deux manuscrits morisques. - in : Religion. Identité et Sources documentaires sur les Morisques Andalous. Tunis 1984. T2. P. 155-161.

وعن علاقة السّحر بالدّين انظر :

DOUTTE (Ed.) : Magie et religion en Afrique du Nord.- Alger 1909.

راجع كذلك الكتاب الذي أصدرته "إيفات كارديّاك هرموسلاّ" والذي ظهر مؤخّرا لدى منشورات مؤسّسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان 1996.

CARDAILLAC (Yvette Hermosilla) : La magie en Espagne /Morisques et vieux chrétiens aux XVIIe et XVIIIe siècles.- Publications de la Fondation Temimi. Zaghouan, 1996. 210 P.

للدفاع عن كيانه والتأثير في واقعه. فلا غرابة أن تنتشر في تستور[1]، حتّى اليوم وبصفة متناقضة، ممارسة الشّعوذة والسّحر[2] وتروج حكايات الجنّ[3] والموتى المبعوثين.

والدّارس لتلك الممارسة يجدها مرتبطة بأشخاص وأماكن وطقوس ورموز. وأبرز شخصيّة تتعلّق بها تلك الممارسة السّاحرة، وهي عادة امرأة تجاوزت الأربعين، حادّة النّظر، قويّة الشّخصيّة، تعمل في الخفاء أو تدبّر على حريفاتها. وقد انتشرت ممارسة السّحر بين النّساء حتّى تعذّر تحديد المسؤوليّة، فإذا المسحور معروف والسّاحر مجهول. ونعجز عن تفسير ما أصاب المتضرّر فنقول إنّه ربّما أكل الميتة ولا شفاء له إلاّ بأكل الحيّة، وهما حبّتان لنبتة مزدوجتا المفعول، أو نقول إنّه دُسّت له "وزغة" في الطعام بمناسبة استضافته لأنّه تراجع في الخطوبة مثلا، ولا علاج له إلاّ بالفاسخ والفيسوخ بخورا أو شرابا. وكثيرا ما نقول إنّه قرأ "الإسم"، وهو كتاب التحكّم في الجنّ، أو إنّه متزوّج بجنّية، أو إنّه ممسوس من الجنّ مستعملين عبارة "من تحت أيديهم"[4]. وقد نطوف به على مقامات الأولياء الصّالحين عسى أن تكون إصابته من غضب أحدهم لكلمة سيّئة في حقّه، خاصّة إذا كان الوليّ "صعبا" كسيدي أحمد بوغرارة. وربّما استعنّا بالتقّازة أو الشوّافة لمعرفة مصدر الفعلة. ومهما كانت النتيجة لا ينمحي من القلوب أثر الخوف من السحر والسحرة.

وإذا كانت السّاحرة مصدر خوف وحيرة، فإنّ شخصيّة أخرى تناقضها ممثّلة مصدر الأمن والارتياح، هي المؤدّب الذي يبطل السحر ويطرد الجنّ

---

(1) الحمروني (أحمد) : تستور/تاريخ ورحلات. - ميدياكوم، تونس 1994.

(2) عن السّحر انظر المراجع المذكورة في :

LOUIS (André) : Bibliographie ethno-sociologique de la Tunisie. -Pub. IBLA, Tunis 1977, P. 177-178.

MAC DONALD (D.B) : art. Sihr. - in : E.I. IV, P. 425-435.: وخاصّة

(3) عن الجنّ انظر : LOUIS (A.) : op. cit.

MAC DONALD (D.B), (H. Massé) : art. Djinn.- in : E.I., T2, P. 560-561. : وخاصّة

(3) FERCHIOU (Sophie) : Survivances mystiques et cultes de possession dans le maraboutisme tunisien.- in : « L'Homme », Juillet-Sept. 1972 47-69.

بالقرآن، يكتب منه آيات الكرسي وسورة الإخلاص والمعوّذتين والفاتحة على ورقة يحتفظ بها المعني بالأمر أو يشرب ماءها.

وهذه الشخصيّات المحلّية، المعروفة عادة، تقابلها شخصيّات أجنبيّة مجهولة الهويّة، ظرفيّة الحضور، تأتي خاصّة في الصيف، ولا يطول مقامها. فمنها شخصيّة الغربي أو المغربي الأسمر الذي يحمل عادة كيسا ويخفي سكّينا، وينعت عادة بسارق القلوب أو بسلاّب القلوب. يظهر في القيلولة عند خلاء الأنهج، وهو مصدر خوف الصّبيان وآبائهم عليهم، وفي نفس الوقت وسيلة لدى الآباء يخوّفون بها أبناءهم حتّى يمتنعوا عن الخروج فينعم الجميع بالرّاحة والقيلولة. هذا الغربي هو المتّهم باختطاف الأولاد وخاصّة منهم المتميّزين بعلامة كخطّ معيّن في اليد أو نقطة سوداء في بياض العين، يهرب بأحدهم إلى مكان يبحث عنه حسب رسم خطّي معتقدا أنّ به كنزا لا يظهر إلاّ بإراقة دم بشري مخصوص سواء بذبح الصبي أو بالاكتفاء بجرح إصبعه مثلا، وإلاّ تحوّل الكنز من ذهب إلى تراب أو رماد نتيجة غضب الجان الذي كان يحرسه إذا هو لم يحصل على مقابل من الدم. ما أشبه هذا القربان المعوّض للنفس بالنفيس بالعادة الساميّة لدى العرب والفينيقيين التي تطوّرت إلى سنّة سيّدنا إبراهيم.

وكثيرا ما تقترن شخصيّة الغربي بشخصيّة العزّام. وهو أيضا غريب الدّيار، كثيف اللّحية، يستعمل البخور ويدّعي استخدام الجنّ بكلام غير مفهوم للاستدلال بهم على سبب الدّاء ووصف الدّواء، خاصّة فيما تعلّق بالحياة الزّوجيّة من حيث العجز والإنجاب والخيانة. وهو بدوره قريب من النقّازة التي تأتي في يوم ما من جهة مجهولة، تطوف الأنهج منادية بصفتها، متنقّلة من دار إلى دار، فتسأل وتجيب على إيقاع السّبحة مدّعية الإنباء بالغيب في أمور الجنّ والزّواج والنّجاح والمال والإنجاب والغياب بأجوبة مرضيّة عامّة، كأن تقول للفتاة "إنّ مكتوبك آت في ثلاث". وسواء خطبت بعد ثلاثة أيّام أو ثلاثة أشهر أو ثلاث سنوات فإنّ النقّازة صادقة وأهل لتلك الملّيمات ! هذه الشّخصيّات معروفة في الغالب، بالإمكان التعرّف عليها، ولكن هناك شخصيّات أخرى خياليّة تظهر في أماكن وأوقات معلومة. منها الرّهبان المعروف بإصبعه السّادس وبعينيه المتخالفتي اللّون وببرنسه الأبيض. يقال عنه إنّه يأتي يوم السّوق الأسبوعيّة لاشتراء اللحم من الجزّار، فلا

يتفطّن له أحد إلاّ بعد انصرافه، ويتحسّر الذي فرّط فيه إذا لم يقبض عليه ويطالبه بالأمانة ليعطيه المال، كما فعل به غيره.

ومن تلك الشّخصيّات الخياليّة شبح خليل وعبد اللّيل، وهو روح رجل مقتول تتشخّص في اللّيل في السّقيفة المظلمة بزاوية سيدي نصر القرواشي حيث تقيم، ولا تظهر في مكان آخر. ومثلما اعتبرت هذه الزّاوية "مسكونة" فإنّ بقايا الصّوامع المتهدّمة مسكونة هي أيضا بخيالات تظهر ليلا متطاولة متمدّدة إلى الأعلى، وتسمّى "الناد". ويعتقد أنّ أصله الضفدعة التي تبلغ ألف سنة. وما أكثر الضّفادع في الوادي وفي البساتين ! وقد كان العرب في الجاهليّة يقولون بسكنى الجنّ في وادي عبقر –إسم رئيسهم– بالحجاز.

[وفي تستور نعتقد أنّ آبار البساتين مسكونة بجان إسمه "بوقليلات" أي صاحب القلال الصغيرة الناقلة للماء. نناديه إذا أطللنا على بئر فنسحب الصدى ردّه وكأنّنا نحيي في لاوعينا عبادة إلهة العيون المقدّسة في الحضارات القديمة. أمّا في الحمّام فيستأنس المنفرد بالغناء خشية تشكّل رواية أخرى لأسطورة حمّام الذّهب بمدينة تونس].

على أنّ أشهر الشّخصيّات الخياليّة التي ليست خاصّة بتستور، الغولة أو العبّيثة، العابثة بصاحبها، المتشكّلة في هيئة عروس تطلع للطبّال عند السحور في ليالي رمضان في الأماكن والأنهج المظلمة، فترقص على إيقاع الطّبل، وتدغدغه إذا انقطع، حتّى يعرق ويفتر، أو تتحوّل إلى نار، تشتعل هنا ثمّ تنطفئ لتظهر هناك، أو تتحوّل إلى فرس، تركض طوال النهج مطاردة الخائف، فإذا لم تدركه وأغلق خلفه باب الدّار دكّت بحافريها الجدار. وهي عادة ما تظهر في اللّيل وأحيانا في القيلولة وفي الخربات ومواقع القتلى بما فيهم ضحايا المرور. ويفسّر الخيال الشّعبي العبّيثة بأنّها جان تمرّغ في دم القتيل فاقتدر على التشخّص. وهذا قريب من اعتقاد العرب قديما بتشكّل روح المقتول ما لم يُثأر له. ولذلك تعتبر المقبرة مدينة العبابث والعفاريت[1]. والشّجاع من الرّجال من تجرّأ على دخولها ليلا. ويروى أنّ بعضهم ادّعى الشّجاعة فعرضت عليه المخاطرة بأن يدقّ في المقبرة ليلا وتدا.

(1) PROBST-BIRABEN (J.H) : Le Djinn-Serpent dans l'Afrique du Nord.- in : En terre d'Islam. 1948. P. 170-200.

وعندما همّ بالرّجوع أحسّ بيد من القبر تقبض عليه من برنسه ففزع وتركه وفرّ. وفي صباح الغد تحوّل إلى الموضع مع أصحابه فوجدوا الوتد مدقوقا في طرف البرنس، فأدرك ما فعل بنفسه. إنّ رواج مثل هذه الحكايات، فضلا عن قصص الحيوانات والعجائب وتصديق الأمّيين وخاصّة البسطاء والصّغار لهذه الأوهام تربّيهم على الخوف حتّى ليخاف الفتى والرّجل من ظلّه وخياله. ومن الطّريف أنّ أحد أصحابنا تخيّل غولة فتلعثم في ترديده الآية "قل هو اللّه أحد" وحكى قصّته فسمّي "قل أحد" !(**)

فبهذا الخوف لا يتجاوز السّهر وقت صلاة العشاء، وإنّما اللّيل للجنّ والنّوم، والنّهار للإنس والعمل. ومن خالف هذه القسمة فرّط في عمله وعوقب في ليله وعيب عليه تشبّهه بالسّارق. أمّا اليوم، فبانتشار التنوير العمومي وترميم بقايا الصّوامع تفشّت ظاهرة السّهر في أوساط الشّباب العاطل وتقلّصت تلك الاعتقادات. ومع ذلك فلا بدّ من الحذر بمختلف أشكال الوقاية والتّأمين. وهنا يصبح المؤدّب المرجع الأساسي لتفسير الأحلام المزعجة وكتابة التمائم لطرد التابعة وبوتليس والعقارب وغيرها. وتبقى ورقة المؤدّب لاصقة بأبواب البيوت منذ أوّل مايو العجمي. ومن أساليب الحماية التشهّد قبيل النوم، ووضع "الحصن الحصين" و"أسماء الله الحسنى" و"دلائل الخيرات" أو "آيات الكرسي" تحت الوسادة، والبسملة قبل الطّعام والشّراب، ورمي أربع قطع صغيرة من شواء الكبد إلى الجهات الأربع في البيت قبل الأكل، تذويقا للملائكة، والبسملة قبل العبور على دم الذّبائح. وكذلك يكون اتّقاء الأذى والحسد بتعليق تميمة في رقاب الماشية وصفيحة على الآلات وقرن أو رسم للخمسة[1] والسّمكة أو ذنبها[2] على المنسج وباب الدّار، ومثل ذلك

(**) [وهي أفضل الكنى التي لم يسلم منها أحد. وأقرب منها لكّاعة "مرجوع" الذي رجع من باب المقبرة عندما أفاق أثناء جنازته].

(1) HERBER (J.). La main de Fatma.- in : Hespéris, Paris 1927, P. 209-219. PROBST-BIRABEN (J.H.) : La croyance au mauvais oeil et la main de Fatma. - in : Revue Anthropologique, 1993.

(2) VASSEL (E.) : Superstitions tunisiennes.- in : Revue indigène, Paris 1907, P. 325-326.

مع السّينوج في ثوب الرّضيع الذي يُخفى عن أمّ الصّغار[1] المطرودة طرد البومة نذيرة الشّؤم والموت وخراب الدّيار. ومازال الصّغار إذا اختلفوا فتح بعضهم يديه في وجه الآخر إيذاء له بقوله "الخمسة أو العشرة في عينيك". ومازالت أرقام خمسة وعشرة تعوّض بعبارتي "عدّ يدك" و"عدّ يديك" تلافيا للنطق بها، اللّهمّ في عبارة "خمسة وخميس، في عين إبليس... ياحوّات" التي يردّدها مرافقو العريس وخاصّة حامل الشّمعة المخمّسة، أو في عبارة "خمسة وخميس عليك" المعبّرة عن الاستحسان. ومن هذا المعنى مباركة يوم الخميس[2]، وعدد قواعد الإسلام وصلواته وشوكات نجمته. وقد حافظ فرض الزّكاة على عادة العرب في التّضحية بالعشر.

ومن وسائل الحماية أيضا تربية السّلحفاة، وتعليق عظام القنفد، وإيقاد البخور، وذبح خروف يوم تسقيف المنزل، وتدشينه "بختم" ديني، وإلقاء الماء خلف المسافر حتّى يعود بالسّلامة.

ولعلّ أهمّ رمز للحماية من أنواع الشّرّ رقم ثلاثة[3] بضاربيه السّتّة والتّسعة. يتجلّى ذلك في تزويق محراب الجامع الكبير بالمثلّث وبالأهرامات الصّغيرة المثلّثة القائمة على زواياه. أمّا النّجمة المسدّسة فملحوظة في أكثر من موضع ببيت الصّلاة والصّومعة. ومثيلات تلك الأهرامات الثّلاثة قائمة في كلّ جهة بضريح الربّي فراجي. وقد عوّضت بثلاث نوافذ في كلّ جهة من السّقف المنفتح على صحن دار لياهو. وهذا، إلى جانب خاتم التمائم المسدّس، يؤكّد التّشابه الرّمزي بين المسلمين واليهود. [كما ظهر المسدّس في زخارف الجليز على غرار ما هو في قصر الحمراء بغرناطة وفي عديد القصور الأندلسيّة الطراز بالمغرب،

---

(1) GRAF DE LA SALLE (M) : Umm es-Sobyan. Contribution à l'étude du folklore tunisien.- in : Compte-rendu, A.F.A.S, Tunis 1951, P. 79-81.

(2) حول خمسة وخميس قارن بـ :

DESPARMET (J.) : Ethnographie traditionnelle de la Mettidja (Algérie) / Le calendrier folklorique.- in : Revue Africaine, 1933, P. 421-448.

(3) BEN CHENEB (M.) : Du nombre trois chez les arabes.- in : Revue Africaine, T 67, 1926, P. 105-178.

CARDAILLAC (Y.H) : La sorcellerie morisque d'après les documents inquisitoriaux (1500-1650). - in : TEMIMI (A.) : Religion, Identité... op. cit, P. 9-26.

خاصّة في فاس. وكانت صومعة مسجد المصري بتستور -الذي بني في ق17م وهُدم سنة 1957م- مسدّسة، بلا مثيل]. وخير مجسّم لذلك الرّقم مربّع التميمة المنقسم إلى تسع مربّعات صغيرة، في كلّ ضلع منه ثلاثة، تتوزّع عليها الحروف[1]. كما يمكن أن ينقسم المربّع إلى خمسة وعشرين في كلّ ضلع خمسة، أو إلى أربعة وستّين في كلّ ضلع ثمانية[2]. ومهما تعدّدت أو اختلفت هذه الطّقوس أو الرّموز، لدى أندلسيّي تستور وغيرهم، فإنّها صوّرت صراع الإنسان الضّعيف بين الخير والشرّ، بين المادّة والرّوح، بين الإرادة والقدر، وثبّتت عقليّة الخوف من الغيب والمقدّس والأجنبي في شعب مسالم. إلاّ أنّ التطوّر ينبئ بعقليّة جديدة أقرب إلى الواقع منها إلى الوهم.

---

(1) حول سحر الحروف راجع :

MILLAS I VALLICROSA (J.) : Textos magics del nord Africa. - in : Bull. Asso. Catalana d'antr. etnogr. e prehistoria. Barcelona. I. 1923. P. 147-160. II. Fasc. I. 1924. P. 85-100.

(2) حول سحر الأرقام راجع أيضا :

DOUTTE (Ed.) : Magie et religion... op. cit. P. 116-127. 178-224. 379-382.

[وحول سحر مربّعات الحروف والأرقام راجع كذلك : السويسي (م.) : حساب الوفق. - في : حوليات الجامعة التونسيّة، ع16، س1978، ص27-43].

دور المرأة في مجتمع موريسكي : تستور[*]

أمام فقر الوثائق في هذا الموضوع لا يمكن للمؤرّخ إلاّ أن ينقلب شاهدا على عصره مقتصرا على وصف واقعه وإبداء رأيه فيه. ذلك أنّ الإشارة الموثّقة الوحيدة تلك التّي استنتجها عالم الأنتروبولوجيا الأمريكيّة ن.س. هوبكنس ملاحظا -فيما كتب عن تستور سنة 1970- أنّ الرّجل يهتمّ بالإنتاج والمرأة بتحويل الإنتاج إلى موادّ استهلاك، على هذا النّحو من توزيع الأدوار واقتسام الفضاءات المحقّقين للتّكامل بين أفراد العائلة في مجتمع زراعيّ أساسا[1].

وإذا سلف أن كانت الملامح واضحة بين المرأة الأندلسيّة وغيرها طيلة قرن ونيف من تأسيس تستور، منذ استقرار المهاجرين الموريسكيّين بها سنة 1609م، فإنّه من الصّعب التّمييز اليوم بين هذه وتلك. لقد جسّمت الرّسوم القديمة الزّيّ الإسبانيّ لهؤلاء المضطهدين في حضارتهم، المهدّدين بطمس هويّتهم وتنصيرهم قصرا. وأظهرت زيّ المرأة الموريسكيّة مخالفا لزيّ المرأة التّونسيّة[2]. ولكنّ التّقارب بين هذه وتلك، وتأثير الملامح التّركيّة في بلد يحكمه الدّايات والبايات العثمانيّون قضيا على خصوصيّة الزيّ الإسبانيّ[3]. وتوسّع أثر مثل هذا التّثاقف فشمل مظاهر أخرى فقدت خصوصيّتها، كاللّهجات الإسبانيّة التي امتصّتها

(*) ينشر لأوّل مرّة بعد تقديمه في المائدة المستديرة الثانية التي نظّمتها مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات حول إسبانيا والمغرب العربي كجسر للتواصل بين الشرق والغرب من خلال ثقافتيهما (تونس 29/2/2-1996/3/2).

(1) N.S. Hopkins : Testour ou la transformation des campagnes maghrébines. - Cérès Productions, Tunis 1983, P. 67 ; Women work and wages in two arab villages, in : The eastern anthropologist, April 1991, P. 103-123.

(2) توجد صور من ذلك الزي في مجموعة إيطالية. انظر :
Jeanne Jouin : Documents sur le costume des musulmanes d'Espagne, in : Revue Africaine, 1934, P. 43-46.
وقد سجّل ج. مارسي ذلك في : تستور وجامعها الكبير.- تعـ. س.م. زبيس، المعهد القومي للآثار والفنون (المعهد الوطني للتراث حاليا)، تونس 1981 ص 15-16،26.

(3) Clémence Sugier : Les coiffes féminines en Tunisie, in : De Epalza / Petit : Etudes sur les moriscos.., Madrid 1973, P. 335-348.

عربيّة أهل البلاد[1]، والعادات والأكلات التي لم تبق في تستور إلاّ أسماؤها وقلّة من العارفات بكيفيّاتها[2]. وهكذا فقد تطوّرت عقليّة المرأة في تستور من عقليّة الانغلاق والمحافظة على الطابع الأندلسي، في نطاق مفاخرة الأندلسيّة على الوسلاتيّة وغيرها داخل مجتمع البلدة، إلى عقليّة التفتّح الحذر والمحافظة على الطابع الحضري في إطار مفاخرة "البلديّة" على "العربيّة"، بمعنى الريفيّة، كما تصوّره الأغنية الشعبيّة السّاخرة الرّائجة في تستور[3].

واعتبارا لهذا يحسن بنا أن نتحدّث عن المرأة التستوريّة المتمدّنة بعد أن اتّضح أنّ المرأة الأندلسيّة مجرّد حالة فرعيّة تجاوزها التاريخ، فلم يبق للأصل دور مميّز. يؤكّد ذلك انقلاب عبارة "أندلسي حرّ" أو "أندلسيّة حرّة" إلى عبارة "تستوريّة حرّة"، وكأنّ المرأة التستوريّة "البلْديّة" قد استوعبت المظاهر الأندلسيّة، حتّى ولو كانت غير أندلسيّة الأصل، وأصبحت مفاخرة بالانتماء الحضاري من خلال عبارة "تستور" أو "تستوريّة" التي اقترنت بالأندلس وبالأندلسيين وحضارتهم المزدهرة لدى الرأي العام. ويكفي دليلا على ذلك العثور على نساء غير أندلسيّات يتقنّ إعداد الأكلات والحلويات الأندلسيّة، في حين لم تحتفظ النساء الأندلسيّات إلاّ بالحديث المتواتر عن كيفيّة إخفاء المهاجرين للذهب في البناضج (empanadas) الشبيه بالخبز، بعد أن زال ولع الموريسكيّة بالفنّ حسب شهادة ج. مورقن عندما لاحظ بإعجاب إبّان زيارته لتستور سنة 1719م مشاركة المرأة في فرقة موسيقيّة مختلطة تؤدّي قصيدة محمد ربضان بالعزف على القيثارة[4]. وذاك آخر عهد للموريسكيّة بمثل هذه الحرّيّة. وليس لها بعد ذلك إلاّ أن تتصرّف في نطاق أضيق.

---

(1) J.A. Peyssonnel : Narration inédite sur l'emploi de l'espagnol à Testour.- Manuscrit 1373 de la Bib. du Musée Calvet d'Avignon, trad. part. par O. Kaak, in : Al-Mabahith, Fév. 1945.

(2) F. Skhiri : Les traditions culinaires andalouses à Testour, in : Etudes... Moriscos. op. cit., P. 349-358.

(3) مطلع تلك الأغنية : افهمني واسمع ما صاير نحكي لك يا صاغي ليّ
عملوا عركة زوز ضرابر عربيّة هي وبلديّة

(4) J. Morgan : Mahometism fully explained by Mohamed Rabadan, London W. Means, 2 vols, 1723 et 1725, vol. 1, P. 31.

إنّ أهمّ دور لاتزال المرأة تقوم به هو الاستجابة لصفتها كربّة بيت. ففي هذا الإطار تقوم بشؤون المنزل، تلك الشؤون المختلفة التي لا تنتهي من الشروق إلى الغروب وأكثر، والتي لم تعد اليوم تقدّر حقّ قدرها - للأسف - لدى بعض الفئات. فمنذ وقت غير بعيد لم تكن العائلة التستوريّة تشتري من السّوق إلاّ ما قلّ وندر، وكان كلّ شيء تقريبا جاهزا أو ممكن الإعداد عند الحاجة في المنزل، خاصّة المواد الغذائيّة. وإذا أصبح الشّغل الشّاغل للمرأة اليوم : أيّ طعام تعدّ ؟ رغم توفّر المواد المعلّبة والمصبّرة في السّوق وخاصّة الخبز والعجين بأنواعه والحليب بمشتقّاته، فإنّ امرأة الأمس ليس لها اختيار ولا راحة في أن تنطلق من الصّفر بدءا بتنقية القمح ورحيه وإعداد الخبز والعولة منه (كسكسي، محمّصة، حلالم، رشتة، نواصر، مقرونة أباري...) واحتلاب الشياه -إن وجدت- ومخض الرائب، وإعداد الطّعام وتصبير عديد المواد الغذائيّة (الموالح والزيتون، شريحة الطماطم، التوابل والفلفل الأحمر، معجون السفرجل والمشمش والرمّان، القدّيد، الملوخيّة...) وإعداد الحلويات في العيد الصغير -عيد الفطر- (مقروض، غريّبة، بقلاوة...) والقيام بالأضحية في العيد الكبير -عيد الإضحى- بما في ذلك إعداد العصبان والمرقاز والقدّيد، وإعداد العصيدة في المولد النبوي والملوخيّة في رأس العام العجمي ليكون أخضر خصيبا. فبهذه الأكلات المتميّزة تحيي المرأة ربّة البيت مع قريباتها في الدار الكبيرة الأعياد الدينيّة لتذكير بقيّة أفراد العائلة وخاصّة الأبناء بها، في نطاق التربية الروحيّة التي تقدّمها لهم. وتندرج في ذلك زيارة الأولياء الصّالحين، ومنهم الوليّات الصّالحات[1]، وإقامة "الزردة" للوليّ المنتمية إليه بالتواتر. كما تساهم في التواصل بين الأحياء والأموات بزيارة المقبرة، خاصّة في العيدين، وإخراج عشاء الموتى ليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين من رمضان. وهي التي تمثّل العائلة في تقديم التعازي أو التهاني (عيادة المرضى، مؤانسة أهل الميت القريب بالمبيت ثلاث ليال، التهنئة بالولادة والختان والنجاح والزّواج والحجّ) فلا تنسى تقديم الهدايا وخاصّة الرموّ نقدا. وإذا كانت من

(1) مثل للاّ زهرة وللاّ مباركة ابنتي سيدي علي العريان "بو البلاد". ومن الزوايا المخصوصة بزيارة النساء زاوية سيدي عبد القادر.

الأصحاب والأقرباء دعيت للمشاركة في "الجبهيّة" القاصدة للخطوبة. ومن النساء، من المحترفات، الحنّانة لإعداد العروس أو المستأذنة للأعراس والمغنّية فيها[1].

وإلى جانب عنايتها اليوميّة بخدمة زوجها وتربية أبنائها، بما في ذلك مرافقة صغارها إلى الحمّام، تقضي أوقات فراغها -إن توفّرت- في خدمة الصّوف والنسيج (الفرّاشيّة، البطّانيّة، المرقوم، الحنبل، الحائك، القشّابيّة، البرنس...) والحياكة والتطريز والتشبيك (تشبيك وتنوير المفروشات والبشاكر والحكّاكة الخاصّة بالحمّام والتكّة والكاسة...)[2]. ومع ذلك تعتني بمغروسات المنزل، وترعى ورق الحنّاء، وتقطّر زهر النّارنج والورد والنسرين والعطرشاه، وتخصّص يوما في السّنة لحملة نظافة شاملة للبيت وما فيه، ومثله في الربيع لغسل المفروشات أو الصّوف في وادي سليانة أو وادي مجردة في موقع القصّارين (من قصّر الثوب : لواه وعصره من الماء أثناء غسله) أو في أحواض (جوابي) البساتين (المشغّلة بالناعورة سابقا والمضخّة حاضرا).

هذه نماذج من مشاغل المرأة في علاقتها بشؤون المنزل حسب العادة اليوميّة، وحسب المناسبات والأعياد والمواسم. ولكنّ جهد المرأة في الواقع يفوق هذا بكثير. فإلى جانب ما تقوم به لنفسها، في نطاق واجبها العائلي، تقدّم من حين لآخر خدماتها ومساعداتها لغيرها من الأجوار والأقارب والأصحاب، بناء على دعوة من صاحبة الأمر، وحتّى من دون دعوة (عرس، عولة، زيارة أو زردة، غسل مفروشات أو صوف، مأتم...). ومع كلّ هذا ثمّة حالات عديدة تثبت قدرة المرأة على دعم الدخل العائلي عندما تحوّل مجهودها إلى إنتاج معدّ للبيع. من ذلك

---

(1) مثل فاطمة بريش (ت حوالي 1905) المشهورة بالأغاني التستوريّة - بما فيها الإباحيّة - التي تؤدّيها في المحافل النسائية الخاصّة كأغنية : خانت صالحة في العقيدة * دارت خال ومحبّة جديدة وأغنية : جاني المرسول (الصادق الرزقي : الأغاني التونسية، تونس 1967 ص 270-271) وأغنية : يامن صبر صبري على جنّات * نوحوا معاي وسقّطوا الدمعات (الأغاني التونسية، ص 265-266).

(2) N.S. Hopkins : The articulation of the modes of production : Tailoring in Tunisia, in : American Ethnologist, n°5, P. 468-483 ; F. Skhiri : Deux couvertures de Testour, in : Etudes sur les Moriscos... op. cit., P. 317-334 ; M.J. Eeckhout : L'artisanat domestique à Testour.- Université Libre d'Amsterdam, T11, 1978, (35 P. dactyl.).

إعداد الصّوف أو الدفاعة (من دفع الأجر) ونسج المفروشات، وخاصّة المرقوم والزرابي للبيع، وإعداد بعض المواد الغذائيّة (الفلفل الأحمر المرحي، الملوخيّة، البسيسة...) وكذلك نسج قطع الصوف المعدّة لصنع الملابس الشتويّة والخياطة والتطريز... الخ. هذه الحالات من النشاط الصّناعي والتجاري تضطرّ إليها المرأة إذا لم يف دخل الزّوج بالحاجة أو تعطّل عن الإنتاج والعمل لظروف ذاتيّة أو موضوعيّة (مرض، عطالة، جفاف، شتاء...). كما تقوم المرأة بذلك النّشاط إذا اتّسع وقتها بعد أن كبر أبناؤها أو تزوّجوا، وخاصّة إذا ترمّلت. وفي هذه الحالة الأخيرة، وكذلك في حالة وفاة مورّثها، تصبح متصرّفة في منابها من العقارات خاصّة. ولكنّها في أغلب الحالات تفضّل بالبيع وضع حدّ نهائي لأشكال الحيف والاستغلال والمغالطة حتّى من أقرب الناس إليها وممّن استثيقتهم ووكّلتهم على مكاسبها. ونادرا ما تتكرّم المرأة الوارثة على وليّ صالح بتحبيس جزء ممّا تملك من الأراضي على زاويته وكتّابه، لأنّ من حولها يمنعها من هذا العمل الخيري المعارض لمصالحه. تلك المصالح التي اقتضت، فيما مضى، منع المرأة الموريسكيّة في تستور من الزّواج خارج جماعتها، تلافيا للتّفريط في منابها من الإرث لزوج "غير أندلسي" ممّا يمكن أن يقلّص من الأملاك المحدودة للمجموعة الموريسكيّة ويهدّد استقرارها.

وتتقدّم السنّ بالمرأة فيجتمع لديها من تجارب الحياة والأقوال المأثورة ما تصبح به حكيمة مدبّرة للأمور، خيرها وشرّها، ما ظهر منها وما بطن. فإذا هي متطبّبة (عرّافة، شوّافة، مفسّرة أحلام، وقّاعة، مسّادة، مختصّة بإشفاء الرّضّع من بوناغوت ببركة العراقبة...)[1] أو هي ساحرة تكيد للأزواج أو تقرّب بين القلوب أو تبعد هذا عن هذه قبل حصول المكروه. وما أكثر أخبار المفاجآت ليلة الزفاف وحالات المرض والموت في عزّ الشّباب بفعل دسّ الحيّة والميتة والفاسخ والفيسوخ في الطعام وأكل الكسكسي المعدّ أو المكسكس بيد ميت. ولهذا يحاط الميت بحراسة مشدّدة حتّى بعد دفنه خشية أن تندسّ بين النساء ساحرة وتنتهز فرصة النوم لتحرّك بيده حفنة كسكسي. ولا تغفل امرأة عن توصية ابنها أو ابنتها

(1) J. Desparmet : La mauresque et les maladies traditionnelles de l'enfance. in : Revue Et. Ethnogr., Paris 1908. (15P.).

بالامتناع عن تناول أيّ طعام أو شراب عند زيارة العائلة المصاهرة. وأمام غياب الطبّ النّفسي لا يحلّ المجتمع مشاكل النفّاثات في العقد والعروس المصفّحة والعريس العاجز والمصوغ المسروق إلاّ بالاعتقاد في الأولياء الصّالحين واللّجوء إلى المؤدّب أو العزّام للقيام بأمر أو كتابة تميمة. مثل هذه الممارسات تعكس الصراع النفسي بين المرأة والرّجل على قدرة الفعل في عالم من المكائد عجيب كحكايات ألف ليلة وليلة. وقد أكّد البحث أصالة ممارسة السحر في المجتمع الموريسكي قبل الطرد النهائي[1].

وهناك العجوز الصالحة التي تكون عادة مواظبة على صلواتها وقد استكملت فرائض دينها بالحجّ. فهذه التي تبارك العائلة وتحرص على التواصل بين الأجداد والأحفاد بالحكايات الواقعيّة والخياليّة المشوّقة التي تقصّها على الصغار في ليالي الشّتاء وبالمدائح الدينيّة والصوفيّة والبطوليّة التي تنشدها لهم أو تترنّم بها أثناء قيامها بشغل ما. إنّها باختصار ذاكرة العائلة والمجتمع وشاهدة على التطوّر، متحسّرة على الزمن العتيق، زمن الخير والبركة والرخاء، وعلى الشباب العزيز.

ولئن فصّلنا القول في المرأة المسؤولة لا يحقّ لنا أن نهمل البنت أو الفتاة وهي تتهيّأ لدورها في الأسرة والمجتمع من خلال ألعابها ويقظتها إزاء إخوتها ممّن دونها سنّا ومساعدتها لأمّها وتعلّمها لصنعة وإعدادها لجهازها. فمنذ نعومة أظافرها تستوعب تدرّيجيّا، وأحيانا بصفة غير واعية، مميّزات مكانتها ودورها المنتظر من خلال لعبها بالعروسة أو الدمية وخياطة لباسها وإعداد الطعام لها وترقيدها بالغناء، وكذلك من خلال مساعدتها لأمّها في بعض الشؤون كالتنظيف والنسيج، وإقبالها على تعلّم التطريز للشروع في إعداد جهاز العرس، متشبّهة بأمّها، مثلها الأعلى في كلّ شيء.

من هذه التفاصيل المميّزة لدور المرأة في كلّ فترة من حياتها نتبيّن مظاهر نشاطها وقيمة حضورها، رغم تحرّكها في ظلّ الرجل وتبعيّتها له، لأنّ الأمور في نهاية الأمر تسير في مملكتها، أعني البيت، وفق إرادتها، أحبّ الرّجل ذلك منها

(1) Y. H. Cardaillac : La sorcellerie morisque d'après les documents inquisitoriaux (1500-1650). in : Temimi : Religion. Identité et Sources Documentaires sur les Morisques Andalous.- Tunis 1984. T2. P. 9-26.

اليوم أو غدا. وليست بالتالي خاسرة إذا لم تشاركه العمل الفلاحي أو السياسي و لم تقاسمه حقّ القرار في مهمّات الأمور. يكفيها أنّها سبب الاستقرار النفسي والمادي في العائلة وصلة رابطة بين العائلات. فهي المسؤولة عن حسن تربية الأبناء والبنات وحسن التصرّف في ميزانيّة العائلة، بطريقة غير مباشرة، بحذق التدبير. وهي المسؤولة أيضا عن حفظ ذاكرة العائلة وتراث الجماعة. وهي التي بسببها مُثّلت تستور باليد الواحدة، تلتقي أصابعها وإن بدت متفرّقة. فكلّنا أقارب، نفرح معا ونحزن معا.

على هذا النحو تتعدّد مظاهر دور المرأة التستوريّة من العاطفي إلى الرّوحاني إلى الاجتماعي إلى الاقتصادي إلى الثّقافي. ورغم تقلّص هذا الدور نتيجة مزاحمتها للرجل في الشغل المأجور وسقوط الجدار القيمي الذي كان يمنعها من دخول السوق ما زالت المرأة تلعب دورا رمزيّا ممثّلة عذريّة تستور المحتمية بأسوارها المعنويّة ضدّ أيّ عدوان أجنبي يهدّد أمنها وقداستها، بفضل القوّة الغيبيّة لسلطان المدينة سيدي علي العريان الذي استجاب لتوسّلات النّساء من ظلم القائد ابن صندل عندما عجز الرّجال، حسب الرواية الشفويّة المتداولة[1].

ما أثرى شخصيّة المرأة الموريسكيّة، بصفتها محور حياة المجتمع في تستور، لتُستلهم في الإبداع الفنّي !

---

(1) تستور I ص 36.

عـــــادات(*)

- عيد الفطـــر :

يخصّ أهالي تستور عيد الفطر باحتفالات متميّزة، تعود إلى جذور حضاريّة عريقة، تبدو فيها تأثيرات مسلمي الأندلس. ففي صبيحة يوم العيد يستيقظ الأهالي على أصوات المنشدين المنبعثة من صومعة الجامع الكبير مردّدة التكبير والتهليل. وسرعان ما تلتقي هذه الأصوات بأصوات منشدين آخرين قصدوا منزل الإمام لاصطحابه إلى الجامع.

وإثر صلاة العيد يتقبّل الإمام التّهاني من المصلّين. ثمّ يرافقونه إلى منزله في موكب بهيج مردّدين مدائح دينية معبّرة عن المناسبة، ومطلعها :

الحمد لله فضله علينا ويغفر الله للصائمين

وقد اعتاد سكّان الأنهج، ما بين الجامع ودار الإمام، رشّ الموكب بماء الزهر احتفاء وتقديرا. وفي النصف الأوّل من يوم العيد يتناول الأهالي أكلة "الحلالم" المعدّة خصّيصا للعيد، ويواصلون تبادل الحلويّات عن طريق الأطفال وقد ارتدوا ثيابا جديدة، كما يتواصل تبادل التهاني بين الجميع..

وإذا كانت زيارة المقبرة مقصورة على الصباح بالنسبة للرّجال فإنّها تعجّ في العشيّة بالنساء والأطفال، وقد سبق تنظيفها وطلاء قبورها.. وهناك تنتصب الخيام على الموتى الجدد، ويتصدّق أهاليهم على الفقراء بخبز الطابونة والتمر.. كما يتنقّل مقرؤو القرآن من قبر إلى آخر حسب الطلب ترحّما على الموتى بالتلاوة..

ولا ينقطع الطبّال عن التجوال من نهج إلى نهج، ومن دار إلى دار، ليتقاضى أجرته مقابل إيقاظه الناس للسحور كامل شهر رمضان، وتصطحبه عادة كوكبة من الأطفال يزيدون يوم العيد بهجة وسعادة.

(*) ينشر لأوّل مرّة، باستثناء عيد الفطر المنشور في "الصباح" 1987/5/29 ص3 وعيد الإضحى المنشور في "الصباح" 1986/8/16 ص3 مختصرين.

- عيد الإضحى :

تحتفل تستور بعيد الإضحى بعادات متميّزة متوارثة تؤكّد في عدّة مناسبات مدى تأصّل الإسلام في أحفاد الأندلسيين ومدى تعلّق أجدادهم به. ولاريب، فقد هجروا أوطانهم وضحّوا بأملاكهم هروبا من التّنصير، وأقاموا أينما حلّوا محافل للإسلام تشهد عليها المآذن العديدة من حي إلى حي والشّعائر المتنوّعة من مناسبة إلى أخرى.. والملاحظ أنّه لا يوجد فرق كبير بين الاحتفال بعيد الإضحى والاحتفال بعيد الفطر.. فهذان يومان تتّجه فيهما الأنظار جميعها إلى الإمام بصفته الشخصيّة الدينيّة الأولى التي تقتدي بها المدينة في العلم والسلوك، وتستشيرها حين الإشكال، وتحتمي بها وقت الشّدّة. وكانت في ما مضى رمزا لحريّة الأهالي في ممارسة حقوقهم واختيار من يرونه كفئا للدفاع عن استقلالهم إزاء ظلم البايات وجور الاستعمار، بدون تدخّل السّلطة المركزيّة بتونس.

وأهمّ ما في الاحتفال بعيد الإضحى استقبال ليلة العيد بالمدائح الدينيّة المنبعثة من أفواه المقصّدين بصومعة الجامع الكبير قبيل صلاة العشاء، واستقبال يوم العيد قبيل الصلاة بالتهليل من نفس المكان.. وفي الأثناء يكون بعض المصلّين قد قصدوا دار الإمام لاصطحابه إلى الجامع بالتهليل كذلك. وإثر الخطبتين والصلاة والأدعية يتقبّل الإمام المعايدة الأولى عند المحراب. ثمّ يرافقه الجميع إلى منزله منشدين قصيدة مطلعها :

الحمد للّه فضله علينا أهلاً وسهلاً بالزّائرين

وعند الوصول إلى بيت : « نحروا ضحاياهم... » تذبح أضحية الإمام إشارة لانطلاق الأضاحي. وبعد تجديد المعايدة على الإمام يشرع الطبّال في الضّرب والتنقّل من منزل إلى آخر، مهنّئا وجامعا بقيّة أجرة إيقاظه النّاس للسحور في رمضان الماضي.. ويمضي المصلّون إلى بيوتهم للإشراف على الأضاحي التي يترك لحمها لليوم الثاني لتقسيمه وتوزيع بعضه على الفقراء والأقارب والأجوار ممّن لم يضحّوا، والاحتفاظ ببعضه الآخر لإعداد الأطعمة المعروفة وصنع القدّيد والمرقاز، وهي أكلة أندلسيّة معروفة. وعشيّة يوم العيد تزدحم المقبرة بالزّوّار القادمين من هنا وهناك، ومنهم من يدقّ الخيام على الأموات الجدد لاتقاء الحرّ صيفا أو البرد شتاء وستر الأهل وحفظ الخبز والتمر المخصّصين للفقراء. ومنهم

من يأتي بالقرّاء لتلاوة نصيب من القرآن على الموتى.. وتتواصل معايدة الناس على بعضهم بعضا طيلة ثلاثة أيّام كلّها بهجة وتسامح.

- الختان :

رغم حرص الإسلام على ستر مثل هذه العادة فإنّ بعض الأولياء يأبون إلاّ إظهار الاحتفال بها. ويكون ذلك عادة في المنزل وخاصّة في الزاوية القريبة مع تفضيل زاوية سيدي علي العريان. ويخصّص اليوم الأوّل للحجامة والخلويّة أي الاستحمام ليلا في أحد الحمّامات العامّة. ويخصّص الثّاني لسهرة عائليّة تخضّب فيها الحنّانة يدي الطفل ورجليه بالحنّاء، وتزيّنها بالحرقوص على إنشاد الفتيات لتعليلة "طهّر يا المطهّر". ويخصّص الثّالث للمأدبة والطّواف بالطّفل عبر زوايا الأولياء الصالحين في زيّ تقليدي على صهوة جواد، في موكب ينشد خلاله أطفال الكتّاب :

" وهلّلو وكبّروا تكبيرا صلّوا على محمّد كثيرا "

ثمّ يعود الموكب إلى المنزل لختن الطّفل في حجر أقرب أهله، في جوّ معطّر بالبخور وصاخب بتكسير القلال وتخاطف الأطفال للحلوى والفاكهة وزغردة النّساء. ويتواصل تقبّل التهاني والهدايا.

- الزّواج :

من عادة الأندلسيين أن الفتى لا يتزوّج الفتاة إلاّ بموافقة كبير العرش. ثمّ تتوجّه مجموعة مختارة من الرّجال تسمّى "الجبهيّة" إلى والد الفتاة لخطبتها والاتفاق على المهر. وكان الهدف إقناع الأب فأصبح تقدير الأمر. ومن جهة النساء تتوجّه "جبهيّة " أخرى إلى أمّ الفتاة المستعدّة لهذه الزّيارة، وفيها يتمّ الاتفاق ثانية على المهر وبعض الشروط الخاصّة كوجوب سكن الزوجين في بلد أبويهما، ويضبط موعد عقد القران. ويحتفل "بالإملاك" سواء "بالسّكات" حيث يحنّى للعروسة في حفل عائلي، أو "بالقويّ" حيث يقام بمناسبة التحنية للعروسة محضر الصّبايا ومأدبة خلال سهرة مرحة. ومن الغد يهدي أهل العريس كبشا إلى أهل العروسة، فيعدّون منه الكسكسي وقطّ خميرة (أي حلالم بالخميرة) أو مقرونة

مصنوعة باليد، ويرسلون منها المثارد الشبيهة بالأطباق النحاسيّة أو الفخّاريّة الكبيرة. ومن الغد تعود تلك المثارد إلى دار العروسة وبها ملابس حريريّة هديّة من أهل العريس. وإذا كانوا من الأثرياء علّقوا في عنق الكبش عقدا من الذّهب. وعادة ما تطول الفترة مابين الإملاك والزّفاف إلى ستّ سنوات. وخلالها لا ينفكّ أهل العريس يهدون العروسة الملابس الفاخرة بمناسبة مواسم العيدين والمولد وعاشوراء. وفي ليلة 27 رمضان تكون الهديّة مثردا من الزلابية والمخارق والحلوى المحلّيّة. وقبيل الزفاف يدفع المهر أو الشرط في طقريطة خضراء أملا في الخصب والخير.

واستعدادا للعرس ينزل أهل العريس القمح من العليّ (أي الطابق العلوي) حيث تخزن المؤونة لإعداده للطّحين، في جوّ من الفرح والزّغاريد. وتطلى الدار بالجير الأبيض والأبواب والنوافذ بالدّهن الأزرق. ويذهب العريس إلى العاصمة لاشتراء القفّة (أي لوازم الكسوة) اعتمادا على قائمة في الأدباش تعدّها كبيرات النّساء، بما في ذلك هدايا العروسة. وهي قديما عمامة حرير لأبيها وكنترة له وأخرى لأخيها وطقارط لأمّها وعمّتها وفوطة حرير وشبرلّة (أي حذاء). وذلك لإدخال السّرور على الجميع. ومن أهمّ محتويات القفّة مواد التّجميل وملابس العروسة وكسوة العريس وكسوة البيت وصناديق للحفظ. ومع الحطّابة يأتي أصحاب العريس بالحطب، بحمولة ثلاث دواب مزيّنة. فيستقبلهم أهل العريس بالزّغاريد. بينما يعدّ نفس الشّيء في دار العروسة، ولكن بدون إشهار. ويعلّق على الأبواب ستار من شعر الماعز، من الصّنع المحلّي. ويبتدئ العرس باستدعاء الأهل والأقارب والأصدقاء عن طريق المستأذنة في جولتين : الأولى قبل يوم القفّة، والثانية في اليوم الموالي. وعادة ما تكون المستأذنة الأولى عجوزا، في حين يكون الاستئذان الثاني عن طريق إمرأتين أو أكثر، مطيّبات مزيّنات في هيئة العروسة، واضعات على رؤوسهنّ الخامات. والخامة قطعة قماش سوداء مطرّزة بالأصفر، تعلّق على الرّأس وتغطّي الوجه مشدودة إلى الكتفين، ولعلّها إسبانيّة الأصل.

وعادة ما يبدأ العرس ليلة الإثنين أو ليلة الخميس أو ليلة الجمعة تبرّكا بفضل هذه الأيّام. ولمّا كان العرس سبعة أيام تكون ليلة الدّخول هي نفسها ليلة القفّة، أي من الإثنين إلى الإثنين مثلا.

وفي اليوم الأوّل، يوم القفّة، يعدّ أهل العروسة الإسفنج صباحا، ويوزّعون منه على الأصدقاء والأجوار، والبقيّة تعدّ ليتناولها الوافدون من الرّجال والنّساء في الليل. وبعد خروج الرّجال من دار العروسة تُستعرض الهدايا التي تجمّعت لدى العروسة بمناسبة المواسم قطعة قطعة. وكانت هذه الهدايا الموجودة في دار العروسة قبل العرس قد نقلت سرّيا إلى دار العريس قبل العرس. وفي يوم القفّة ليلا تنقل تلك الهدايا مع أخرى جديدة من دار العريس إلى دار العروسة علنا وإشهارا ليتمّ استعراضها كما قلنا. وفي اليوم الثاني تقع عمليّة الاستئذان الرّسميّة، ويتواصل الغناء والمرح في دار العريس، في حين تحتشم دار العروسة فلا تكثر من المفرحات. وفي نفس اليوم يُهدى إلى الأقارب قليل من اللوبان.

وتغتسل العروسة في الحمّام صحبة عائلتها اغتسالا بسيطا بدون دعاية في اليوم الثالث. وفي الليل تحتفل دار العروسة احتفالا بسيطا بالحنّة الصغيرة أو حنّاء التركينة، حيث تجلس العروسة في ركن من البيت لتخضيب يديها ورجليها بالحنّاء.

وفي صبيحة اليوم الرابع، يوم التّعليقة، يعدّ أهل العريس الإسفنج، ويوزّعون منه على الأحباب، ويبعثون منه إلى أهل العروسة صينيّة (أي طبقا نحاسيّا) مع إبريق من العسل. وفيه يهيّأ الأثاث وتعلّق السّتائر في بيت العريس. ويسمّى أيضا نهار الجهاز، إذ فيه ينتقل الشُّوار من دار العروسة إلى دار العريس. وبعد صلاة العصر يأتي أصحاب العريس من الشّبان، ويطوفون وحدهم بشوارع البلدة على خيولهم المطهّمة، وبعد صلاة العشاء ينطلقون صحبة الطّبال من أمام الجامع الكبير إلى دار العروسة لنقل الجهاز على الخيول إلى دار العريس مصحوبين بالمالوف. ويحمل جميع المدعوّين من الرّجال شموعا كانت قدّمت إليهم فردا فردا على أنّها استدعاء للحضور. وبها تُنار الطريق، لأنّ الشوارع قديما لم تكن منارة. وتكون المضرّبة (أي الحشيّة) آخر قطعة تدخل دار العريس، لأنّه يتزاحم على ركوبها عدد من الشبّان، وآخر من يمتطيها يدخل مرفوعا عليها بيت العريس اعتقادا في إنجاب ولد، ويأكل الرّجال الإسفنج بالعسل على أنغام المالوف. وبعد خروجهم تشرع أمّ العروسة وأهلها في تسبيل الفرش وتنظيم قطع الجهاز نهائيّا. وكان الجهاز قبل انتقاله منظّما في دار العروسة في ناحية، في حين يتمّ حفل تصدير العروسة رفقة الزوجات الحديثات العهد بالزواج، ويحلّ عقاس

العروسة الذي ظلّ يلفّ شعرها، وذلك لأوّل مرّة، إيذانا بانتقالها القريب إلى الحياة الزوجيّة وإبرازا لجمال شعرها المصون طيلة العزوبة. ولا يتعرّى وجهها لأنّها مغطّاة بسنجق (أي لواء الولي الصالح) وذلك خلال حفل تفتتحه النّسوة بقصيدة مطلعها :

" يا حاج علي العريان يا باباي يا قطب الصلاّح كون معاي"

ويعتبر هذا اليوم الرّابع أبرز أيّام العرس. أما اليوم الخامس فهو نهار الحمّام، ويكون بطريقتين، الأولى للميسورين القادرين على كراء الحمّام ليلا لأهل العريس والعروسة. في مساء ليلة الخلويّة هذه يأتي العريس المتكلّف بالنّفقة بدابة يربطها إلى الناعورة لملء الخزّان، ويؤتى بالعشاء إلى الرّائس صاحب الفرن فضلا عن أجرته ليعتني بتسخين الماء وغير ذلك. والطّريقة الثانية لمتوسّطي الحال الذين يذهبون إلى الحمّام عشيّة، وطوال الطّريق يزغرد النّسوة المصاحبات للعروسة وقد أسدلت الخامة هي وصاحبتيها، فلا تعرف بينهنّ.

أما ليلة اليوم السّادس، ليلة الصبايا، ففيها تقام حفلة تتصدّر خلالها الفتيات البالغات، في حين تقوم إحدى العجائز بتجلية العروسة، وذلك بإزالة الخامة عن وجهها لحظة لتبيّن جمالها، وسرعان ما تغطي العروسة وجهها احتشاما، ثم تقبع في أحد بيوت الدار. وتعتبر هذه اللّيلة من أهمّ الليالي وأبلغها مغزى، إذ هي آخر ليلة تقضيها العروسة في دار أبويها، دار الدّلال، وهي لا تزال بكرا تتهيّأ للحياة الزّوجية، حياة المسؤوليّة. ولذلك تودّع بالأغاني المؤثّرة.

وتستغلّ بعض الأمّهات ليلة الصّبايا لخطبة فتيات لأبنائهنّ. وتتميّز الفتيات المخطوبات عن الأخريات بإمساك الواحدة شمعة كبيرة للإنارة والدّلالة على أنّها مخطوبة، وقد أهداها إياها خطيبها قبل الإملاك. ولا يخفى هنا معنى الرّمز في الشمعة شكلا وإنارة، مع ما يترك ذلك من ذكريات. وهذه جزئيّات تدلّ على الذّوق الرّاقي لمجتمع متحضّر متميّز حتّى عن القرى الأندلسيّة الأخرى، وتثبّت وقائع الزواج المتنوّعة في الذاكرة على مرّ السّنين اعتبارا لأهميّة تجربة العمر.

وفي دار العريس تسمّى اللّيلة نفسها ليلة الحجّامة، وخلالها ينفق العريس على حلاّق خاصّ يتولّى حلق رؤوس الأصدقاء، ويصحب ذلك توزيع المشروبات الغازيّة.

وفي اليوم السّابع، أو نهار المرواح، أو نهار الدّخول، يحلق للعريس صباحا ويصطحب أصدقاءه إلى الحمّام. وعند الزوال يخرج منه مرتديا جبّة وبرنسا وكشطة، ويمشي مرفوع الرّأس منضبطا في موكب يتقدّمه الطبّال وفرقة المالوف إلى دار العروسة، ثمّ إلى دار والديه حيث يتجدّد الرشيق، وذلك بأن يدفع أقاربه وأصحابه بعض النقود للطبّال مقابل الإشادة بهم قائلا :

« السيّد السلطان راه بدينار »

فيردّ أحد عناصر الفرقة : « كثّر خيره »

ويضيف الطبّال :

« وعلى راس فلان الفلاني يرشق عليه »

ويردّ نفس العنصر : « كثّر خيره » فترتفع زغاريد النّساء من وراء ستار المنزل. ثمّ يستقلّ العرّاسة بمنزل شاغر حيث يكرمهم العريس بالفطور. وهناك يقضي عشيّة في جوّ من المرح باعتباره سلطانا وقد عيّن أقرب الأصدقاء إليه وزيرا ينفّذ طلباته. وقبيل صلاة المغرب تقام الحلاّليّة (أي وليمة الكسكسي مع الدويدة باللّحم وقطع السكّر والحلوى والبيض والزبيب) لمن يمرّ بالنّهج من الرجال أو يأتي للتّهنئة. ويبعث إلى دار العروسة بمثردين، وإلى الأحباب بشيء منه. وتقيم دار العروسة محضرا في العشيّة تصدّر فيه العروسة تامّة الزينة، وتتمّ تجليتها كما في ليلة الصبايا. ويمتنع عليها حياء أن يرى أبوها أو أخوها الأكبر وجهها منذ بداية الاحتفالات.

وبعد صلاة العشاء ينطلق موكب العرّاسة رفقة فرقة المالوف في زي تقليدي مستنيرين بالشّموع واللّهلية (المشتعلة والمرفوعة في شكل صليب يذكّر بالذي يرفعه الإسبان في احتفالاتهم) إلى دار العروسة للخروج بها صحبة النساء من أهل العريس إلى بيت الزوجيّة عبر أبرز الشّوارع هاتفين بالتّخميس، وهو ترديد عبارة « خمسة وخميس، في عين إيليس، عاشق النّبيّ صلّوا عليه... العروسة سالمة، والعريس سالم، والصلاة على رسول اللّه ». ويختم إنشاد المالوف بقصيدة "أقبل البدر علينا.." وعند الوصول إلى بيت : " قال ربّي فادخلوها بسلام آمنين " يقبّل العريس كبار العائلة والحيّ وأباه المصطفّين طوال الحائط، ويدخل إلى بيته ليجد العروسة في انتظاره تاركا النّساء وراء الباب ينتظرن ما يطمئنهنّ،

والرّجال في الخارج قارئين الفاتحة راشقين المال ثمّ متلهّين بالزقارة حتّى يظهر القميص المثبت للعفّة والطارد للطّلاق والمعلي للزّغاريد والصخب. ولخطورة هذه اللّيلة المصيريّة تستدعي أم العروسة قبل الزواج قابلة لكي لا تفاجأ بالعار.

وفي صباح اليوم الموالي تكتشف العروسة هديّة من الذهب، كان أخفاها العريس تحت وسادتها. ويأتيها الفطور من دار أبويها اللّذين لم ينسوها. ويستنهض الوزير السلطان إلى الحمّام، فإلى دار العرّاسة نهارا، ثمّ إلى داره ليلا، مستأنسا بالمالوف والدّربوكة طيلة أسبوع. وفي يوم الصباح المذكور تقام تصديرة العروسة مع العرائس الجديدات مساء لتقبل الرّموّ (أي بعض المال المهدى) من كلّ زائرة، وكذلك العريس باسم " متاع العرّاسة ". وعليهما أن يردّا مستقبلا بأكثر ممّا أهدي لهما حتّى لا تنقطع العلاقة. وفي يوم الصباح يطبخ أهل العروسة أيضا العشاء ويرسلون إلى دار العريس من ثلاثة إلى سبعة مثارد.

وفي الليلة السابعة بعد الدّخول، وهي آخر ليلة منْ عرس "السّبعة أيّام في سبعة أيّام..." يزور العروسة صديقاتها ويبتن عندها، بينما يقضي العريس مع أصدقائه تلك اللّيلة في زاوية سيدي علي بن سالم. ويستعدّون للعشاء بذبح كبش مشترى من المال المهدى. وفي صبيحة الغد يعودون به من الزيارة ويناوشونه في الطّريق ضربا بالكشبور حتّى يعود من وهم السّلطنة والتّكبّر إلى حياة التواضع العاديّة منطبقا عليه المثل الشّعبي : « سبعة أيام سلطان وسبعة أيام وزير وبقيّة عمره أسير ».

- المـــوت :

يسجّى الميت ملثّما وملحّفا على مقعد خشبي وسط البيت، ويعلّق على باب الدار ستار منسوج من شعر الماعز. وأثناء عمليّة غسل الميت بالماء الساخن المجلوب من الحمّام يتولّى المقصّدان إنشاد قصيدة متبوعة بشعر ملحون في الموعظة ومختومة بمنظومة طالعها : " شوقي دعاني يا من يوادعني". ويلبّس الميت أحسن ما عنده، ويكفّن. ويدخل الطلبة، الذين حفظوا القرآن في الكتاتيب، لتلاوة ما تيسّر. ثمّ تدخل مجموعة العيساويّة لإنشاد الورد أو الحزب، ويحتوي على أدعية وصلوات على النبيّ. وبعد مسامحة الميت بتقبيله على الجبين، في جوّ

مؤثّر بالبكاء والنواح، يخرجون به منشدين حزب "سبحان الدائم" فآخر البردة حتّى المقبرة حيث يصلّون عليه، أو يتركونه في الجامع الكبير إذا اتّسع الوقت للصّلاة عليه بين الظهر والعصر، ثمّ يشيّعونه بالتداول على حمله للثواب مردّدين الشّهادة. وفي القبر المفروش بالرّمل يوسّد التراب. ومخدّة من أغصان الطرفاء. وقديما كانت تكتب للميت وصيّة فيها دعاء، وتحفظ في جزء من قصب، وتدقّ في جدار القبر، ويسقّف باللحود (أي بالآجر المَحلّي الخاصّ) حيث تقابل الواحدة الأخرى في شكل هرمي وتشدّ بالجبس. وقبل وضع القطعتين الأخيرتين يُجذب الغطاء الأخضر الذي كتبت عليه الشهادة وآيات الكرسي، وكان يغطّي الميت المحمول على النّعش إذا كان رجلا، بينما يُغطّى كامل النعش إذا كان الميت امرأة. وبعد وضع التراب يجتمع النّاس للفاتحة والدّعاء والتعزية الجماعيّة، ويرشّ القبر بالماء ليبرّد اللّه ثراه. وعند باب المقبرة يصطفّ أهل الميت لتقبّل التعازي الفرديّة، ومرّة أخرى أمام باب الدار. ويتجدّد تقبّل التعازي هناك ليلتين أخريين قبيل صلاة العشاء. ويتصدّق الأهل بكيس القمح ووعاء الزيت والملح ممّا وضع عند رأس الميت قبل تجهيزه. وتضرب خيمة على قبره لمبيت الرجال فالنساء. وتتواصل تلاوة القرآن ثلاث ليال، يبيت خلالها الأقارب عند أهل الميت إيناسا لهم. ويأتيهم الطعام فلا يطبخون إلاّ يوم الفرق ليوزّعوا مواعين الكسكسي باللحم -دون مُحلّيات- على من أطعمهم من قبل وعلى الفقراء ترحّما. ويقام مثل ذلك من الإطعام والتلاوة في المنزل ليلة نصف الشهر من تاريخ الوفاة وليلة الأربعين وفي المقبرة، حيث تنصب الخيمة ليلتين بمناسبة أوّل عيد فطر على من مات في السّنة نفسها. ويُتصدّق بالخبز والتّمر والزيتون. ولا تغتسل أرملته في الحمّام العمومي إلاّ بعد انقضاء الأربعين يوما. وهو عدد متواتر في تقاليد الشّعوب. وعلى سبيل المثال فإنّ الفراعنة يتمّون التّحنيط في أربعين يوما.

- **البستنة :**

قليلة هي البساتين التي يشتغل بها أصحابها الذين يملكونها. والكثير منها يعمل بها بستاني (جنّان) وذلك عن طريق المساقاة على أن يتكفّل بتقليم الأشجار بداية من شهر أكتوبر وبخدمة البستان بالمسحاة مرّة أولى، ويسمّى التحمير،

ويتولّى سقي الأشجار. وكانت جلّ البساتين تسقى من الآبار بالدّلو وخاصّة بالناعورة. ويجمع الماء المستخرج في الحوض المعروف بالجابية. ولا يمكن السّقي باستمرار حتّى تمتلئ، خلافا للتي تستعمل الدلو وجابية صغيرة.

وعند نضج الغلال يتولّى البستاني جمعها وبيعها، عادة على عين المكان، إلى التجّار أصحاب الأحمرة المعروفين بالحمّارة، فينقلونها إلى الأسواق القريبة بواسطة الكرّيطة. ومنها ما يباع في سوق البلدة.

ويتكفّل الجنّان بالمبيت في البستان لحراسة الغلال والدّواب وسائر المتاع بداية من ظهور الغلّة وطيلة ستّة أشهر. وهو الذي يصنع دولاب الناعورة من الحلفاء التي يأخذها من الملاّك مثلما يأخذ الدّواب. ويتقاضى مقابل خدمته الثلث من الدخل مالا.

ويستحسن أن يكون عشاؤه في أوّل ليلة يبيتها في البستان في شهر ماي هديّة من الملاّك مجاملة له. وعادة ما يشتري الجنّان المواد الغذائيّة ويعدّها في البستان، وعند إتمام العزيق يُطبخ له الفطور في دار الملاّك.

ومن الطريف أن تربط في الناعورة نواقيس من النحاس، وبالذات خلف الدابة في الخشبة التي تجرّ عصا الناعورة، فتحدث نغما مطربا، وبها يتسنّى للجنّان أن يعرف من بعيد، وخاصّة عندما يشرع في تصريف المياه، هل أنّ الدابّة تدور أم توقّفت.

وكانت سانية المرحوم أحمد الفزّاني أكبر سانية في تستور. وهي موجودة في البرقين ومحتوية على بئرين يصبّان في جابية واحدة، ولكلّ بئر ناعورة ودابتان يشتغلان بالتناوب. فكان يراقب العمل بالإنصات إلى النواقيس ليلا واقفا على ربوة الشهباء (كانت قرب زاوية سيدي بوغرارة) في البلدة. وكانت الحياة نشيطة في البساتين بالعمل في النّهار والحراسة في الليل حفاظا على الدّواب والمنتوجات المعرّضة للسرقة لقلّة الأمن. وعلى الجنّان أن يتسلّح بما يدافع به عن نفسه. أمّا اليوم، ونتيجة لتعويض المضخّات الآلية للناعورة، فلم تبق في البساتين دواب تُحرس. كما لم يبق أحد قادر على صنع الناعورة بعد وفاة أمين الصنعة الحاج قرداش وعبد الرحمان الفرياني والطيّب بن فيّالة الذي كان يُحتاج إليه لإصلاح ناعورتي مقهى "الصفصاف" بالمرسى وبئر روطة بالقيروان.

وفي فصل الأمطار يفيض وادي مجردة فلا يلتحق العمّال بسواني البرقين إلاّ عبر جسر مجاز الباب، ثمّ جسر السّلوقية، متحمّلين مسيرة يوم لقضاء نصف شهر في البساتين. إلاّ أنّه قبيل الحرب العالميّة الثانية أنشئ البطّاح المعلّق في حبل من حديد، فأراحهم من ذلك العناء، رغم أنّه انقلب بركّابه في الوادي أكثر من مرّة.

وممّا اشتهرت به تستور الأشجار المثمرة المعروفة بالعود الرّقيق، إشارة إلى ما تتطلّبه من عناية كبيرة وخاصة منها المشمش والرمّان والسّفرجل. وكانت تغرس في الشّتاء وبعد أن تكون الأرض التي لم تستغلّ من قبل مدّة سبع سنوات قد عُزقت بما يعرف بالقليع، وهو عزق بعمق متر، لتقضي شمس الصيف على ما فيها من نجم عنيد وديدان مضرّة. ولمشقّة هذا العمل قال رجل لعمّال مرّ بهم في طريقه :" إن كنتم تفعلون هذا مجبرين، فكّ الله غلبكم. وإن كنتم تفعلونه مختارين، لا فكّ الله عليكم غلبا ".

كما اشتهرت تستور بمختلف الخضر التي تزرع بين الأشجار أو في ناحية من البستان، وتسمّى بالفلاحة الأرضيّة التي تمكّن من استغلال الأرض وخاصّة المكتراة مدّة سنتين. ويتمّ تسويق المنتوج في سوق البلدة فورا.

ورغم مشقّة العمل في البساتين، وربّما تجاوزا لها بالتخفيف أو بالتحدّي، أو تعبيرا عن حبّ الأرض والنبات، تعوّد البستاني إنشاد قصائد في التشبيب والتهليل من نوع العروبي أو الفصيح، وهو عامل في البستان أو عائد منه مساء. وكان صاحب البستان يستعين وقت التشجير بجيرانه وأصحابه متطوّعين بيوم عمل. فيكرمهم بالإسفنج أو الملاوي الشبيهة بالفطائر غداء، وبالكسكسي واللّحم عشاء.

ومن حين لآخر تنعقد في البساتين حضْرات مالوف على أنغام أجراس النواعير أو "غيطة" الجرّارة والمرود (لعلّه تحريف المورد). ويقال إنّ أندلسيّا درّب ناقته التي "يَسْني" عليها على السير حسب أحد طبوع المالوف بواسطة جلاجل مربوطة بقوائمها.

هكذا كانت البساتين عامرة بالرجال طوال النهار إلى حدّ تستغرب فيه وتحتقر شابّا أو كهلا تراه في البلدة بلا شغل اللّهمّ إذا كان صبيّا يلعب أو شيخا يحكي. وللنساء في البيوت شؤون لا تنتهي.. ولا تعود الحيويّة إلى البلدة إلاّ عند

الغروب بعودة العمّال والدواب المحمّلة بالخضر والغلال وقطعان الغنم والبقر لقضاء اللّيل. وفي كلّ يوم غدوّ ورواح.

*** مواسم دينيّة :**

- **التلاوة والأذان :** جرت العادة باجتماع الطلبة، الوافدين من القرى المجاورة على تستور والمستقرّين بزواياها، لتلاوة القرآن يوميّا في تلك الزّوايا بعد صلاة المغرب، حيث يقرؤون حزبين في اليوم، ويختمون القرآن مرّة كلّ شهر. أمّا التّلاوة اليوميّة بالجامع الكبير فخاصّة بطلبة المدينة. وفي يوم الجمعة، قبل إقامة الصّلاة، يقرأ إمام الخمس ما تيسّر من المصحف المخطوط أمام كرسي التلاوة الموضوع تحت قبّة الوسط ببيت الصّلاة بما يرفع الصوت إلى كافّة أنحائها. وكان آخر المقرئين وأجودهم الحاج محمد عبيد بن الطيب بن حسين زبيس الأندلسي (1925/9/26 - 1994/2/23) الذي ظلّ تسجيلي لأذانه وبعض تلاوته صادحا من أعلى الصّومعة. وفيما مضى كان المؤذّنون عديدين ومتطوّعين.

ومن حسن الحظّ أن ظلّ يُستغلّ في الجامع الكبير تسجيلي لتقصيد هؤلاء في ليالي الجمعة والمواسم، حيث كانوا ينشدون من الصّومعة مدائح نبويّة قبيل صلاة العشاء بنصف ساعة مساء كلّ خميس وليلة القدر (27 رمضان) وليلة عيد الفطر وليلة الوقفة (الوقوف على عرفات في 9 ذي الحجّة) وليلة عيد الإضحى (ليلة العاشر من ذي الحجّة) ورأس السّنة الهجريّة (ليلة أوّل محرّم) وليلة عاشوراء (ليلة العاشر من محرّم) وليلة المولد النبوي (ليلة الثاني عشر من ربيع الأوّل) وليلة الإسراء والمعراج (ليلة السابع والعشرين من رجب) وليلة المائة ركعة (ليلة النصف من شعبان). وهذا ما ينشدون :

أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، بسم اللّه الرحمان الرحيم، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم، حسبنا اللّه ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النّصير، على اللّه توكّلنا، لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم، لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم. سبحان من أنزل في محكم التنزيل وهو أصدق القائلين : إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبيّ، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما. اللّهمّ صلّ عليه وعلى آله الأخيار، وعلى

أصحابه الكرام الأبرار، ورضي اللّه تعالى على المهاجرين والأنصار، رحماء بينهم أشدّاء على الكفّار، صلاة دائمة مباركة متّصلة، ما تعاقب ليل ونهار، "يا اللّه" (ثلاث مرّات).

بدأت باسم اللّه في أوّل السطر ... فأسماؤه حصن منيع من الضرّ
وصلّيت في الثّاني على خير خلقه ... محمد المبعوث بالفتح والنّصر
إذ نابني خطب وضاق به صدري ... فناب لطف اللّه من حيث لم أدر
ولا سيما إذ جئتك متوسّلا ... بأسمائك الحسنى معظّمة القدر
اللّه يارحمان إنّي لذو فقر ... وأنت رحيم مالك للخلق وللأمر
بقدسك قدّوس سلام ومؤمن ... مهيمن قدّسني بالسرّ والجهر
عزيز وجبّار ومتكبّر ... ويا خالق الخلق أكفني أزمة الدهر
ويا بارئ مالي سواك مصوّر ... ويا غفّار اجبرلي كسري
وهب لي يا وهّاب رزقي ومطلبي ... .[1] يا عليم .....

اللّه يا اللّه

بحمدك يا ربّ العالمين نوحّد ... ولامسلما في الكون إلاّ ويشهدُ
بأنّك رحمان رحيم بخلقك ... وملك يوم الدين إيّاك نعبد
وإيّاك نستعين حقّا لتهدنا ... صراط المستقيم حقّا ونرشد
صراط الذين أنعمت فضلا عليهم ... منهم غير المغضوب وجاهك يحمد
ولا الضّالين عن طريق رشادهم ... بحقّ آمين قرّبنا إليك نسعد

اللّه يا اللّه

أحمدك يا مستوجب الحمد دائما ... حمدا على كلّ حال من دون سئم
فسبحانك اللّهمّ تسبيحا شاكرا ... بما هو فيك المعروف ياذا الرّحم
فكم لك من ستر على كلّ خاطئ ... وكم لك من ..... على كلّ غالب
وجودك موجود وفضلك وافر ... وأنت الذي ترجى في العظائم
وبابك مفتوح لكلّ مؤمّل ... وبابك مغلوق لكلّ مصادم
ويا فالق الإصباح والحبل والنوى ... ويا قاسم الأرزاق بين العوالم

(1) كلمة غير واضحة، ولم يبق، للأسف، أحد يحفظ القصيدة.

ويا كافل الحيتان في لجّ بحرها ومؤنس في الآفاق وحش البهائم
إليك توسّلنا بك فاغفر ذنوبنا وخفّف على العاصين صدر المآثم
وحبّب إلينا الحقّ واحفظ قلوبنا من الزيغ والأهواء يا خير عاصم
وبرّ علينا يا كاشف الغطاء بستر خطايانا ومحو الجرائم
ودبّر علينا بسلطانك الذي أذلّ وأفنى كلّ طاغ وظالم
وصلّ على قطب الوجود محمد كذا الآل والأصحاب كلّهم

اللّه يا اللّه

يا ربّ بالمصطفى بلّغ مقاصدنا واغفر زلّاتنا ياذا الجود والكرم
يا ربّ بالمصطفى توفّنا مسلمين واجعل منازلنا في جنّة النعم
ويغفر اللّه مولانا الكريم لنا ولوالدينا وللإسلام كلّهم
ووالدينا وما عقبت من خلف والمسلمين من العرب والعجم
ونختم بالصلاة على النبيّ محمد خير الورى من الأعراب والعجم

اللّه يا اللّه

"الصّلاة والسّلام عليك يا سيّد الأوّلين والآخرين" (مرّتان)
الصّلاة والسّلام عليك يا من قال : "يا ربّ أمّتي أمّتي" مرّتين
الصّلاة والسّلام عليك يا من ولد ليلة الإثنين
الصّلاة والسّلام عليك يا من ختم القرآن في ركعتين
الصّلاة والسّلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّه ربّ العالمين.

ويكون إنشادهم بالتّناوب، وبعد استفتاح مسجوع. ويُتبع ذلك بأربعة أبيات على وزن "البردة" وقافيتها. ومسك الختام ترديد التصلية والتسليم فرديّا ثمّ جماعيّا، والنّداء للصّلاة وتلاوة الفاتحة مرّات تتخلّلها أدعية.

واعترافا بالفضل لأولئك المتطوّعين المواظبين نسجّل أسماء من أدركناهم، وهم حمّودة بومراح والمرحومون : صالح بالصغيّر، التجاني الكوّاش، الصادق زبيس، الفيتوري بن صابر، البشير الزرقي، خالد بن علي باي الوسلاتي (ت 1989/12/16). وقبلهم كان : محمود الباي، محمد الجورشي، الصغيّر عبشّة،

محمد بن سالم، أحمد بالصغيّر، سليمان بالصغيّر، عليّة السيّد، سليمان بوها، بوجمعة الملاّح، محمد بن خميس ماركو، محمد بن طالب علي. وواضح توارث عائلة بالصغيّر للأذان. وكان محمد الملاّح مؤذّنا مشاركا في التقصيد ووقّادا، يوقد قناديل الزيت للإنارة.

- **ليالي الجمعة والمواسم** : بعد التقصيد يرفع الأذان، فيشرع المصلّون في ترديد الأبيات التالية منتظرين إقامة صلاة العشاء :

اللّهمّ صلّ على المصطفى بديع الجمال وبحر الوفاء
وصلّ عليه كما ينبغي الصادق محمد عليه السلام
صلاة تدوم وتبلغ إليه بعدد اللّيالي وطول الدوام
إلهي سألناك بالمصطفى أقل عثرتي يا مقيل العثار
ويوم القيامة لا تخزنا ولا تحرق الجسم منّا بنار

وبعد ترديدها ثلاثا، تختم بإنشاد البيتين الموالين مرّة واحدة :

اللّهمّ صلّ عليه الحبيب وحبّه وذكره على القلب طيب
ويا ربّ لا تقطع منّا نصيب بجاه محمد عليه السّلام

- **صلاة الجمعة** : قبل أذان الجمعة بنصف ساعة يجلس المقرئ، وهو المجاز في علم التجويد، على كرسيّ الختمة، وسط بيت الصّلاة، ليرتّل ما تيسّر من القرآن الكريم، من المصحف المخطوط، وقد امتلأ الجامع بالمصلّين من أهالي تستور وأحوازها الوافدين بمناسبة السوق الأسبوعيّة والصّلاة. وبعد انتهاء الترتيل بالدعاء، يدخل الإمام إلى بيت الصّلاة من المقصورة التي كان دخلها من باب خارجيّ خاصّ ومدرج يصلانها بالنهيج الخلفي، على يمين المحراب.

ويتولّى إمام الخمس مرافقة إمام الجمعة من المقصورة إلى المنبر حيث يبادر الجمع بالتحيّة، ثمّ يتسلّم منه العكّاز الأخضر - على السنّة النبويّة - ويصعد درجات المنبر بالدّعاء بين الواحدة والأخرى، ثمّ يجلس، ويجلس إثره إمام الخمس. وفي نفس اللّحظة ينزل المقرئ من كرسي الترتيل بعد أن أنهى الدعاء، في حين يبدأ الأذان الأوّل فالثاني فالثالث. ثمّ يقف إمام الخمس متّجها إلى الجمع بالحديث : أيّها النّاس، روى مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ

النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال : " إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب "أنصت" فقد لغوت. ومن لغى فلا جمعة له ". أنصتوا رحمكم اللّه، أنصتوا يرحمنا ويرحمكم اللّه. ويجلس، فيقف إمام الخطبة لإلقائها من أعلى المنبر، مراوحا بين القراءة والشّرح. وتنتهي الخطبة الأولى بالدّعاء، فيجلس الإمام جلسة قصيرة، ثمّ يستأنف بالخطبة الثانية، وهي الأقصر، وجلّها أدعية. ثمّ ينزل من المنبر وينهض الجمع للصلاة استجابة لنداء صفّ المسمّعين بآخر بيت الصّلاة : " قامت الصلاة يرحمكم اللّه. قامت الصّلاة يرحمنا ويرحمكم اللّه". ويسود السّكون بعد استواء الصفوف، فيكبّر إمام الجمعة تكبيرة الصلاة، ويعيدها المؤذّن خلفه، ثمّ يعيدها المسمّعون من وراء الصفوف وقد امتزجت أصواتهم بتكبير الجميع. وعلى هذا النحو تُقام الصلاة. وهي ركعتان، في كلّ منهما فاتحة وسورة جهرا، وتنتهي بالتّسليم. فيؤمّن المؤذّن، خلف الإمام، بعبارة " اللّهمّ آمين يا ربّ العالمين " ويعيدها الجميع بصوت مرفوع، ويكرّرها فيكرّرونها، وفي الثالثة يصلون التّأمين بالحمد هكذا : " اللّهمّ آمين ياربّ العالمين والحمد للّه ربّ العالمين ". عندئذ يغادر الجامع من يريد صلاة العصر في مسجدي صاي وعبد اللّطيف، ويبقى من يفضّل صلاة العصر في نفس المكان مشاركا في "الفريضة" بالذّكر والتّلاوة والصّلاة والتّسليم بدءًا بآيات الكرسي : " أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، بسم اللّه الرّحمان الرّحيم : " إلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرّحمان الرحيم " (البقرة 163) " اللّه لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السّماوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء. وسع كرسيّه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العليّ العظيم " (البقرة 255) " وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده " (الإسراء 44). سبحانه وتعالى. سبحان اللّه. "سبحان اللّه والحمد للّه واللّه أكبر" (33 مرّة عملا بالحديث). ولا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير. " أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، إله واحد وربّ شاهد ونحن له مسلمون " (3 مرّات). إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبيّ. يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما (الأحزاب 56). "اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آل سيّدنا محمد وسلّم" (11 مرّة). وبارك وصلّ وسلّم على جميع الأنبياء والمرسلين وارض عن

الصّحابة أجمعين والأولياء والصّالحين، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم. اللّهمّ "يا لطيف" (133 مرّة بعددي حبّات السبحة الكبيرة [99] والسبحة الصغيرة [33] وواحدة مضافة احتياطا مع مدّ الصوت في التاسعة والتاسعة والعشرين والأخيرة) بالأزل.

أنت اللّطيف لن تزل	الطف بنا بما نزل
سألناك بالقرآن	ومن عليه نزل
صلّى عليه ربّنا	إلهنا عزّ وجلّ
وآله وصحبه	ما لاح نجم وأفل
ارحمنا يا مولانا	والطف بنا عن عجل

يا لطيف الطف بنا بما جرت به المقادير، والصلاة والسّلام عليك يا أشرف المرسلين. أنت لها ولكلّ كرب عظيم. اللّهمّ اشفنا وفرّج كربنا بفضل بسم اللّه الرّحمان الرّحيم : "الإخلاص" (11 مرّة). بسم اللّه الرّحمان الرّحيم : "الفلق". بسم اللّه الرّحمان الرّحيم : "النّاس". بسم اللّه الرّحمان الرّحيم : "الفاتحة" (5 مرّات تتخلّلها 4 أدعية). آمين. اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد الفاتح لما أُغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحقّ بالحقّ، والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين.

ثمّ يؤذّن للعصر، والمصلّون يتنفّلون، فيقومون للصّلاة، ويختمون مؤمّنين : "اللّهمّ آمين يا ربّ العالمين" (مرّتان) والحمد للّه ربّ العالمين. عندئذ يخرج البعض ويواصل الآخرون تلاوة "الفريضة" خاتمين بـ"الفاتحة" (5 مرّات تتخلّلها 4 أدعية) مختصرين بالحذف من التوسّل : "يا لطيف" إلى سورة النّاس. وبهذه "الفريضة" المختصرة تنتهي كافّة الصّلوات الخمس باستثناء صلاة الجمعة. وتتميّز صلاة العشاء مساء الخميس، المعروفة بليلة الجمعة، بالتأمين إثرها وقبيل "الفريضة" المختصرة. ومسك الختام الشّفع والوتر.

– **ليلة نصف شعبان** : وتعرف بليلة المائة ركعة، ولكنّها تؤدّى بطريقة مختصرة في خمس صلوات ذات ركعتين، في كلّ منهما تلاوة للفاتحة مرّة واحدة ولسورة الإخلاص مائة مرّة، فتكون جملتها ألف مرّة.

- **يوم القرش** : هو آخر أيام شعبان، وفيه يتمّ الاستعداد لرمضان بإعداد أطعمة وحلويات لتبادل إهدائها وتناولها في أوّل سحور. وهي عادة العصيدة أو المدموجة، وهي عبارة عن فطائر مغموسة في محلول السكّر، أو مسمّنات، تقطّع وتخلط بالسمن والعسل والتمر.

- **ليلة الشكّ** : هي ليلة التثبّت في دخول شهر رمضان باعتماد رؤية الهلال، إذ كان الأهالي يقضونها في انتظار الأمر الصادر عن المجلس الشرعي بالعاصمة عن طريق البريد. وعند وصوله - متأخّرا أحيانا - يتولّى الطبّال نشر الخبر بضرب الطبل ليعلم الأهالي والقادمين من الريف. وفي بعض الحالات يتسبّب تأخير الإعلام في الإمساك نهارا، أو في الإفطار بعد صيام صبيحة العيد ! وقد زال اليوم الاضطراب بالتوفيق بين الرؤية والحساب.

- **رمضان** : من مميّزات المغرب في هذا الشهر أنّ المؤذّن يعتني بتنظيف قناديل الصومعة وبيت الصلاة قبيل المغرب، فإذا حان أذن له الإمام بالأذان خلافا للأيّام الأخرى التي لا يشترط فيها حضور الإمام. ومع إنارة قناديل الزيت - التي عوّضتها الفوانيس الكهربائيّة - يرفع مساعد المؤذّن بأعلى صومعة الجامع الكبير علما أبيض بحجم متر مربّع مشدودا بحبل إلى عصا مثبّتة بالجامور في اتجاه الغرب، حيث البساتين وحي الثغريين بناة الجامع. وقد عوّض بالعلم التونسي بعد الاستقلال، وبقي الأبيض للإشعار بوقت عجن الخبز ظهرا. ومدّة الانتظار يصطفّ الأطفال على مشارف الأحياء - كالربوة "الشهباء" التي كانت بجوار زاوية سيدي بوغرارة بالنسبة إلى الحارة - لمراقبة تحرّكات المؤذّن وصاحبه بأعلى الصومعة. فإذا ظهر أحدهما أو كلاهما صاحوا : " القنفود طلّع راسه، بوطرييشة طلّع راسه" واستعجلوا أحدهما ذاكرين اسمه ومردّدين : " يا أحمد شيطيّة طلّع العلم ". فإذا آن الأوان ورفع العلم وأوقدت القناديل - أو الفوانيس - وارتفع الآذان انقلبوا إلى أهليهم عدوا مبشّرين بترديد التوحيد : " توحّدوا الله " وتمنّي الإفطار الشهيّ :

" أفطروا يا صائمين كسكسي ولحم سمين
أفطروا يا حجّاج كسكسي ولحم دجاج "

وقبيل الإمساك يجول الطبّال بأنهج المدينة لإيقاظ النّاس للسّحور فيجودون عليه بأفضل ما عندهم، كالبناضج أو الخبز أو المسفوف.

ومن الطّريف أنّه تعوّد على الطّواف حسب برنامج معيّن وعلى إيقاعات خاصّة برمضان.

- **التّراويح** : تقام التراويح في رمضان بعد صلاة العشاء، وتختم بالشّفع والوتر. وتتمثّل في عشرين ركعة مقسّمة إلى عشر صلوات، في كلّ منها ركعتان، وتختم كلّ صلاتين بترديد التّسبيحة التّالية : " سبحان الملك القدّوس " (مرّتان)، صبّوح قدّوس، ربّ الملائكة والرّوح. اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما. وختم القرآن ليلة السّابع والعشرين، فيكون المعدّل حزبين وربعا كلّ ليلة تقريبا.

وبعد الانتهاء من التّراويح والشّفع والوتر يكون الختام بالحمد والأدعية التّالية : " الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه. لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ. "اللّهمّ لك الحمد" (ثلاث مرّات) على نعمة الإسلام وما لها من الفضل والجود والكرم والإحسان. الحمد للّه الحليم المنان، الشّكر للّه العظيم الدّيّان، الفضل للّه العزيز السّلطان. "اللّهمّ اختم لنا بخير يا رحمان" (مرّتان) اللّهمّ اختم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين بالسّعادة والغفران. تقبّل بفضلك يا مولانا، والطف بعبدك يا ربّنا، واختم بخيرك آجالنا. ربّنا تقبّل منّا الصّلاة والصّيام واحشرنا في زمرة خير الأنام. ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين. بسم اللّه الرّحمان الرّحيم "الفاتحة" (خمس مرّات تتخلّلها أدعية). "صلاة اللّه على الهادي نبينا ختام الأنبياء والمرسلين" (سبع مرّات). سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين. بسم اللّه الرّحمان الرّحيم "الفاتحة". اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمّد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحقّ بالحقّ والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين".

وليست صلوات التراويح مقصورة على الجامع الكبير بل تقام في المساجد، كما كانت تقام في الزّوايا المتّسعة لبيت الصّلاة كزاوية سيدي نصر وسيدي محمد

ابن عيسى. أمّا في ليلة السابع والعشرين فيقتصر حفل مرافقة الإمام إلى داره – بعد ختم القرآن والشّفع والوتر – على إمام الجامع الكبير بصفته إمام الخطبة.

وممّن صلّوا التراويح بالنّاس المؤدّب المرحوم يوسف بوثلجة والمقرئ المرحوم عبيد زبيس في الجامع الكبير، وإبراهيم شيطيّة في مسجد صاي، ومحمد بوخريص في مسجد عبد اللّطيف. والمؤدّب الطّاهر القيطوني (أصيل بوعرادة) بمسجد ابن الأميرة، ومنه انتقل إلى مسجد صاي.

– **ختم الحديث والقرآن :** يتولّى إمام الجامع الكبير تفسير الحديث بين الظّهر والعصر من أوّل رجب إلى يوم السّادس والعشرين من رمضان. في ذلك اليوم تختم دروس التّفسير إثر صلاة العصر، خلافا لما سبق. ويكون ذلك بأدعية وتلاوة بعض القرآن. وقبل ذلك تختم تلاوة القرآن بين الظّهر والعصر بأدعية تتخلّلها تأمينات المؤذّنين الجالسين إلى يمين المقرئ. وقد تواصلت التلاوة منذ حلول رمضان من نسخة الختمة المخطوطة المحفوظة أمام كرسيّ المقرئ عند قبّة الوسط. وهي التي كانت بالجامع العتيق بالرحيبة.

وفي ليلة ذلك اليوم –ليلة السّابع والعشرين– تختم التراويح وتسرد المولديّة، ويرافق المصلّون الإمام إلى داره بالمدائح انطلاقا من باب الجامع الرّئيسي، لتمييز تلك اللّيلة المباركة عن سواها. ولذلك اعتاد الأهالي أن يُلبسوا أبناءهم أجمل الثياب بداية من وقت العصر. ويُعدّ الفطائريّة كمّيات وافرة من المخارق والزلابية تلبية للطّلب. فمنها يهدي الزوج لآله حوالي كيلوغراما، والخطيب لخطيبته صينيّة (أي قصعة) كاملة.

وإلى جانب ختم القرآن ليلة السّابع والعشرين من رمضان في نطاق صلوات التراويح بحوالي حزبين وربع كلّ ليلة، مقسّمة على عشرين ركعة، فإنّه يحتفل بختم القرآن بمناسبة الختان وغيرها. ويكون ذلك في ليلة واحدة بتوزيع ثلاثين سفرا بحزبين على ثلاثين قارئا من الطّلبة والمؤدّبين، فيقرؤون في نفس الوقت جهرا، كلّ من سفره. ولا حرج إذا تداخلت الأصوات واختلفت القراءات.

وهذا دعاء ختم القرآن : " صدق اللّه العظيم، وبلّغ رسوله المصطفى الكريم، ونحن على ما قال ربّنا وخالقنا ورازقنا ومولانا من الشاهدين، وبه مؤمنون. اللّهمّ انفعنا بما علّمتنا، وعلّمنا ما ينفعنا. ربّنا زدنا علما تنفعنا به. اللّهمّ

اجعل القرآن العظيم ربيع قلبنا ونور صدرنا وجلاء حزننا وذهاب همّنا وغمّنا، واجعله لي ولكم من أمرنا فرجا ومخرجا، إنّك على كلّ شيء قدير. اللّهمّ ربّنا تقبّل منّي ختم القرآن العظيم، وتجاوز عنّا ما كان في تلاوته من نسيان أو تحريف كلمة عن موضعها أو تغيير حرف أو تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان أو تأويل على غير ما أنزلته أو ريب أو شكّ أو تعجيل عند تلاوته أو كسل أو سرعة أو زيغ اللّسان أو وقوف بغير وقف أو إدغام بغير مدغم أو إظهار بغير بيان أو مدّ أو تشديد أو همز أو جزم أو إعراب بغير مكان. فاكتبه منّا على التمام والكمال والمهذّب من كلّ الألحان. فاغفر لنا يا ربّاه، يا سيّداه، لا تؤاخذنا يا مولانا، وارزقنا يا مولانا بفضل من قرأه مؤدّيا حقّه مع الأعضاء والقلب واللّسان، وهب لنا به الخير والسّعادة والبشارة والأمان، ولا تختم لنا بالشرّ والشّقاوة والضّلالة والطّغيان، ونبّهنا قبل المنايا عن نوم الغفلة والكسل، وأمّنا من عذاب القبر ومن سؤال منكر ونكير ومن أكل الدّيدان، وبيّض وجوهنا يوم البعث، واعتق رقابنا من النّيران، ويمّن كتابنا، وثقّل ميزاننا بالحسنات، وثبّت أقدامنا على الصّراط، واسكنّا في وسط الجنان، وارزقنا جوار محمد عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام، وأكرمْنا بلقائك يا ديّان".

- **ليلة الدّردك** : جرت العادة ليلتي العيدين، وقبيل صلاة العشاء، بأن يمثّل جمع من الفتيان هجوما على الجامع الكبير حيث يقرعون حلق الأبواب بقوّة ويطوفون بالدّاخل عدوًا، ويرفعون من يجدون ويصيحون، حتّى إذا رفع الأذان خرجوا. ولعلّ هذه العادة التي أبطلها الإمام صالح العكّاز بعد الاستقلال تذكّر أحفاد الأندلسيّين بظروف الاضطهاد التي عانى منها أجدادهم عندما حرّم عليهم الإسبان المسيحيّون شعائر الإسلام، فيزداد تعلّق الأحفاد بالدّين الذي ضحّى الأجداد بأوطانهم لأجله، فيما يدّعون.

- **عاشوراء** : وتوافق ليلة العاشر من محرّم. ويكون الاحتفال بها بذبح الدجاج لإعداد العشاء. ومن ألعاب الصبيان فيها أنّهم يوقدون النّار في أكوام الإكليل في الأحياء، ويقفزون عليها مرارًا بالتّناوب. وفجر يوم عاشوراء تزور النّساء المقبرة مكتحلات. والكحل مباح يومئذ لهنّ وللفتيات والرّجال لما روي عنه (ص) : " من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ". وذلك اليوم أحد مواسم الهدايا، يهديها الخطيب

لخطيبته. ومن تشيُّع الاحتفال أن كانت النّساء يروين أحداث عاشوراء بنسبة الكفر إلى مخالفي الشّيعة. ومن النّاس من يصوم ثامونة وتاسوعة وعاشوراء وحادوشة.

– **المولد** : ليلة المولد النبوي يقام بالجامع الكبير، بعد صلاة العشاء، ختم يستهلّ بتلاوة نصيب من القرآن، وتسرد فيه المولديّة للبرزنجي وتتخلّلها مدائح وأذكار. ويختتم بأدعية، كما في سائر الاحتفالات. وصباح يوم المولد يتبادل الأهالي أكلة العصيدة التي كانت من العجين والزيت والسكّر وأصبحت من الزقوقي والحليب والفواكه.

ويوم السّبت الموالي كان أتباع العيساويّة يستضيفون أتباع الرّحمانيّة في زاوية سيدي محمد بن عيسى حيث يدعونهم لوليمة الكسكسي تصفية لقلوبهم من أثر التّنافس الطّويل. فإثر صلاة العصر يجتمع أتباع الرّحمانيّة في زاوية سيدي ابن عبد الرّحمان ويقصدون زاوية سيدي محمد بن عيسى بالخرجة المعروفة. هناك يجدون شوّاش الزاوية في استقبالهم، فيأكلون ويتطيّبون. ويقيمون في السّهرة "حضرة" أو حفلا دينيا. ويوم السبت الموالي يحدث العكس تماما.

– **الدروس الدّينيّة** : كانت تعقد في الجوامع وخاصّة الجامع الكبير دروس في الفقه والتفسير –قرآنا وحديثا– بين صلاتي الظّهر والعصر، وقبيل صلاة المغرب. ومن المدرّسين الذين أدركناهم، خلال النصف الثاني من ق20، المرحومون : الإمام محمد الصالح العكّاز الذي كان يُقرئ درسه بعد أن يصلّي الصبح بحزب كامل، والشّيخ محمد بن مفتاح الجميعي، والشيخ محمد جهين. ثمّ أصبحت مهمّة التّدريس منوطة بعهدة الوعّاظ، ومنهم الشيخ مصطفى الأندلسي أصيل السلوقيّة.

أمّا المرحوم الشيخ يوسف بوثلجة فكان مؤدّبا وإمام الخمس. وكان يحفّظ الصّبيان القرآن بزاوية سيدي محمد بن عيسى ثمّ بالجامع الكبير بين صلاتي المغرب والعشاء. وكان المرحوم الشيخ محمد بن أحمد بن عطيّة إماما ومدرّسا بمسجد سيدي عبد اللّطيف، مثلما كان المرحوم الشّيخ محمد باتيس الأندلسي مدرّسا بزاوية سيدي ابن عبد الرّحمان –حيث دفن–. وكان كلاهما منتميين إلى الطريقة الرحمانيّة.

– **عقد القران** : تبرّكا بالجوامع والزّوايا يحتفل الأهالي بعقد القران فيها، وخاصّة منها الجامع الكبير. ويكون ذلك بعد صلاة العصر بحضور الإمام –الذي هو عادة

عدل إشهاد- صحبة عدل ثان ووالدي الخطيبين وجلّ المصلّين والمدعوين من الرّجال. وبعد قراءة المأثورات المفضّلة للنّكاح يستشير الإمام الوالدين فيجيبانه بالقبول. فيقرأ الجميع الفاتحة. ويختم الحفل بالتّهاني وتوزيع الحلويّات والمشروبات، وهي عادة البسكويت والروزاطة أو المشروبات الغازيّة.

- **الزّوايا** : لئن تعدّدت الزّوايا بتعدّد الأولياء الصّالحين فإنّ أنشطها زاوية سيدي محمد بن عيسى حاضنة الطّريقة العيساويّة وزاوية سيدي محمد بن عبد الرّحمان حاضنة الرّحمانيّة، وزاوية سيدي عبد القادر حاضنة القادريّة وزاوية سيدي علي العريان حاضنة السلاميّة وزاوية سيدي أحمد التّجاني حاضنة التجانيّة. أمّا زاوية سيدي نصر القرواشي فلم تكن حاضنة لطريقة صوفيّة بل كانت متميّزة بوظيفتها الأساسيّة كمدرسة قرآنيّة ذات بيوت لإقامة الطّلبة الوافدين من الأحواز والقرى المجاورة. وكذلك كانت الزّاوية الرحمانيّة إلى جانب الطّريقة التي آوتها. أمّا بقيّة الزّوايا فلم تكن أكثر من كتاتيب. وكانت كلّ طريقة تحتفل في زاويتها بالحضرة والأوراد. ونظرا لتكاثر الواردين عليها قصرت احتفال الزاوية على الحضرة، واستقلّت بركن من الجامع الكبير لإنشاد الورد. كما كانت احتفالاتها متناوبة، فحضرة الرّحمانية ليلة الجمعة (أي مساء الخميس) وحضرة العيساويّة في اللّيلة الموالية، والبداية، بعد صلاة العشاء، بتلاوة حزب من القرآن. وتتخلّل الحضرة مدائح ومجرّد وقطع مالوف. هذا بالنّسبة إلى النّشاط الطرقي، أمّا بالنّسبة إلى النّشاط التّعليمي فإنّ تلك الزّوايا مع بعض الأعلية كانت تحتضن كتاتيب يشرف عليها مؤدّبون برعاية جمعيّة الأوقاف من حيث صيانة المعلم، وبأجرة زهيدة تعرف بالخميسيّة لاقترانها بأيّام الخميس باعتبار عطلة يوم الجمعة، إضافة إلى خميسيّة آخر الشّهر والعواشر قبيل رمضان، والختمة عند بلوغ الطالب سورا معيّنة، وهي: البيّنة، الأعلى، النّبإ، الجنّ، الملك، الرّحمان، الفتح، يس، الفرقان، مريم (المعروفة "بالبقرة" الصغيرة لتوسّطها القرآن)، يوسف، الأعراف، البقرة.

ولمّا كان تعليم القرآن بالإملاء والكتابة على اللّوحة بقلم القصب والمداد (السّمق) فإنّ شهادة ختم كلّ مرحلة تتمثّل في تلك اللّوحة التي يزيّنها المؤدّب ويحملها الطّالب إلى أبيه ليعود إلى المؤدّب بمال وهديّة كالمشروبات أو الأضحية. وهكذا يتواصل حفظ القرآن بالتدرّج الصاعد من المعوّذتين إلى البقرة، وهي طريقة

الشقّة أو القلم الأوّل، وعند الوصول إلى البقرة يبدأ التدرّج النّازل إلى المعوّذتين، وهي طريقة الرجعة أو القلم الثاني. وبهما يشهد للطّالب بحفظ القرآن، وإلاّ اجتهد بقلم ثالث.

وتتّصل بالزوايا احتفالات مناسباتيّة كالوعدة والزّردة. ففي الأولى تذبح الأضحية ويعدّ بلحمها الكسكسي الذي يرسل في المثارد إلى زاوية الطّريقة التي ينتسب إليها المعني بالأمر. وفي السّهرة يقيم أتباع الطّريقة حضرة بدار صاحب الوعدة، إذا اتّسعت لذلك، وإلاّ ففي زاوية الطريقة. وفي الثانية تقام عادة زردة العريان لاستنزال الغيث، وذلك بخرجة العيساويّة، التي تطوف بالمدائح والبنود على جلّ الزّوايا صباحا، وبتوزيع لحم الأضاحي على الفقراء وعامّة الأهالي تبرّكا أو بإطعامهم الكسكسي الذي أعدّه بذلك اللّحم الفلاّحون المشتركون في الأضاحي وأرسلوه إلى الزّاوية، وبإقامة حفل ديني فيها بعد صلاة العشاء.

كما تشهد أهمّ الزّوايا زيارات واحتفالات أخرى بمناسبة الختان والنجاح والزواج والحجّ...

أدب شعبي (*)

ما انفكّت العناية بالتّراث الشّعبي في بلادنا تتزايد، وما برح المهتمّون به يجمعون شتاته لانقاذه ودراسته واعين بقيمته الفنّية والوثائقيّه والإنسانيّة. ولقد رأينا أن نجمع وندرس دراسة أوّليّة ـ لا تخلو طبعا من سطحيّة ـ بعض ما عثرنا عليه من الأدب الشّعبي في تستور معتذرين عمّا نتسبّب فيه من إحراج عن غير قصد مؤمنين بخصوصيّة هذه المدينة المحافظة على بعض تراثها.

* **الأمثـــال** (مرتّبة أبجديّا) :

1) « آش كون يقول قو... »

قو : اختزال لقول، معناه : من يتجرّأ على معارضة الحاكم في حضرته.

2) « الخبر يدور في تستور »

سرعان ما ينتشر الخبر في كلّ قرية أو مدينة صغيرة مفتقرة إلى ما يلهيها عن القيل والقال.

3) « برنوس أولاد دخيل إلّي يطلع للسّوق يطلع به »

– أربعة إخوة فقراء يشتركون في لبس برنس واحد ويتبادلونه بالتّناوب. يقال دلالة على الفقر المدقع وتراكم الاستعمالات على شيء واحد.

4) « الحضرة في العريان والرقص في الملّيتي »

العريان : الوليّ الصالح سيدي علي العريان "شيخ البلد" ودفين تستور.

الملّيتي : الوليّ الصالح سيدي عبد اللّه الملّيتي دفين تستور.

الحضرة : فرقة السّلاميّة أو العيساويّة أثناء أداء بعض المدائح الدّينيّة بإحدى الزّوايا عادة. يقال إذا تشتّتت الجهود ولم تنسّق الأعمال المتكاملة.

5) « الدّار في التغرين والسّانية في البرقين »

التغرين : (Tagarin) أوّل حي أسّسه المهاجرون الأندلسيون بتستور في الجانب الغربي للسوق. وتسميته منسوبة إلى الشيخ محمّد تاغارينو مؤسّس الجامع الكبير بالبلد سنة 1630م.

(*) ينشر لأوّل مرّة.

البرقين : (Vergel) موضع بالضفّة اليسرى لوادي مجردة غربي تستور، تجمّعت به البساتين الأولى لخصب الأرض وتوفّر المياه.

يقال إذا جمعت العائلة بين الشّرف والثّراء.

6) « دخلنا الأربش »

الأربش : (Arabes) لفظة إسبانيّة بمعنى الأعراب.

كان المزارع في تستور يجمع كمّية الغلال والخضر التي ينوي بيعها، فيضعها في "الزنبيل" على ظهر الدّابة التي اعتادت الطريق المؤدّية إلى السوق. فيأخذ الخضّارون منها ما يشاؤون، ويضعون الثّمن مكانها. فإذا شعرت الدّابة بنفاذ الكمّيّة عادت إلى صاحبها في البستان. هكذا جرت العادة إلى أن كان يوم لم يجد أحد المزارعين الثمن في "الزّنبيل"، فصاح "دخلنا الأربش" أي حلّ بيننا الأجنبيّ عنّا، وأفسد علينا حالنا، فأرسلها مثلا[1]. وإذا كانت هذه العادة تدلّ على درجة الثّقة والأمانة في المجتمع الأندلسي في تستور فإنّ هذا المثل يدلّ على افتقادهما الآن عندما كثر عدد السكّان واختلط العنصر الأندلسي بالعناصر المجاورة كأولاد مناع الذين أغاروا سنة 1173هـ /1760م على قافلة تجاريّة عظيمة قادمة من قسنطينة في اتّجاه تونس[2] وكذلك الوسالتية الذين فرّقهم علي باشا الثاني سنة 1175هـ/ 1762م فسكنوا القيروان وقراها وزغوان وقرى الساحل وتستور وغيرها من البلاد[3].

7) « ذكرى في قلبها غنّاية »

الذكرى : القصيدة الصوفيّة.

يقال لمن يجمع بين متناقضين في وقت واحد، ويحقّق غايتين بوسيلة واحدة.

8) « الصّبيّة في وسخها كالزّرّة في وذحها »

الصّبيّة : العذراء.

---

(1) محمد جهين : شذرات وطرائف عن تستور.- مجلّة تستور، ع2 س 1969.

(2) حمودة بن محمّد بن عبد العزيز : الكتاب الباشي.- تحـ. محمّد ماضور، تونس 1970ج 1 ص 67.

(3) المرجع السابق : ج1، ص 342-343.

الزّرّة في وذحها : صوف الغنم قبل غسلها.

يقال افتخارا بالفتاة المحتشمة التي لا تتجمّل إلاّ ليلة زفافها، فيشعّ جمالها على زوجها خيرا وبركة.

9) « قفيز مشايخ على ويبة رعيّة »

قفيز : مكيال يستعمل خاصّة في الحبوب، ويساوي 10 ويبات.

يقال إذا كثر المسؤولون وضاع أمر الرعيّة بينهم بسبب اختلافهم في الرأي.

يقابله في تونس : من كثرة الريّاس غرق المركب (أو غرقت السّفينة).

10) « إلّي يهنّي يهنّي روحه و اللّي يحيّر يحيّر روحه »

يروى أنّ إمرأة حاولت أن تسحر زوجها بتميمة ففشلت خطّتها، وأخذ زوجها التميمة إلى القاضي مشتكيا، فلمّا فتحها، بحضور المؤدّب المتّهم بكتابتها، وجد المثل المذكور فبرّأه. يقال لمن أراد أن يسيء إلى غيره فعادت الإساءة عليه.

11) « المالوف الأندلسي في الجدّ والهلس »

ومعناه أن نوبة المالوف ذات معنيين، فيمكن فهمها على أنّها مدح للرّسول (ص) أو تغزّل بالحبيبة.

12) « منه بكاء على الأخيّة، منه غناء بالطّرودي »

الأخيّة : تصغير الأخت.

الطّرودي : وزن من أوزان الشّعر الشّعبي الغنائي ذو نغم حزين.

يقال لمن يحقّق غايتين بوسيلة واحدة.

13) « نوّاحة الزّوارين : بكّوها بويبة سكّتوها بقفيز »

الزّوارين : قبيلة بجهة الدهماني.

يروى أنّ إمرأة استقدمها أهل ميت للبكاء عليه واستبكاء الناس مقابل القليل من المال. وأشرف المأتم على النهاية دون أن تكفّ عن النّواح إلى أن أعطوها أضعاف ما أخذت من المال في المرّة الأولى. يقال لمن يتجاوز الحدّ. ومثله "كي طبّال هرقلة (أو جربة) كراووه بويبة سكّتوه بقفيز".

14) « وحّلني في قازيق »

القازيق : لفظة تركيّة تعني إحدى أدوات العمل في صناعة "الشّعر" تتداخل فيها الخيوط. معناه وضعني أمام مشكل عويص.

15) « يخيّط في الزّناقي ويفصّل في الحوم »

الزناقي : مفردها زنقة أي زقاق، وهنا بمعنى نهج.

الحوم : مفردها حومة أي حي.

يقال للعاطل عن العمل، المتسكّع في الشّوارع بلا غاية.

16) « تخلى تستور قبل السّلوقيّة بأربعين سنة»

يقال تشاؤما من مستقبل المدينة لكساد سوقها وهجرة أصيليها وخراب مبانيها.

هذه المجموعة من الأمثال لم نجدها – فيما علمنا وتتبّعنا – إلاّ في تستور. ولم يذكر منها الدّكتور الطّاهر الخميري أحدا. كما لم نجد في قائمة الرّواة أحدا من تستور[1] فهي إذا محلّيّة، ويدّعم اعتقادنا هذا احتواؤها على أسماء عائلات وأماكن من تستور، وشيوعها فيها، إلى جانب العديد من الأمثال العامّيّة المشتركة. لذلك يمكننا اعتمادها كوثائق لدراسة الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في هذه المدينة.

فالمثلان الأوّل والعاشر يصوّران تدهور العلاقة الزّوجيّة في صلب بعض العائلات، سببه تصرّف الزوجة. والمثل الثاني يعكس ولع أهل المدينة بتناقل الأخبار ونسج الإشاعات. والمثلان الثالث والخامس عشر يجسّمان الفقر المدقع نتيجة العطالة، بالنسبة إلى بعض الفئات وفي ظروف معيّنة سابقة وينتج عنهما المثل السادس عشر المعبّر عن المستقبل التعيس. ويقابل ذلك المثل الخامس الذي يشعرنا بوجود تفاوت طبقي أساسه شرف النسب والثّراء المتوارث. أمّا المثل الرّابع فيذكّرنا بانتشار الطرق الصّوفيّة في المدينة إلى جانب شيوع مجالس اللّهو والمالوف. هذه الازدواجيّة يبرزها المثل السّابع ونوعا ما المثل الثاني عشر حيث يتقابل الغناء مع البكاء، وبصفة واضحة في المثل الحادي عشر الذي يسجّل أخصّ خصائص المدينة وهي المالوف بوجهيه الغزلي والدّيني، كما بيّنّا. أمّا المثل السّادس فيؤرّخ لأوّل اندماج غير مرغوب فيه بين العنصر الأندلسي وبقيّة العناصر التونسيّة، إذ يحتوي على احتقار لها ممزوج بمركّب تحضّر. والمثل الثامن يثبت إحدى التقاليد المحلّية المندثرة. والمثل التّاسع يرمز إلى رغبة الأهالي في أن يكونوا جميعا مسؤولين على حساب صلاح المجموعة. أمّا المثل الثالث

---

(1) الطاهر الخميري : مختارات من الأمثال العاميّة التونسيّة، تونس 1967.

عشر فيتجاوز حدود الحادثة الضيّقة ليصوّر التّصرّف المبالغ فيه لدى بعض الشخصيّات الشاذّة. والمثل الرّابع عشر يشير إلى انتشار صناعة "الشعر" التقليديّة بالمدينة فازدهارها في فترة طويلة.

ومن حيث الأوزان فإنّ هذه الأمثال تختلف من المثل الموزون ذي القافية الدّاخليّة أحيانا (أرقام : 1 - 2 - 5 - 8 - 10 - 11) إلى المثل الحرّ (أرقام : 3 - 4 - 6 - 7 - 9 - 12 - 13 - 14 - 15 - 16). أمّا اللّغة فعاميّة في الأمثال (1- 3 - 7 - 8 - 9 - 10 - 12 - 13 - 15 - 16) وفصحى في الأمثال (2 - 4 - 11) وعربيّة إسبانيّة في المثلين (5 - 6) وعربيّة تركيّة في المثل (14).

*** الأقاصيص :**

هي متنوّعة الأغراض، ولكنّ أطرفها ما نسجه الخيال لغرض تعليمي على أنّه مناسبة قيلت فيها الأزجال والموشّحات والنّوبات. يحكي أن فتى قد ذاع حبّه لابنة عمّه إلى أن علم به الملك فطلبها رغما عنها. وكلّما حاول إغراءها أظهرت له النفور واللّوعة. فأقام في حديقة القصر مجلس طرب للتّرفيه عنها، فما تبدّل من أحوالها شيء حتّى إذا ناولها كأس الخمر نظرت فيه فرأت وجه حبيبها الذي كان قد تسلّل إلى الحديقة وتسلّق الشّجرة التي اعتادت الجلوس عندها، فخاطبته تلميحا بهذه الأبيات :

واللّه لو أنصف الدّهر	لما فارقتكم أبدا
ولا جالست قوما يعاتبني	لغير جلاّس
ولا شربت لذيذ الخمر من عطش	لمّا رأيت خيالك في الكأس
يا هلالا يا قمرا	يا قضيبا بين الرّيحان والياس
إذا ما قدرتَ تكلّمني	أرسل جوابك طيّ القرطاس
واكتب على جانب الجواب	لا رحم اللّه قلبا يعذّب النّاس

فلمّا فهم الملك ما عبّرت عنه خلّى سبيلها.

*** المدائح الدّينية :**

لقد اتّبع الشعر الشعبي في تستور تيّارين : تيّار اللّهو، وتمثّل في الزجل، وتيّار الورع وتمثّل في المدائح الدينيّة. وقد غذّى التيّار الأوّل احتفالات الزواج ومجالس الطرب التي تعقد بالبساتين في ليالي الصيف، وغذّى التيّار الثاني حلقات الطرق الصوفيّة بالزوايا، وأنشطها العيساويّة والرحمانيّة. ولكنّ بين التيّارين تداخلا، شكلا ومعنى. فالمالوف" جدّ وهلس" كما سبق، ومعاني الغزل في الزجل هي نفسها معاني المديح في القصيدة الصوفيّة، وإنّما الاختلاف بين التيّارين في الإطار العام الذي تأتي فيه هذه القصائد مثل :

1) ياعاشقين بعد الحبيب قد زادني عشقا
2) يا عاشقين بعد الحبيب ما طفاتش النارفي كنيني لهيبها يصهد
3) جيم جار عنّي سلطاني والهجران كواني
4) راني حيران * من شفا أحمد السّلطان * مولى البرهان * جار عنّي حبّه كثير
5) حلفت يمينا لا أحبّ سواكم ولا شاقني إلاّ نسيم هواكم
6) يا الأحباب مصباح الغسائق سيدي أحمد قلبي ليه شايق

فأيّ فرق في العشق بين البيتين الأوّل والثّاني، وأيّ فرق في الجور بين البيتين الثّالث والرّابع، وأيّ فرق في الشّوق بين البيتين الخامس والسّادس إن لم يكن اختلاف المقام والإطار العام بين الأبيات الفرديّة التي تنتسب إلى المالوف وبين الأبيات الزّوجيّة التي تنتمي إلى المدائح الصّوفيّة ؟ وكثيرا ما يجمع منشد هذه الأشعار بين التيّارين، فنتركه اليوم في حلقة صوفيّة مادحا لنجده غدا في فرقة المالوف مترنّما.

والآن انتصر المالوف على مدائح الطّرق، وبقيت هذه المدائح مخطوطة في الكراريس والكنانيش. وكان نصيبي منها كرّاس وكنّش، أعثرتني عليهما الصّدفة. احتوى الأول على 24 قصيدة عامّيّة في مدح شيخ الطّريقة التّجانيّة سيدي أحمد التّجاني في 58 صفحة تتراوح بين 14 و52 بيتا. ويحتوي الثاني على 6 قصائد عامّيّة في مدح الولي الصّالح أحمد بن سالم، تتراوح بين 6 و32 بيتا، وكلّها مجهولة النّاظم وتاريخ النّظم، ولكنّ قيمتها تكمن في أشكالها ومعانيها المتداخلة مع معاني المالوف.

إنّ ما تبقّى من هذه المدائح قليل من كثير، يقيم الدّليل على مدى نجاح الدعاية الصّوفيّة في تستور في فترة الاستعمار وما قبلها، وعلى مدى تأثير الطّرق في مجتمع تعلّق كثيرا بالدّين، وظلّت معرفته بجوهره بسيطة إلى درجة جعلته يقبل كلّ ما يظهر له بمظهر الإسلام، وما أبعده عنه !

وأطرف ممّا سبق تلك القصيدة العاميّة التي جمعها في تستور عبد الرّحمان قيقة، وعنوانها " لا إله إلاّ اللّه ". توجد منها نسخة مرقونة في 12 صفحة وبدون تاريخ في مكتبة معهد الآداب العربيّة التّابع للآباء البيض بتونس. وهي مجهولة النّاظم، وتضمّ 87 بيتا، وكلّها أدعية وتوسّلات، ولكنّ أهمّيتها في شكلها الفنّي، إذ قسّمت إلى 29 وحدة تحتوي كلّ منها على 3 أبيات، ويبدأ البيت الأوّل من كلّ وحدة بحرف من حروف الهجاء العربيّة حسب التّرتيب. فكأنّها "معارضة" -بالشّكل، لا باللّحن- لناعورة الطبوع المشهورة :

ألـــف يـــا سلـطـــانـي والـهـجـران كـوانـــي

بل لعلّها ردّ فعل تيّار الورع على تيّار اللّهو. وهي تبدأ بقول النّاظم :

أحسن ما ينطق لساني بـــلا إلـــه إلاّ اللّـــه
بها تتقوّى إيماني ذكر الجلالة ما أحلاه
واحد لاغيرش ثاني لا إله إلاّ الـلّـــــــه

* * *

الباء بادي باسم العربي ذكره في أغصان قلبي
مدحي وهنايا وطربي وقوتي لقلبي غذاه
عشقي وشفايا وطبّي لا إله إلاّ الـلّـــــــه

* * *

التاء تزرعت في الأعضاء وفي رياض القلب ثبتت
بها رجال الشوق جدبت طلبوا من المولى رضاه
قوّم لي لساني وثبّت بـــلا إله إلاّ الـلّـــه

* * *

الثاء ثمرة تروي شوب ليثي وقت الشدّة تكون غيثي
ننجى من فعل الخبيث ندخل بحر عفو اللّه

أحسن قولي وحديثي لا إله إلاّ اللّـــــــه

* * *

الجيم جدلي منك العفو نرجى والحسيني من النور بهجة
وقت النزع نحب فرجة غزلي سالك في مسداه
قوّم لساني بحجّة بلا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الحاء حسني وكنزي وفرحي متني وأنوار شرحي
ووردي منها سبب ربحي وحرزي من عذاب اللّـــه
أحسن في الأقوال مدحي لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الخاء خالص طهّر لي أوساخي اثيقتي مانيش راخي
خاشع بين النّاس ساخي يا سامع قولي أسخاه
ماخذ ورد على أشياخي لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الدّال دعاه ديما مجدّد وحيّها في القلب عربد
يا سعد من بها توحّد ويختم برسول اللّه
كلّ من قايلها يسعد لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الذّال ذكرها في القلب لذّة ترنّح وبها تغذّى
إذا ذكرت اللّه تحظى إبليس يذهب لا تراه
ووقت خروج الروح لذّة لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الرّاء حمله بها استبشر عليه علم النور ينشر
والأسرار عليه تظهر جلّ الجلالة وعطاه
أنا بلسان الحال نذكر لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الزاي زهوي وعزّي وكنزي بها الحسنات تغزي

هـــي من الشّيطان حرزي ننجى من محنـــة هـــواه
يذهـب عنّي يصير مرزي بـــــلا إله إلاّ الـــلّـــــه

* * *

السّين سخّر يا ربّي لساسي واجعـل التّقوى لبـاسي
وفي الجنّة ثبّت غراســي بـجـــاه رســـول اللّـه
سـاسي سليمان موش نـاسي لا إله إلاّ الـــلّـــــه

* * *

الشّين شوقي لذكـر اللّه ناشي وشـهدي ولـذّة معـاشي
حصني ووردي في فـراشي كلمـــة تـوحيـــد الإلـه
لـيس بـهـا نشوف غـاشـي لا إله إلاّ الـــلّـــــه

* * *

الصّاد صورتي بـها مربّـص نطليهـا من الذّهب تخلّص
وبـها لبحر العفـو نغطس نـدخـل فـي رحـمة اللّـه
ارجـع يـا نـفسـي تـربّـص بـــلا إله إلاّ الـــلّـــــه

* * *

الضّاد ضمنت لمن بها تلفّـظ ومـن عـذاب النّار يحفـظ
واللّـي فعـلت لك يـعـرض فـي قـبـرك لازم تـــراه
ارجـعي يـا نـفسي تـوعّـظ بـــلا إله إلاّ الـــلّـــــه

* * *

الطـاء طبّي ذكر اللّه نشـاطي وطهري من سايـر أغلاطي
نـطـلب من الـمعبود عاطي الـمـــولى جـلّ ثـنـــاه
يـغفـر لـي ضـيـق واطـــي بـــلا إلـه إلاّ الـلّـــــه

* * *

الظّاء ضـوّي ومصباح لحظي ثمـرة إيمـانـي وحظّـي
بـهـا قـلبـي صـار مـحظـي تـنـوّر ويـشـرق ضيـاه
إن شـاء اللّه بها ننال غرضـي لا إلـه إلاّ الـــلّـــــه

* * *

العين عوّل من الذّكر واخشع واذكر ربّ ليه وارجع
واسجد لمولاك واركع سرّ وجهر ما يخفاه
واستغي الألفاظ واسمع لا إله إلاّ اللّـــــه

* * *

الغين غرضي وغاية بلاغي حصاني ورمحي لكلّ طاغي
والع بها القلب زاغي ممن لا نشرك باللّه
يا ربّي عمّر فراغي بلا إله إلاّ اللّـــه

* * *

الفاء من يذكر بيها تشرّف وعن جميع الذكر أشرف
يا سعد من بيها تعرف ويختم برسول اللّه
منهج طريق التصوّف لا إله إلاّ اللّـــه

* * *

القاف قابلها بلسان مطلق يقيني بيها محقّق
بالوحدانيّة مصدّق واقف عن حدود اللّه
عليّ الأنوار تشرق بلا إله إلاّ اللّـــه

* * *

الكاف كلمة من قايلها يسلك وافادي بها تملّك
يا ربّي نا دخيل فضلك عبد لا تقطع رجاه
اكسيني ثياب سرّك لا إله إلاّ اللّـــه

* * *

اللاّم لاحت الأنوار تشعل علّي يذكر يتغزّل
في ذكر الجلالة هلّل رافع صوته وعلاّه
اذكر ربّي لا تستغفل لا إله إلاّ اللّـــه

* * *

اللاّم لطيف وخبير وعادل مبدي محصي وشامل
متنزّه الخلق جامل سرمد نعم الإله
لا له شبيه ولا مماثل لا إله إلاّ اللّـــه

* * *

الميم من يذكر بها ترنّم يمحي الذّنب الّي تعدّم
يربح ويسعد ويغنم يمسي في أمان اللّه
معتقد قلبي مصمّم بلا إله إلاّ اللّه

* * *

النّون نورها نوّر جفوني وخمرها رنّح غصوني
وذكرها هيّج فنوني خذاني الشّوق شنوّه دواه
نذكر تتحيّر سكوني بلا إله إلاّ اللّه

* * *

الهاء هلّل يا غافل وساهي واشتغل بذكر اللّه
وقول الحمد للّه نحب الحمد للّه
والع بها القلب زاهي لا إله إلاّ اللّه

* * *

الواو هي لذّة الشّهاوي اذكرها بالقلب راوي
واترك الدّنيا هواوي تفنى ويبقى وجه اللّه
قادر وقاهر وقاوي لا إله إلاّ اللّه

* * *

الياء يا ربّي تقبّل دعاي بجاه خير البرايا
من النّار تنجّي أعضاي بجاه رسول اللّه
نختم بحروف الهجاية لا إله إلاّ اللّه

وإنّي محتفظ بتسجيل لحنها عن أبي علي، رحمه اللّه (ت 1986/1/31).

– **قصيدة توسّليّة :**

الحمد للّه فضله علينا ويغفر اللّه للصائمين
الحمد للّه عوني وحسبي غفّار يغفر جميع ذنبي
بجاه طه نبينا العربي من جاء رحمة للعالمين
ربّي بجاه طه الأوّاب الهادي للحقّ والصّواب

وآلـــه وجملـة الأحبـاب ... والـخلـفـاء الـراشـديـن
بـجـاه من جاءنـا بـالآيـات ... الهاشمي صاحب المعجزات
ثبّت لسـاني عنـد المـمات ... وارحمنـا يـا أرحم الرّاحميـن
ثـمّ الصـلاة مـع السـلام ... على نبيّنـا طـول الـدوام
وآلـــه ســـادة كـــرام ... والأوليـــاء والصّـالحيـن
ربّي بجاه صاحب المعراج ... والشّـامة والقضيب والتّاج
ببنتـه فـاطمـة والأزواج ... الطّاهـرات والمطهّـريـن
أجب دعـانـا أنـت المـجيب ... واسمـع نـدانـا أنـت القريـب
كـل من دعـاك ليس يخيب ... فـلا تـردّنـا خـائـبيـن
ربّـي بجاه شـهـر الصّيام ... وفضلـه لأمّـة الإسـلام
تـوفّنـا على حسن الختام ... نـحن ببابـك واقفيـن
ربّي بجـاه طـه الرّسـول ... صادق مصدّق في كلّ قـول
وآلـه ســادة عـدول ... وبـالأمـلاك المـقرّبيـن
ثبّت لسـاني عنـد انتقالي ... أنطـق بالقول عند السّؤال
فـاغفـر ذنوبي يـا ذا الجلال ... واستر عيوبي أنت ولينـا
ربّي بجـاه خيـر العبـاد ... شفيع الأمّـة يـوم التـنـاد
جـدلي بتـوبـة أنت الجـوّاد ... بجـاه طـه وسورة ياسيـن
بجـاه طـه ومـن قـراهـا ... والأنبـيـاء ومن تـلاهـا
بجـاه الكعبـة ومن بنـاهـا ... والطـائفيـن والعاكفيـن
يـا حـادي العيس عليّ مـهـلا ... لأنّ قلبـي بالحبّ ممـلا
قصدي في البيت أراها تجلى ... في ثوبها باهية جميـلا
يـا خالـق الخلـق أقل عثاري ... لأنّ شيبـي كسـى عـذاري
والليـل يرجـع عندي نهاري ... وما بقـى لي سوى الرحيلا
الحمـد لله مولى العطـايـا ... ويغفـر الذنوب والخطايا
سبـحـانـه مولـى المزايا ... ربّ الخـلائـق أجمعيـن
يـا حادي العيس أمهل قليلا ... لمغـرم في الهوى قتيـلا
بجـاه النبيّ مولى الفضيلة ... هو المشفّع في الخلق أجمعين

تصبح بعرفة جبل مبارك ... في قبة آدم يطلع نهارك
وقل يا خلّي أرم جمارك ... يا سيّدي واقبل الوسيلا
في عرفات أنزع ذنوبي ... أطلب من المولى يستر عيوبي
أنزل مع الركب قبل الغروب ... إلى مزدلفة مع الرحيلا
وفي منى تنزل الركائب ... ويجتمع سائق النجائب
شامي ومصري ترى العجائب ... وكلهم يقبلوا الوسيلا
يا ربّ سألتك لا تخيّب جاهي ... أنت مولانا أنت الإله
طالب زيارة للرسول الباهي ... قبل حلول الأجل بنا
ربّي تقبّل ما تلوناه ... بجاه الحرم ومن بناه
بجاه كلامك ومن تلاه ... بكلّ حرف وآية مبينا

* قصيدة محمّديّة :

عليك يا أشرف الأنام ... أزكى صلاة مع السلام
عليك يا أشرف العباد ... شفيع الأمّة يوم التّناد
صلّى عليك ربّ جوّاد ... في كلّ حين على الدّوام
عليك يا صاحب القضيب ... أزكى صلاة من المجيب
لقد ركبت على النّجيب ... بلغت إلى أشرف مقام
رقيت لأعلى الدّرجات ... وقد أتيت بالمعجزات
وبالآيات المبيّنات ... صلّيت في الرّكن والمقام
وقد صلّيت بالأنبياء ... من غير شكّ ولا مراء
وقد رقيت إلى السّماء ... قد سرت في حندس الظّلام
ربّي أعطاك الفضل الكبير ... أنت البشير أنت النّذير
أنت السراج أنت المنير ... أنت المظلّل بالغمام
حبّك تمادى ساكن في قلبي ... والبعد زاد بيَ نحيبي
والشوق كادني يا طبيبي ... اعطف وأبرني من سقام
عندك دوانا يا رسول الله ... يا من دعانا بخير ملّة
ربّي سبحانه كساه حلّة ... به سكنانا دار السّلام

يا مصطفى زادني غرامك ... اسقني من خمرة مدامك
طالب من اللّه أزور مقامك ... يقظة وأيضا في المنام
اسقني من خمرتك يا ساقي ... يا من علوت على البراق
حتّى دنوت السبع الطباق ... وفزت بالخير والمرام

*** قصيدة أخرى :**

قد أشرق البدر المنير ... بمولد الهادي البشير
أهلا وسهلا بالإمام ... المصطفى بدر التمام
شفيعنا يوم الزحام ... أرسله الربّ القدير
بشرى لنا نلنا المرام ... جعله معتلى المقام
شرّفه ربّ الأنام ... فلم يكن له نظير
يا ذا الجلال يا مجيب ... عبد دعاك لا يخيب
بحرمة النبي الحبيب ... يسّر لنا الأمر العسير
أدعوك يا ربّ الأنام ... أمتنا عن حسن الختام
وأسكنّا دار السلام ... لباسنا فيها حرير
أجب دعائي يا أحد ... واسمع ندائي يا صمد
يا دائما على الأبد ... أنت المهيمن الخبير
أهدي التحيّة والسلام ... المجتبى خير الأنام
والآل والصحب الكرام ... ما أمطر القطر الغزير

*** مدحة سيّدنا علي : مسجّلة عن فاطمة بنت أحمد الجزيري (ت 1992/8/9)**

اللّه ولا إله إلاّ اللّه ... وآش خلاف اللّه يذكار
زيدوا صلّوا على محمد ... كلّ عشيّة وكلّ نهار
سيدي عبد اللّه بن جعفر ... طير مظفّر ليس قبله صيّاد
عرضته سرحان الكفرة ... حوّسهم وبدا غوّار
يا اللّه العرك ركح وتنشّر ... عاد العرك خطار خطار
ثاني يوم ركح وتنشّر ... داروا فيهم سبعة أدوار

رابـع يـوم ركـح وتنشّـر غُلـب علـى السادات جهار
وهبـط لـه جبريـل بكلّه مـن عنـد العـالي الأقـدار
قـال لـه محمـد بـن طـالب وأنـت تطلـب علـى الأحضـار
راك على إسمك جيش النُّصرة يثنيهـم لك في مشـوار
قال له خبّرني يا علي ابن عمّي ابـن طـالـب شـايـد الأخبـار
قال له عيّط الثاني صوت الثالث صوت تـوّا يـجـي عندك حضّار
وعليّـة راقـد في فـرشـه نـق عليـه الصوت وصـار
تـدخّل لـه زيـنـة الخُلّـب هبطـت دموعه على الأشفار
قـالـت لـه يا علي ابن خويـا واش بـه راسـك فـي يدي دار
قال لها في وذني عمّي رسول اللّه مضُنّـي ضـامـوه الكفّـار
قـالـت لـه يا علي ابن خـويا لا وارقـد بـركـا واطمـان
هذيـكـا مضُنّي وذنك خطفـت وإلاّ راسـك فـي يـدي دار
قـال لهـا يـا العمّـة حنّـا واللّه لاهـي وذني خطفـت

ولا أنا شارب من الأخمار

فـي وذنـي عمّي رسول اللّه مْضنّـي ضـامـوه الكفّار
قـال لهـا يـا العمّـة حنّا لوحي جـوادي علـى الأهجار

وسيف القدرة علّي سوار

ركـب على السرحان وقبّـل عـاد يطيـر مثـل غـزال
مسيـر خمسمـائـة سنـة طـواهـم عليّة في مشـوار
كـي خلـط لـدوّار قريـش صياحـاتهـم مـن دار لـدار
كـي عـرفـوه علي بن طالب وزغـاريـط على الألسـان
عـرضـت لـه فاطمة الـزهراء في كسـاوي وعليهـا خمار
عـرضـت لـه فاطمة الزهراء والحسن والحسين صغـار
قـالـت لـه يا علي ابن عمّي هكّـا ضـامـونـا الكفّـار
مـن بعد الغلاء والـحـرمـة عـدنـا رعيّـة للكـفّـار
قـال لهـا أنـا حالـف بيميني لا نخلّـي منهـم طيّـار
وعقـد برينيسـه وقبّـل قتّـل سبعـة أمحال كبـار

ثـــانـــي يـــوم ركـــب وحـدّر قتّـــل عشـرة أمحـــال كبـار
ما خلّـى كـــان اللّي شاخـــت وإلاّ اللّـــــي قطـــع البحـــار
قـــال نـايـا حـالـف بيمـيـني والـدمّ للرّكـــبـة يحمـــــار
وإذا مـا إزّيـتش مـن الكفـــرة نـزيـد نـكمّـل مـن الإسـلام
بـعـزازتـنـــا عنـد المـولـى لا نـخـلّـي لا دجـاج لا حمام
قال له عـفّ يا علي ابن عمّي هـذا يـمـيـنـك على الكفّـار

* **الغزالة (مسجّلة عن فاطمة الجزيري) :**

صلّـــوا على محمّد يا ناس الحاضرين الأمّـــة عليك تسنّد يا تاج المرسلين
هـــذا النـبـيّ المكرّم من قدره العظيم الشاة نطقت لنـــا وتكلّـــم البـعير
هـذي الغـزالـة جـات لمحمّـد تـسير قالت له يامحمّد سيدي ياضوء الجبين
قالت له يا محمّد سيدي وليداتي صغار راهم يستنّوا فيّ علـى طـول النهار
نمشي نرضّعهم ياسيدي نجلّي ها الغيار تكن لي يامحمّد سيدي لصيّادي ضمين
قـال له مـحـمـد سـيـدي خـذ ضمـانـتـي هذي الغزالة حقّك صبتها في حرمتي
اليوم في فضل الكريم تـظـهـر بركتي حتّى ترضّع وليداتها المعطـشـيـــن
قال له الـذمّي ناي قـبـلـت ضمـانـتـك هذي الغزالة حقّي صبتها في حرمتك
سلّـم مـحمّـد سـيـدي الغـزالـة لحالـها استبشرت المسكينة فارحة لأوكارها
لـيـن بـلـغـت ووصلـت لوسـط مكـانـها أصابت وليداتها على الجملة حاضرين
قـــالـــوا لـهـا يـا أمّـة حنّا واش الّي أبطأك علينا واحنـــــا مـعـطـشـين
قالت لهم يا وليداتي لو كانكم تسمعوا هذي البزازل ياأولادي وأنتم ارضعوا
على قدّ ماترضعوا ياأولادي اجروا لي وودّعوا طاح بي صيّاد اليوم وحصّلني حصول
هـربـت للنّبيّ محمد وأصحـاب الرســول حتّى نرضّعكم ياأولادي ونرجع لدواوين
قالوا لها يا أمّة حنّا ماتكثّري بكـــلام هذا الّي رضعناه من حليبك حـرام
برّي فكّي ضمانة مصبـاح الـظـــلام باش نبدوا في هذه الضمانة من المصدّقين
استسلم الصيّاد وطـاح على الحجر كيف شاف الغزالة جات ونطقت بالخبر
قال له يا هاشمي محمد يا سمح البشر تنجّينا من صهد النّار يا شفيع المسلمين

الدّنيا تبقى لربّي والجنّة للمؤمنين

* **مدوّنة العيساويّة** (عن عمر قصد الله شهر حمّادي ابكّر المانسي) :

* بروز عيساويّة في مقام السيكاه :

هيّا نزوروا شيخنا يا فقراء — والشيخ ابن عيسى نشوفه نبرا
هيّا نزوروا شيخنا جمليّة — يا شوّاش لمّوا العيساويّة
والملقى في الزّاوية القبليّة — عند التماسي ندخلوا للحضرة
هيّا نزوروا شيخنا وأركانه — والشّيخ ابن عيسى يكون معانا
باللّه يا سلطان ما تنسانا — ويسهّل اللّه نعزموا على بكرة
ويسهّل اللّه الكريم تعالى — في أبي الحسن في الصّبح نعطوا دالة
سيدي بو يحيى يكون لنا قبالة — مولى الهمّة والحرم والوهرة
ويسهّل اللّه الكريم الباري — ونصبّحوا في زاوية سيدي الحاري
من باردو ناخذ طريق يساري — سيدي علي الحطّاب مولى الوهرة
يا من قلبه للزيارة خالص — مولى مجاز الباب سيدي الرّايس
هو وليّ منسوب سرّه خالص — منسوب ظاهر من الرّجال الكُبْرا
يا من باغي حاجته يقضيها — تستور ياسيدي نروّح لها
سيدي علي العريان ساكن فيها — مولى الهمّة والحرم والوهرة
يا من قلبه للزّيارة شوّق — من تستور نروّحوا لتبرسق
فيها وليّ في حومته نتدرّق — عبد الباسط من الرجال الكبرا
يا من قلبه للزّيارة فارح — للكاف نتعدّوا لكلّ ضحايح
ونزوروا سيدي علي بن صالح — مولى الهمّة والحرم والوهرة
يا قاصدين أهل الطريقة الزينة — من الكاف نتعدّوا لقسنطينة
سيدي عمر ثمّة قبل علينا — ابن يوسف مولى الحرم والوهرة
نشقّوا الجزائر ندخلوا بالعادة — والثعالبي سلطان عُرض بلاده
اللّي أحبّه الشّيخ واللّي أراده — يا ما هزم في البحر جيش الكفرة
من فاس لغادي نغنموا بركتنا — ونزوروا تراب أسيادنا وإخوتنا
ونشوفوا سرّ الشّيخ في حضرتنا — في الزاوية ثمّة تكون الحضرة
في الزاوية ثمّة الطبيب ينادي — ابن عيسى ويقول ويني أولادي

اللّي حضر اليوم في ميعادي ... يتخمّر ويذوق كأس الخمرة
يتخمّر ويذوق خمرة سيده ... ابن عيسى يحضر مع مريده
اللّي أحبّه الشّيخ يأخذ بيده ... ويفكّنا في الضّيق يوم الغصرة
ويفكّنا في الضّيق يحضر لنا ... ابن عيسى من خمرته يسقينا
بجاه الكعبة والرّسول نبينا ... محمد مولى الشّفاعة الكبرى.
محمد مولى الشّفاعة الهادي ... صلّى اللّه عليه سيّد أسيادي
ثمّ الرّضى على الصّحابة أسيادي ... الخلفاء أصحاب سمح البشرة
ختمت النظام وانتمّ في معنايا ... على الشيخ ابن عيسى يكون معايا
إسمي عمر مشهور أقمت الرّاية ... جدّي النبيّ المختار أبو الزّهراء

* برول آخر في نفس المقام :

كيف نعمل يا ربّ من فراق الأحباب ... بعّدوا بالرّحلة وانقطعت الزيارة
لا رسيل جاني من عندهم بكتاب ... كلّ ما يتمنّى نعطيه البشارة
لاش يامحبوبي بدّلتني بغيري ... يا قليل النيّة وجفيت يا الغدّار
كان قلبك حجرة دره على جمارة ... والحجر عند النّاس يطيّبوه بالنّار
ما يداوي عيب المهبول في هباله ... كان صاحب صادق وإلاّ فقير خمّار
والفقير الصّادق يعذر في أحواله ... يعذروه الفقراء والصّادقين في الحال

* برول آخر في نفس المقام :

يريّح من زارنا بنيّة ... وينال السرّ والعناية بين النّاس
أنا شيخي رضى عليّ ... وكساني من رضاه حلّة خير لباس
شيلُه يا صاحب المزيّة ... يا كنزي يا عنايتي مولى مكناس
يا ربّ عطّفه عليّ
يا ابن عيسى دخيل فضلك ... أنت هو السّلطان واحمني بحماك
فصل أناديك احضر لولدك ... أنت بحر الكمال داوني بدواك
ظاهر بين العباد سرّك ... نقمة للحسّاد صرخة من ناداك
أعداي بغوا عليّ ... بنوا لي بنية وبنيتهم من غير أساس

أنغـر نغـرة هـاشمـيّـــة بـدّل بين العباد فضّتهم بنحاس
ليـــس ينـالـوا مرادهم فيّ يا كنزي يا عنايتي مولـى مكناس
يا ربّ عطّفه عليّ

يـا بابـا شوف مـا جرى لي أنـت المشـهـور بـالـكـمـال
جـــاروا عنّـي الأعـداء خـلّـــوني محـتـــار
أنـت المـشهـــور بالكمال مـن عـادانـا تـذوّقـه الأمـــرار
يمـسـي مهـلـوك صفـر خالي لا يـهـنـالـه منام متقلّق محتار
بـالـهـادي خيـر البريّـة بعمامة الطّاهرين حمزة والعبّاس
ليـــس ينـالـوا مـراد فـيّ يا كنزي يا عنايتي مولى مكناس
يا ربّ عطّفه عليّ

* برول عيساويّة في مقام راست الذّيل :

يـا فـرحتـي يـا هناي وأنـا بـلـغت مـرادي
ابن عيسى قطـب الزّوايا شيخـي عليـه أنـادي
يافقراء اصغوا لي جملة قـولـي لكـم للـرّشـاد
صفّوا القلوب الخفيّة وعظّموا الاعتقاد
يسقيكم خمرة نقيّة من بحره يا أسيادي
شربوها أهل الحقيقة سهروا وباعوا الرقاد
إن كنت تسأل عليّ واللّه بروحي فادي
يارب وارحم لي شيخي ابن عيسى سيدي محمد
اهدني واسبل عليّ سترا جميلا مؤبّد
ارحمني ووالديّ وارحم لي عبدك أحمد

* برول عيساويّة :

اللّه اللّه اللّه اللّه على السّلامة بعد الغيبة
يا مرحبا بكم جمليّة من فاس بعث الشّيخ جوابه
وقال هاتوا لي من يقراها يا مرحبا بكم أصحابه

* برول آخر :

اللّـهـمّ صـلّ عـلـيـه ... عـلـى محمّـد الكريم
أنـا واللّـه العـظـيـم ... يـا نـبـيّ حبّـه لـهـيب
انـحـبـسـنـا بـالـنـبـيّ ... يـا حبيـب اللّي أحـبّـه
مـحـمـد شـفـيـع البرايا
ارسـلـت مـولـى المـوالي ... رحـمـة للعـالمـيـن
يـا إلـهـي بالمـشـفّـع ... صاحـب القـدر المرفّع
لا تخيّـب يـا إلـهـي ... كـلّ من حضـر ويسمع

*** مدحة عيساويّة :**

اللّـه اللّـه اللّـه اللّـه ... اللّـهـمّ صـلّ عـلـيـه
أقبـل البـدر علـينـا ... مـن ثنـيّـات الـوداع
وجـب الشّـكـر علـينـا ... مـا دعـا للّـه داع
أيّـهـا المـبعـوث فـينـا ... جئت بـالأمـر المطـاع
وأتـانـا بك غيـث ... حـلّ فـي كـلّ البقـاع
أنـت شمس أنت بـدر ... أنـت نـور فـوق نـور
أنت واللّـه يـا محمّـد ... أنت مفتـاح الصّـدور
زخـرفـت جنّات عدن ... أعـدّت للمتّقيـن
قـال ربّ فـادخـلـوها ... بسـلام آمنيـن
يـا إلـهـي بالمـشـفّع ... صاحـب القـدر المرفّع
لا تخيّـب يـا إلـهـي ... كلّ من حضـر ويسمع

* مدحة عيساويّة في مقام الأصبعين :

يـا أهل الطـريقـة الزّينـة ... مـن عنـد سيّـدنـا جينـاكـم
مـن عنـد سيّـدنـا جينـاكم ... بـالقـلـب والضّمـيـر معـاكـم
يـا لـو نـمـوت لا ننسـاكم ... أنتم ساداتنـا يا مجمع الأخيـار
جيتك دخيل يـا ابـن عيسى ... مـن ينـده لـك كُـن ونيسـه

تقضي لـه حاجتـه وتريّسـه ... أنت مغيثنا في مضيق الأوعـار
الحبّ فـي قلبـي حاكـم ... زيّـار واقبلـوا مـن جاكـم
ومـريّـض عجّـلـوا بـدواكـم ... أنتـم ساداتنـا يا مجمع الأخيـار
يـا سعد من يدخل حضرتنا ... ويشـرب من كـؤوس خمرتنـا
ينـال مـن جنـي بركتنـا ... بركة ساداتنا لا يُعرض على النّار
يـا سـادتـي دخيل عليكم ... اللّـوم والعـدد عليكـم
القلـب والعقـل باغيكـم ... أنتم ساداتنـا يا مجمـع الأخيار
أذكـاره ينصغـى لـه السامع ... والنّـور فـي ضـريحـه لامـع
باللّه غيثنـا يـا طـايـع ... أنت مغيثنا في مضيـق الأوعـار
الـوجـد والغـرام دعاني ... والنّـار لاهبـة فـي كنـانـي
والجسـم من هـواكـم فاني ... أنتـم ساداتنـا يا مجمع الأخيار
داب نـرحلـوا يـا فقـراء ... بـالـوجـد نـدخلوا للحضـرة
من كاسه نشربوا من خمره ... من يد شيخنا ابن عيسى الخمّـار
صلّـوا عليـه يا الإخـوان ... علـى النّبـيّ الهـادي العدناني
وارضوا على العشرة الأعيان ... وأهـل التّـقـى والأنـصـار

* **مدوّنـة السلاميّـة** [1]:

* مدحة سلاميّة :

صلّـى عليك اللّه يا نبينـا ... يـا خيـر خلـق اللّه اشفع فينا
يـا معـلّـى ... عـلاّك الإلـه عـزّ وجـلّ
طـه نبينا الهاشمي زين الملّـة ... يـوم اللّقـاء بشفـاعتـه ينجّينا
زرت بنيّـة ... والخـدّ للتّـابـوت في عشويّة
خلّوا دموع العين على خدّيّا ... والقلـب تشـوّق لـك يـا نبينـا
يا محمّـد ... يـاخيـر خلـق اللّـه يـا ممجّد

---

(1) انظر : فتحي زغندة : الطريقة السلامية في تونس / أشعارها وألحانها. - بيت الحكمة، تونس 1991.

راهي أمّتك في العاشر ثمّة تسعد اسرع لي يا مختار يا أبا الزّهراء

* مدحة سلاميّة أخرى :

يا كعبة يا بيت ربّ ما أبهاك اللّه يسعد كلّ من أتاك
صلّوا على الهادي سيّد العباد يا سلام ويا سلام وهذا مرادي
صلّى اللّه على الهادي مولاك
ونزور نبينا المشفّع فينا يا سلام ويا سلام وهذا ينجّينا
سبحان ربّي علاّك
نمشي له توّا ونخشّ الصوّة يا سلام ويا سلام وهذاك هو
صلّى اللّه على الهادي مولاك
نمشي له صغير على البغلة نسير يا سلام ويا سلام ونروى من البير
صلّى اللّه على النبيّ اللّي بناك
إن شاء اللّه نزورها ونشمّ بخورها يا سلام ويا سلام ونشعشع نورها
صلّى اللّه على النبيّ اللّي بناك

* مدحة سلامية أخرى :

يا أهل الشّمايل شيلوني ننظر لمحمّد بعيوني
ما أبطاكم حنّوا على اللّي ناداكم
طالب على اللّه رضاكم عند المضائف شيلوني
يا الأحباب حنّوا عليّ يا الأحباب
راقد والنّوم ما عنده أسباب ونشاهد الروضة بعيوني
يا سادة ثمّا شي عندكم نشّادة
نبكي ودموعي دفّاقة والدّمع جرّح جفوني
يا الهادي يا ربّ بلّغ مرادي
وارحم جميع العباد لهاك المقابر شيلوني

* مدحة أخرى :

اللّه دايم ربّي عوني وحسبي مالي سواه

* مدحة أخرى :

بحـــرمتـــك يـا مـحمد نـجـاور البيـت ونـسعـد

* المولديّة :

انـزاد الـنبي وفرحنا بـه صلّـــى اللـــه عليـــه

يا عاشقين رســول اللـه صـلّـــــوا عليـــه

* مدحـة رحمانيّـة :

صلّ يا رحماني على صاحب الحق والفرقان

خير البريّة مفتاح الجنان خاتم الأنبياء

* **مدوّنـــة القـادريّـة** (عن المرحوم إبراهيم بن محمد بـن العرابـي الشّـريف) (1908/9/10 - 1993/1/12)[1] :

- الـحمـد للّه لـقد زال العنـاء وحلّت القلب بشائر الهنـاء
- يـا هـلالا هلّ في وادي قُبـا نـــوره عـــمّ الـــرّبـــى
- يـا قاصد الحجّ ليلة النجامة طريق السلامة سلّم على الهاشمي والمقامة
- جيـلاني واعـطـف عـلـــيّ يـا مـولى الرّتـبة العليّـة
- يـا راحلين إلى منـى بالـــزّاد هيّجتم يوم الرحيـل فـؤادي
- لعبد الرحمان البُرعي :

يـا سائـق نحـو المدينة مغرمـا قف بالطّلول وقف هناك ونادي

- لإبراهيم الرياحي[2] :

على باب خير الخلق أوقفني قصدي لـعلمي بأنّ المصطفى واسع الرّفـد

- مرحبا بك يا محمّد
- سـعـــد الـلّـي حـــجّ وزار قـبـر الـنبـيّ المخـتـــار
- بـدأنا بـاسم الله وبصلاة اللّه على رسول الله وآله الأبرار

---

(1) انظر : محمد المنلاّ التونسي الحنفي : مجموع القادريّة.

(2) تعطير 60/2، الديوان المحقّق 37-38.

محمد يا نبينا يا إمام المرسلين كن شفيعي يا تهامي يا ختام المرسلين

- صلّوا على المختار وآله الأخيار

- سلامي على من أخذوا روحي ولم أدر وعذّبوا قلبي بالصبابة والهجر

- زدني بفرط الحبّ فيك تحيّرا وارحم حشى بلظى هواك تسعّرا

- لأبي فراس الحمداني :

أراك عصيّ الدّمع شيمتك الصّبر أمّا للهوى نهي عليك ولا أمر

- الزم باب ربّك واترك كلّ دور واسأله السلامة من دار الفتور

- دزّي ولدك يعزم قدّانا يسير يا فاطمة أمّ الخير

- يا رسول اللّه إنّي بك عبد مستجير لم يخب واللّه ظنّي فيك يا نعم النصير

- باب اللّه مفتوح اللّي يحب يشوف أنواره

عمره ما يروح يستبشر وتفوح أسراره

- يا هل ترى يا ربّ نوصلهاشي هاك الثنيّة والعلل تبراشي

- نادي على ابن الدرعيّة يلفالي وما يبطاشي

نا وحشه جار عليّ حبّه ساكن وسط الجاش

- أقبل البدر علينا من ثنيّات الوداع

وجب الشّكر علينا ما دعا للّه داع

- صلّى اللّه عليه سيّدنا قمر شعشع قد الكون وما فيه واللّي هرب للّه يمنع

- يا كعبة يا بيت ربّي ما أبهاك اللّه يسعد كلّ من أتاك

- يا سيّدا طاب عنصرك على الأنبياء ربّ فضّلك

- سلبت ليلى منّي العقل قلت يا ليلى ارحمي القتلى

- أشاهد معنى حسنكم فيلذّلي خضوعي لديكم وتذلّلي

إن قيل زرتم بما رجعتم يا أشرف الخلق ما نقول

- في ذكر أولياء تستور :

عدالة يا عدالة يا عادلين المي ما تعدلولي ميلي حملي عليّ ثقيل

- نحن قوم لا نبالي بالملام إن كتمنا الحبّ أبداه الغرام

- ابدأ باسم اللّه أوّل الكلام وصلّ على محمّد تظفر بالمرام

- صلّوا على الهادي محمّد مصباح الظّلام

مـــولـــى الـتـــاج الـهـــادي الأمـجـــد وعـلـيـه الـســـلام
- ســلامـــي عـلـــى طـيّـبـــة ســـــلامي عـلـــى الـحـــــرم
- يا من على الرسول ومن به الدين الكمول زور الحرم كي تغنم فضل النّبي الأكرم
- عند الطّواف أرى الغزال المحرما حجّ الحجيج وعاد يقصد زمزما
- مـتى يا كرام الحيّ عيني تراكم واسمع من تلك الدّيار نداكم
- صلّ وسلّم يا ربّ شرّف وكـرّم مجّد وعظّم على سيّد الأنام صلّ وسلّم
- صلّوا على النور الذي عرج السماء ألا يا لله يا فوز من صلّى عليه وسلّم
- سـلام اللّه علـى ابـن مـريـم عـيسى روح اللّـه بـيـه علـم
- عـلى رجـال انـهـامـوا بالـحـال فـي محبّـة ربّ مـــولاهـــم
- يـــا كـيـــلانـــــــي بـالهاشمـي المختـار لا تنساني
يـــا ضنوة أمّ الخيـر يـا ربّـاني يـا صاحب التصريف الدّيواني
جـاشي ابـن أمّ الخيـر
- سـورك نـــادانـــي يـــا مكّـة متـوحّش والبـعـد أقـصـانـي
- افتح لي باب الخير يا بوعلام الجيلاني جيّاب كلّ أسير يا ندهتي يا سلطاني
- نـاديـت لأهـل اللّه لا من جاني قـالـوا منسوب علـى الجيـلانـي
- واللّـه ما أسبى العقول وأفتنا إلاّجمال محمّـد لـمّـا دنـــا
- عـلى العـقيـق اجتمعنـا نـحـن وسـود العـيـون
- الحمد للّه ربّ العالمين ذكره ما أحلاه بـالألـف بـديـنـا فضلك طالبيـن
- يـا للّه بنت الهادي يا فاطمة يا زينـة نجّينا من الأصهاد وصّي باباك علينا
- سيـّد الـرّســـل المـمـجّـد شـافـع فـــي الـعـالـمـيـن
- بـديـت بـاسـمـك يـا لـطـيـف لأنّـــي عـبـد ضـعـيـف
- صاحب زمزم والبيت والخاتم والرّاية لـو نلقى ليه مشيت هو طبّي وشفـايا
- علـى عكّاز العميان ندهت كلّ ولـيّـة راني خديمك شوشان مشلّط في خدّيا

إنّ ازدواجيّة "الجدّ والهلس" في الأمثال والقصائد التي قدّمناها تجسّم ثنائيّة الحياة الاجتماعية والاقتصاديّة والدّينيّة في تستور[1].

(1) أ. الحمروني : تاريخ المالوف بتستور. - مجلّة الإذاعة والتّلفزة 1981/8/15 ص8-9.

* مـدوّنـة التـجانيّـة[*] :

* الأغاني :

أغلبها فكاهي واقعي، وبعضها غزلي يغنّى في الأعراس، وبعضها الآخر ينشد في عادات وألعاب يقوم بها الصّبيان عادة للاستسقاء أو لتدريب المولود على المشي، ومنها ما تغنّيه الأمّ لوليدها لينام... من هذه الأغاني ماهو خاصّ بتستور، فيه ذكر لأسماء أو أماكن أو أشخاص أصيلي البلد، ومنها ما هو عام، يغنّى في سائر أنحاء البلاد وفي تستور أيضا[1]... وفي ما يلي مختارات منها مهذّبة[2].

1- من تأليف المغنّي محمد بن صابر (ت 1910) دفين تستور :

" جاي من جالك ساني — عيّطت ولا من جاني
مضروب بالكتميّة — بين الصّفاق والريّة
على العازبة المقديّة — سارق ومشني زاني
مضروب دمّي يقطّر — بين الحيوط مزطّل
نادولي خويا ابكّر — خلّي نقلّو حوالي
شدّوني يا الأحباب — غلقوا عليّ الباب
من جملة الأصحاب — سارق ومشني زاني
مضروب حذا السدّاية — وصوابعي بحذاي
الحبيب يفدي دايا — يعمل عليّ جميل

(*) انظر أ. الحمروني : فهرس مخطوطات تستور. - مجلة الهداية، ج6 ، ماي 1979، مخ 202، 203.

(1) لمزيد الاطلاع راجع أعمال روبرت لخمان (Robert Lachmann) (ت 1945)، وهو مختصّ في الموسيقى الشرقيّة وعلم الموسيقى المقارن، كلّفه التجنيد الألماني سنة 1914 بحراسة أسرى الجيش الفرنسي، وكان منهم جماعة من تستور دوّن عنهم الأغاني والمالوف، ثم زار تونس لنفس الغرض سنة 1925، وأصدر كتابه بالألمانيّة عن الموسيقى في المدن التونسية وأطروحته بالانقليزية عن أغاني اليهود بجزيرة جربة وبحوثا أخرى. كما شارك في مؤتمر الموسيقى العربية بالقاهرة سنة 1932 (ح.ح.عبد الوهاب : ورقات... تونس 1981، ج2 ص270-273، م.م. العرباوي : البربر عرب قدامى، الرباط 1993 ص 264).

(2) أيّ اتّفاق في أسماء الأشخاص صدفة متبرّئة من التعريض والتّأويل.

يـا لابـس البـرنـوس يـا شـلاغـم القـطّـوس
خـوذ منّـي شبعـة فلوس بـاش نـعـقـد بـه قـرانـي"
وفي رواية أخرى :..... باش نكسـوا بـه فافانـي"

2 - "كـبّـوســـي دَبْ هـزّاتـو الأمـواج هـرب
قمت نعيّط عالبحريّـة كـبّـوسي وهـرب عـلـيّ
عرفتـو مغـشـاش ملّـي مـشـى مـاولاّش
جـانـي بـالـذّمّـة ملّي كنـت نرضع في أمّـه
توا فيه حداش شـرمـة وشرمة على الجبهة مسريّـة
نـمشوا للقـاضـي والّـي فيـه الحـقّ يسلّـم
كـبّـوسي جـديـد مشـري بفـرنـك مفـيـد
الطلبة خلّتني جميـل واشر لي لحفة تنـزيـل
أنـا عدت راجل كبـيـر عـدت علـى مـا فـيّ
نتبخنق عليه صبحة وعشيّة كبّـوسي كـي دَبْ عـلـيّ
يـاوالله عـملـة وقسيّـة كبّوسي وهـرب علـيّ
الرّيـح والنـّوء علـيّ ملاّ لعبة تعدّت بـيّ "

3- تربيجة الأمّ بمولودها :

" لـو ما جبتك يا مضنوني في ربـاط الكلبة حطّـوني
لـو ما جبتك يـا وليـد وإلاّ راه كـلاني الصّيـد "

4- من تأليف الطّاهر بن رحيّم بن عبد الرّحمان الوسلاتي بن الصّادق بن مزوغي الجزيري (ت 1937) وزوجته عائشة بنت عيسى الخميري :

" للّيري على بو نـوّارة شغشبني يشغشب حالـه
لـيـلـة الأحـد وعـويـشـة تمشط وتقدّ
والصّادق مربوع القـدّ خلّتـو مريّض في حـالـة
لـيـلـة المـرواح هـزّوهـا بـكـاء ونـواح
لـزّتّـو مالسـدّة طـاح خلّتلـو كرشـه عريانـة
لـيـلـة الحضـرة قامت تشطح قـدّ البقـرة

قـال الصّـادق توّا نبـرا ونعـمـل وراهـا زيـــارة
وأمّـــه فـطّـومـــة تتلملـم كيف اللّملومة
قالت الصّادق ليلته مشومة خلّتّو مريّض في حـالـة "

5- مـن أغـاني فاطمـة بـريش فـي الأعـراس (ت حوالـي 1905)، قيلت فـي صالحة بن مرزوق :

" خانت صالحة في العقيدة دارت خال ومحبّـة جـديدة
بـعـــــد الـمـلام بعد الّي رقدنا في فرد حرام
جرى له كيما صيّاد النّعام طـاح اللّيل والغـابـة بعيدة
بـعـــــد الوصـــول وبعد الّي رقدنا اللّيل وطوله
جرالو كيما حصّاد السّبول خانه المنجل وتجرحت إيده
بـعـــــد المـحبّـــة بعد الّي رقدنا فـي فـرد جبّة
جرى له كيما صيّاد الكسبّة طاح اللّيل والغـابة بعيدة "

6- ومن أغانيها ليلة حنّاء التّركينة من ليالي الزفاف :

" هاتوا الحنّـــة يا خـالات هاتوا الحنّة قدّموا الشّمعـات
هاتوا الحنّة في صحن بلاّر تحنّي للاّ وكـلّ من في الـدّار
هاتوا الحنّة قدّمـوا القنديل يجعلها في بركة سيدي عقيل
يـا للاّ مفتـاح باب الـدّار عمرك لا غيّرت حتّى جار"

7- أغنية تستوريّة مشهورة[1] :

" جـــانـــي المـــرســـول قعدت نخمّم واش نقول أمّاه يا أمّاه
جـــانـــي للـبـيـــت شعّلت فتيلة وزدت الـزيـــت
عـلـــى راســـه خـيـط مـا عـرفـتوشـي ولـد آشـكون
جـــانـــي للـكـيـــب واعطـــاني عشـرة محـابيـب
مسكـــه فـي الـجيـب وسخـابي عنـدي عـربـــون
جـــانـــي للـجنيـنـــة يالأغنـج يـا مـذبّـل عيـنـه
ديـنـــي عـلـى ديـنـــه عـضّ الشـفّة مع البـــزّول

(1) الصّادق الرزقي : الأغاني التّونسيّة.- تونس 1967 ص 270-271.

جـــانـــي لـلـسّـانـيـة ... لقـانـي نـزرع فـي القطانية
قـال لـي يـا زانـيـة ... سـانيتك عملتشي سـبـول
جـانـي لـسـطـحـنـا ... حلّينـا المطلع وطـلـعـنـا
سـكـارى تـلـوّحـنـا ... خـلاّنـي عقـلـي مخـبـول
جـانـي لـلـدّار ... بالبـالـة والـزوز صـغـار
فـرخ المـنـيـار ... في يـدّه الخنـجـر مسـلـول
جـانـي مـن هـكّـة ... جـانـي للكـرمـة واتّـكـأ
وجْـبـد الـحـكّـة ... والحـكّـة بـالعـطـر تعـوم
جـانـي لسـريـري ... مـن الفجعة لوّحت صغيري
ولـد البـنـتـيـري[1] ... مـا عـرفتوشـي آش يكـون"

8- أغنية تستوريّة أخرى[2]:

" يا من صبر صبري على جنّات ... نوّحوا معـاي وسقّطوا الدّمعـات
آه يـا لـلاّ ... وديـدة ظـريـفـة محنّيـة بالحنّـة
تقول حوريّة من حـور الجنّـة ... وإلاّ عـروسـة لـيـلـة الجلوات
آه يـا عـشـيـري ... بالكشي كيف نموت تعمل غيري
تنسى مروّتي عليك وخـيـري ... تنسى دحنيسك على الزيزات
مـا تـمـشـيـشـي ... خايفـة نموت بعدك ما ترانيشي
امشي وراء نعشي وما تبكيشـي ... لا يقولـوا فلانة مـع فلان زنـات
جنّـات رجـيـلـة ... بعثت لـي قبل الممـات بليلـة
نحساببها جنّات عملت حيلة ... وهي المشومة في الدّرك تنهات
آه يـا دركـي ... يدّي علـى خدّي وأنـا نـبـكي
نبكي على ولفي خدود التّركي ... من بـعدها تحرم جمـيع البنـات"
9- " خذيت مـرا مـن غريـانـة ... عـجـوزة وطرشـة ومـخـنـانـة

---

(1) البنتيري : يُطلق اللقب على بستان بتستور قرب معصرة بحيرة.
(2) المرجع السابق : ص 265-266.

من بلاد الزّيت قلت فزت وتهنّيت
توّا تعمّر هاك البيت نلقاها عجوزة خرنانة
جابت لي جهاز جابت مزود وطويّر دجاج
..... زادت معاهم مثنانة
ليلة جلوتها والخنانة على شفّتها
والقمل على قصّتها طلّت ما حرت إلاّ أنا "

10- " نبدأ بسيدي إيله والوليّ الدّرّاجي
آشكوْ يا مرخي أنا فيك نراجي
أبيّ علي المحجوب صنعته قهواجي
[كلّمه] من تالي ما يقولش قو

* * *

نبدأ بسيدي إيله يحضر في اللّيل
زاويته مبنيّة تشعل بلا قنديل
هدرة بن قرويّة وسيدي كوكا بكيل
ورئيس الجمعيّة أبيّ : ريتش البو ؟ "

- كوكا بكيل : دخل في زنبيل وطلب من أبيه أن يخطب له امرأة، فقال له أبوه : من أنت ؟ فأجاب : أنا سيدي كوكا بكيل، قال له أبوه : أين أنت الآن ؟ فردّ عليه : أنا في الزّنبيل !

11- من أناشيد الصّبيان :

" الصّليبا زالي زالي ويتا ويتا بوزاما في وسطه فا "

ربّما تشير لفظة " الصّليبا " إلى مسيحيّي إسبانيا الذين أطردوا المسلمين.

12- " حابشو يا حابشو والحابشو أبى يمشي
أعطه فويلة يمشي أعطه حميصة يمشي"

تنشد أثناء الطّواف في الأنهج بالمولود الذي تجاوز سنّ المشي ولم يمش، (ما يشبه الشّلل)، موضوعا في قفّة. ثمّ يطبخ القمح المجموع ويذرّ على رأسه ليلتقطه الأطفال فيشفى. وفي رواية أخرى، قد تكون أصلا للأولى :

" حابشو يا حابشو وادّينا لكابشو

والكابشو أبى يمشـــي أعطـــه قميحة يمشي
أعطـه فويلـة يمـشي أعطـه حميصة يمشي "

يقف طفلان شادّين أيديهما، ويمرّ الأطفال تحتهما صفّا، وكلّما وافق مرور أحدهم نهاية الأنشودة حبساه.

13- لاستنزال الغيث :

" يـــا اللّـه ويـا اللّه صبّ النّوء إن شـاء اللّه
السّبولـة عطشـانـة اروهـــا يا مـولانـــا
السّبولـة تحت الطّود اروها يا سيدي المعبـود
قـــايمـــة يـا قـــايمة إن شاء اللّه تروّح عايمة"

تنشدها بنتان وهما تشدّان منديلا أخضر، أو يلبسن فستانا بالأكمام لإحدى قوائم المنسج، مشدودة إلى قصبة، مرفوعة على شكل صليب، وعليها منديل أخضر، وينشدن أيضا :

" تـهلـولـة يـا تهلولـة إن شاء اللّه تروّح مبلولـة
يـا ربّـي تنظـر لنـا وأحنا صغار آش عملنـا "

فيخرج النّساء من ديارهنّ أواني مملوءة ماء ويرششن به المنديل.

14- طلبا للدّفء[1] :

" يـا أمّـي عويشـة زرّقي الشّميسـة
وليـداتـك ماتوا بالبرد غطّيهم بطبيّق ورد"

15- تربيجة[2] :

" تيتـة تيتـة تيتـــة بابـا جاب حويتـة
نقلوهـا في زويتـــة
والطّاجين يتشتـــش ووليـــدي ينـتّش
ينتّش بسنينـاتـــه ويعـطي لأخيّاتـه"

---

(1) الصادق الرزقي : الأغاني التونسية.- المرجع المذكور، ص 294.
(2) المرجع السابق، ص 293.

16- طلب النّوم للمولود[1] :

" ننّي ننّي جاك النّوم يا خدّين بوقرعون

أمّك قمرة وبوك نجوم

ننّـــي ننّـــي ننّـــي يجعل نومك متهنّي"

17- أنشودة الصّبيان لمؤدّبهم في الكتّاب، وهي معروفة ومنشدة في تستور كسابقاتها[2] :

" ... مدّبنا في الجنّة وأحنا دايرين به... "

18- العربيّة والبلديّة : مسجّلة عن المرحوم البشير الفرياني (ت 1996) :

" افهمني واسمع ما صاير نحكي لك يا صاغي ليّ

عمّلوا عركة زوز ضرائر عربيّة هي وبلديّة

....

حظّك ما هوشي من حظّي نا بنت نجوع هلاليّة

ظاهر فيك كلامك مرزي بلديّة ومشّك ذكيّة

* * *

البلدية قالت لها كان فراشك مكسّم مزيان

وأنت في مثيل الضربان وديما في غارك محشيّة

إذا طلعت لبرّا تدوان تولّي في مثل سلوقيّة

* * *

البلديّة قالت نختاروا وما هوشي لازم نتماروا

لباس العربي مشّك كاره كارك فويطة وطاقيّة

فمّك منتن بالسيقارو والقهوة صبحة وعشيّة

* * *

البلديّة قالت لها فنّ وفنجان وقهوة وصحن

---

(1) المرجع السابق، ص 293.

(2) المرجع السابق، ص 167.

أمـا إنت شربك كان لبن وعـدّيـت عمرك مكبيّة
فـي عشّـة فـراشك تبن أما أنـا سريـر ونـاموسيّة

* * *

البـلديّـة قـالـت لـهـا أس بدويّـة وكثّـرت الـحـسّ
تعـانـد فيّ دقّـة وكـس وتـحسبني كيفك شاويّة
آش يعنينـي في الفلس ..... ودونيّة

* * *

وتـزيـد تشـرط عليه وتمـرج لـه قلبه وتشويه
ويفلـس فـي ماله تعرّيه ما يطولش يشري سوريّـة
غـلّـة ولحم تحبّيه وقد ما يجيب تقولي شويّـة

* * *

العربيّـة قـالـت لهـا بقلة وتحسبني كيفك يا هقلة
أعطيك باش تملأ هاك النقلة غلّـة ولـحـم وملـوخيّـة
وراجلك يخرج من عقلـه كثّرت عليـه الخرجيّة

* * *

تعدّي لـه العيشـة مـرّار تحـبّ قماشـات البازار
قـريديشـي فيـه النـوّار ومـعـاه حـرايـر وقتيّـة
وهـو فـي العيشـة محتار وأنت تزيدي عليه شويّة

* * *

أمّـا أنـا نقرأ لـه حسابه ونقنـع بـالشيء الّي جابه
بنات البرّ لـواش ينصابـوا لمثـل الـحـاجـة هـاذيّة
البلـديّـة تقلّـع لـه أنيابـه زيـارة والحمّـام وهديّة

* * *

تقول له نـزور ديار أنسابي وسيدي عبد الله وأحبابي
ونحبّـك جـدّد لـي ثـيابي هـاذم مـا يليقوشي بيّ
إذا ما جابش يصبح كـابـي وتصبـح الشغلـة مرخيّة "

* **الشّعـــر :**

1- " الّي طارت في شبوب أيّامها تحصـــــل المنـى وتعيـش
والّي قعدت على رسوم ديارها لا لها بالصحّة ولا لها بالرّيش"

هذان البيتان تركهما الأندلسيّون إبّان تحوّلهم إلى تستور من خروفة القريبة، على ورقة مشدودة إلى رجل حمامة منتّفة تحت قصعة، في الجامع الذي غمرت آثاره بحيرة السدّ، وهجروا موطنهم الخصب هروبا من مظالم يوسف داي الذي أثقل فلاحتهم بمضاعفة الضّريبة، وقد لاحظ وفرة محاصيل كرومهم. ويستعمل في تستور تشجيعا على الهجرة التي تحقّق الربح والنجاح وإن كانت تهدّد بخلاء المدينة قبل جارتها بأربعين سنة !

2- " وقت القصعة مـاذا نسعـى تلفّت نلقى الصفّ ورايا
وفات القصعة عملوا فصعة تلفّت نلقى إثنين ورايا "

هذان البيتان قالهما الشيخ محمد بن الطاهر بن عطيّة، إمام المسجد المعروف باسمه والذي كان في السوق (الشارع الرئيسي) لتكاثر المصلّين إذا جيء إلى المسجد بقصعة ثريد أو عصيد.

تلك بعض النّماذج التي تعطينها فكرة عامّة عن الأدب الشّعبي المتنوّع والغزير في تستور، وبالتّالي عن العقليّة الاجتماعيّة التي أفرزته... إنّنا لا ندّعي ولا نتصوّر جمعه بأكمله إذ يستحيل الإلمام به ومتابعة إنتاجه، ولكنّنا نأمل أن نعثر على نتف أخرى، أكثر إفادة وأثرى دلالة.

حرفـــة الشّعـــــر(*)

*** تاريخها :**

هذه حرفة تركيّة، وجدت في تستور لمدّة طويلة، وعرفت في فترة ما ازدهارا كبيرا، ولكنّها قد أشرفت اليوم على الانقراض.

فلا يوجد من المراجع والوثائق ما يثبت أو ينفي وجود هذه الحرفة بالبلاد التّونسيّة منذ بداية التّاريخ الإسلامي بها، غير أنّ المتّفق عليه أنّها انتقلت من تركيا إلى تونس العاصمة في أيّام الحكم العثماني بها. ومن ثمّة انتشرت شيئا فشيئا في البلاد، ولم نستطع تحديد تاريخ دخولها إلى تستور لفقدان الوثائق أوّلا، ولأنّ الذين اتّصلنا بهم من محترفيها لم يستطيعوا أن يتذكّروا ما لم يدركوه في صباهم ثانيا. غير أنّنا لا نشكّ في دخولها تستور قبل النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر. فما نعلمه أنّها ازدهرت بتستور ازدهارا عجيبا في بداية القرن العشرين حتّى بلغ عدد المصانع ستّة وعشرين مصنعا. وكان لهذه الحرفة أعراف وأمناء.

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الثّانية أمكن استيراد خيط "السباولي" فعوّض شعر الماعز وكسدت حرفة "الشعر". ويعود كسادها إلى أسباب أعمق، منها تطوّر أساليب الفلاحة بدخول الآلة وحلول التّقنية الحديثة محلّ الأساليب البدائيّة التّقليديّة التي تستعمل الدّابة، ومنها كذلك حملة تحديد تربية الماعز بداية من سنة 1964 وهو الذي يوفّر المادّة الخامّ لحرفة الشّعر، لذلك لم يبق من مصانع "الشّعر" التي كانت عديدة إلاّ ثلاثة. [وبكل أسف ماتت الصنعة بموت صالح بن إبراهيم الوسلاتي سنة 1995].

وعلى كلّ فقد وجدت هذه الحرفة من أبناء تستور من اختصّ بها فكانت له بمثابة المورد الوحيد للعيش، والتصق إسمه بها التصاق الدّال بالمدلول. نذكر من بين هؤلاء الذين ازدهرت حرفة "الشّعر" على أيديهم وتوارثوها أبا عن جدّ : أحمد بالصغيّر – الحاج عمر بوجمعة – الحاج الصغيّر الطبيب وأخويه محمد الصالح

(*) نشر في : نشرية " تستور بين الأمس واليوم ومن خلال المهرجانات الدولية للمالوف"، جوان 1982 ص 21-25. وقد زدنا بعض الحرفيين.

وعلي – الحاج محمد بن هجّالة – عمّار الشّايب – خميّس بن الحاج حمّة وأخاه أبا بكر – خليل مامي وأخويه محمد وعلي – الحاج حسين بن عبد الرّحمان الوسلاتي – إبراهيم بن الحاج حسين الوسلاتي (1897/11/3- 1971/12/14) وابنيه صالح (ت 1995) والطاهر – علي بن صالح بن عمّار – سليمان بن الحاج علي ابن الطاهر – حمادي بن الحاج حمدة شاخ – محمد بن محمد بوشيخ وأخويه عمّار وصالح – البشير بن صالح الزّرقي (ت 1976) حمادي ماركو – محمد الشايب – حمّودة بومراح.[1]

*** مصنوعات الشعر :**

ظلّت هذه الحرفة في خدمة الفلاحة، لذلك راجت كثيرا في تستور لما تمتاز به من ظروف طبيعيّة ملائمة جدّا للزراعة، وكسدت بتطوّر الأساليب الفلاحيّة.

وهكذا يصنع من الشعر الأكياس للحبوب والمخالي للدّواب وتربية الماشية والحبال خاصّة للآبار والنواعير والسّتائر التي تعلّق على الأبواب بمناسبة الأفراح والمآتم وغير ذلك...

ولمّا كانت خيوط الشعر مختلفة الألوان باختلاف شعر الماعز – من أسود إلى أبيض إلى رمادي – فإنّ ذلك الاختلاف يستغلّ في زركشة المنسوجات، إذ أنّ هذه الحرفة لا تخلو من جمال وفنّ.

*** مراحل العمل :**

1- النشف والفرز : يفصل بين خيوط الخصلة الواحدة من شعر الماعز، وتقسّم حسب اللّون.

2- الخبط (التخبيط) : يكون بواسطة "التزقية" فيصبح الشعر مطواعا أكثر للبرم.

3- البرم : جمع خيوط الخصلة من الشّعر في خيوط طويلة تتفاوت متانة لتصنع منها الحبال.

---

(1) [راجع أسماء حرفيي الشعر في أوائل ق20م في فصل : دفاتر الحالة المدنية مصدرا لتاريخ تستور].

4- النسج : هو تماما مثل نسج الصّوف، وخاص بغير الحبال من المنتوجات الشّعريّة ذات المساحة. لذلك يحتوي معمل الشعر التقليدي على ثلاث مجموعات من الأدوات متكاملة، هي التزقية والشرك والسّدّاية.

وكثيرا ما يستعين صاحب المعمل بصانع ليعدّ له الشّعر نشفا وخبطا أو لينسج، فيتفرّغ العرف لعمليّة البرم، فيقضي يومه بين ذهاب وإيّاب طوال المصنع -الذي يكون دائما مستطيل الشّكل- ممسكا تحت إبطه كيسا كبيرا من الشّعر المنفوش، يخرج منه خصلات، يبرمها بدولاب مشدود إلى حزامه بحبل يدور كلّما تقدّم الصانع أو تأخّر. وهكذا يصنع الخيط عن طريق البرم.

*** أدوات العمل :**

لا فائدة في تعريب أسماء أدوات العمل لأنّها قد اصطلح عليها في لغة العامّة وأصحاب الحرفة، والأفضل إيرادها كما هي. وكلّ ما يلاحظ هو أنّها تركيّة اللّغة في أغلبها، مثل : تكماك وقازيق.. والأمر طبيعي لأنّ هذه الحرفة -كما سبق أن ذكرنا - مستجلبة من تركيا.

1- التزقية : أربعة حبال منفصلة من الطرف الذي يشدّ منه كلّ منها إلى الأرض ومجموعة من الطرف الآخر في عصا. يوضع تحتها الشعر ويخبّط بالعصا فينشف.

2- الماعون : مجموعة من القطع تفصيلها كالآتي :

- الشّرك : دولاب بمثابة المحرّك يدور بواسطة "حبل الشرك" الذي يجذبه الصّانع كلّما تقدّم أو تأخّر على طول الممشى.
- الصّليب : محور يدور حوله الشرك وهو على شكل الصّليب.
- الميّالة : مشدودة إلى "القلب" وتعمل على برم الخيوط.
- المحناة : جرّارتان يجرّ عليهما "حبل الشرك".
- البرارم : وهي ثلاث، اثنتان منها تبرم الخيط على يسار الصّانع وتسميّان "الكلالب" وأخرى تبرم الخيط على يمينه لتقوية الخيط وتسمّى "باش".

- الكوشة : توجد في كلّ برّيمة وهي التي تقوم بعمليّة البرم.
- الثقّال : حجارة أو قطعة من الحديد تشدّ الخيط عند البرم ليكون مطلوقا.
- الشنقال : يعين الثقّال.
- القالب : يقرن بين الحبال.
- القازيق : يشدّ الخيوط من كلّ طرف من أطرافها.
- الرّشّاق : يربط عليه الخيط الجاهز في انتظار خيط آخر يقرن به، ويوضع الخيط الموحّد في القازين.

3- السّدّاية : تحتوي على القطع التالية :
- القياسات : لوحات توضع في شقّ وسط كلّ خدّ من الخدود لرفعها أو إنزالها حسب طول القطعة المنسوجة.
- الخدود : مثل القوائم في منسج الصوف، وهما بمثابة هيكل السّدّاية.
- الفروخ : يعوّضان السّدّاية في منسج الصّوف، ويوضعان على الخدود العموديين في اتّجاه أفقي، وبينهما القطعة التي ستنسج.
- اللّزايز : قطعتان توضعان في شقّ الخدود، وتعملان على إحكام مسك القطعة أثناء نسجها.
- التكماك : مثل المطرقة، تضرب بها اللّزايز.
- عود النّيرة : يشبه المنْير في منسج الصّوف، وهو العمود الأفقي الذي تشدّ إليه خيوط النّيرة الفاصلة بين خيوط الشّعر المنسوج.
- الطّرق : يشبه الخلالة في منسج الصّوف، وهو عبارة عن لوحة صلبة فيها خمسون سنّ حديديّة كأسنان المشط. يمسك بها باليدين وتدقّ بها خيوط الشّعر في السّدّاية، ويسمّى أيضا المدقّ. والملاحظ أنّ جميع القطع خشبيّة ما عدا هذه فهي مشتركة.

4- المكرة : مجموعة بكرات أربع وقالب وشنقال، تستعمل لصنع الحبال خلال عمليّة برم الخيوط التي صنعت في الماعون. وتستعمل المكرة خارج المصنع مع مكرة ثانية تقابلها على بعد مسافة تمثّل طول الحبل.

مساهمة تستور ومدن التلّ الغربي في ثورة 1864 (*)

ليس غرضي من هذا البحث النّظر في أسباب ثورة علي بن غذاهم ونتائجها، فذلك أمر مدروس من قبل عدد من المؤرّخين، نذكر منهم ابن أبي الضّياف[1] وجان قانياج[2] والسيدة ابن سلامة[3]، وإنّما غرضي تناول جزئية من جزئيّات هذه الثّورة وسدّ ثغرة من ثغرات تاريخها تتعلّق بمدى مساهمة مدن التلّ الغربي وخاصّة تستور في هذه الثّورة اعتمادا على رسائل وبرقيات جمعها الباحثان قرانشان[4] وعبد الجليل التميمي[5] مرتبة زمنيا.

الوثيقة 1 :

رسالة من بيرو حارس الخطوط بالكاف إلى المفتّش المساعد جاكومي بتونس بتاريخ 1864/4/14[6] :

" لقد غادرت الكاف يوم 11 أفريل صحبة اثنين من الصبائحيّة، ولا شيء يستحقّ الذكر في هذا اليوم الأول إذ أنّ الخطّ في حالة جيّدة. اليوم الثاني : لما بلغت عين تونقة قطعت علينا عصابة من البدو الطريق وطالبت الصّبائحيين بتسليمها الرّومي (النّصراني) والرّجوع على أعقابهما، غير أنّ الجنْديين لم يمتثلا، وأفهماني الموقف فمسكت مسدّسي وسدّد الصّبائحيان بندقيّتيهما، ولم نتمكّن من متابعة السّير إلاّ بعد وصول ثلاثة فرسان. ولمّا وصلنا إلى تستور وجدنا الخطّ على حالة حسنة. اليوم الثالث : طلبت من خليفة تستور صبائحيين آخرين

(*) نشر في جريدة "الصدى" الأسبوعية 1975/12/29، ص 22-23.

(1) ابن أبي الضّياف : إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط. تونس 1963 ج5، باب 8.

(2) جان قانياج : أصول الحماية الفرنسيّة بتونس (بالفرنسية) ط. تونس 1968 ص 187-241.

(3) السيّدة ابن سلامة : انتفاضة 1864 (بالفرنسيّة).

(4) قرانشان : وثائق متعلّقة بثورة تونس عام 1864، النصّ المعرّب : ثورة ابن غذاهم 1864، في جزءين، تونس 1967.

(5) عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي : 1816-1871.- تونس 1972.

(6) قرانشان : رقم 19 ج1 ص 33-34.

لمرافقتهما إلى مجاز الباب، فأجابني إنّه يوافق على شرط أن أسلّمه شهادة كتابيّة تثبت أنّي متوجّه إلى مجاز الباب، لأنّه لا يضمن لي مواصلة سيري بعد زاوية تستور. فقرّرت عند ذلك الرّجوع إلى الكاف. ولمّا بلغنا وادي سليانة شاهدنا بدوا يفرّون مع دوابهم ونسائهم وأولادهم، وقد تركوا خيامهم لأهالي الجبل، فأشاروا عليّ بأن لا أواصل سيري إذا أردت أن أبقى على قيد الحياة، فترقّبت قوافل بني ورتان وبني زوائل وتبرسق حتّى أصبح عددنا تسعين رجلا وعددا من النّسوة. وطلبت منهم حمايتي عند المرور بعين تونقة فأجابوني لذلك. وكنت أسير في مقدّمة القافلة. ولمّا وصلنا إلى عين تونقة وجدنا جماعة من البدو يقطعون العمود والأسلاك. وحالما رأونا أخذوا يتصايحون، وانسحبوا قرب العين، حيث تجمّع عدد كبير من ذويهم، وإذا بأحدهم يقبل من خلف ويطلق عليّ النّار من بندقيّته، لكنّ الطّلقة أخطأت المرمى، فانبرى شيخ بني ورتان حالا للدّفاع عنّي، ودعا صاحب البندقيّة إلى الانسحاب، فأقبل بدويّ آخر وهمّ بقتلي، غير أنّ الصّبائحي صالح تمكّن من افتكاك بندقيّته وإطلاق نارها في الفضاء. ثمّ دعاه إلى الرّجوع من حيث أتى بعدما صرّح له أنّه مسؤول عن حراستي وأنّه سيقتل إذا ما وقع اغتيالي. وعند ذلك تقدّمت مقدار عشرين خطوة، وإذا بطفل في الثّامنة أو التّاسعة من عمره يطلق بندقيّته عليّ ثلاث مرّات متوالية، ولم يكن مصيبا في تسديد الرّصاص. وفي نفس الوقت جاء نفر منهم بحبل وهمّوا بتقييدي، ولعلّهم كانوا ينفّذون خطّتهم لولا قدوم الجنرال رشيد فاشتغلوا عندئذ بمهاجمة عربته وبغاله، ودار بينهم وبين حرس الجنرال اصطدام، وتبادلوا بعض الضّربات. وأومأ إليّ الجنرال مشيرا عليّ بالرّحيل، فامتثلت، وعجّلت سير فرسي حتّى أصبحت في مأمن من طلقاتهم النّاريّة. وقد رافقنا أهل تبرسق إلى وادي خلاّد. وهناك تسلّموا حميرا وبندقيّتين ثمّ انصرفوا. اليوم الرّابع : لا شيء يستحقّ الذّكر".

الوثيقة 2 :

رسالة من بوسين الموظّف المكلّف بمكتب التلغراف بالكاف إلى المفتّش المساعد جاكومي بتونس بتاريخ 1864/4/15[1].

---

(1) قرانشان : رقم 20 ج1 ص 35 .

" .. وحسب الأخبار التي بلغتنا من مصادر مختلفة فإنّ عددا يتراوح بين خمسة أو ستّة آلاف ثائر يحتلّون طريق تونس قرب عين تونقة، وهم يترقّبون قدوم الآغة، والغالب على الظنّ أنّ السيّد بيرو قد تعرّض إلى أخطار حقيقيّة ثلاث مرّات متواليات.. "

الوثيقة 3 :

رسالة من دي بوفال بتونس إلى درويين دي لويس بباريس بتاريخ 1864/6/8[1] :

"... ويؤكّد لي العارفون أنّ الثوّار لم يضيفوا شيئا إلى مطالبهم السّابقة، ولكن ما علمته الآن له خطورة يستحيل تجاهلها. ذلك أنّ الباي الجديد – واسمه علي بن غذاهم – عيّن باي أمحال (وهذا هو الإسم الذي يطلق على ولي العهد) وأوفده إلى مكان قريب من تستور، على مسافة أربع وعشرين ساعة من تونس، على رأس قوّة طلائعيّة تعدّ خمسة آلاف فارس.. "

تعتبر الوثيقة الأولى أقدم ما وصلنا عن موقف هذه الجهة وخاصّة تستور من الثّورة، وتؤكّد لنا إلى جانب الوثيقتين الثّانية والثّالثة وجود تجمّع ثوري يضمّ خمسة آلاف فارس من عين طنقة يقوده باي أمحال عيّنه علي بن غذاهم – الباي الجديد ! – لقطع الطّريق الرّئيسيّة بين تونس والكاف وقطع الخطوط الهاتفيّة بينهما وإحداث الشّغب بصفة عامّة. وقد حاول هذا التجمّع ثلاث مرّات متتالية في يوم واحد اغتيال بيرو الذي استنجد ببني ورتان وبني زوائل وأهل تبرسق. وهذا التجمّع قد هاجم الجنرال رشيد وانتظر قدوم الآغة. فالثّورة إذا قد تمركزت في عين طنقة بالنّسبة للجهة التي تهمّنا، وذلك لأهمّيتها الاستراتيجيّة حتّى اتّخذها الثوّار قاعدة ينطلقون منها في تلك الأنحاء لردّ الفعل ضدّ تصرّفات محمد الصّادق باشا باي وعملائه الأجانب.

---

(1) قرانشان : رقم 183 ج1 ص 210.

الوثيقة 4 :

رسالة من دي بوفال إلى علي بن غذاهم بتاريخ 1864/6/15[1] :

" .. تعلم سيّدي، لمّا تحقّقنا أنّه من جنابكم استغنينا عن كتابة الجواب، وأملينا عليه جميع نصائحكم، وكتبها بخطّ يده التي كنّا عرّفناكم عليها في أجوبتنا، وهي أن تقيموا وثيقة مشهود فيها على جميع العروش بعشرة أو اثنى عشر عدلا، مطبوعة بالطّابع الفضّي الموجود عندكم مثل قاضي دريد وقاضي تستور وطابعك وترسلوها لنا على الفور من غير تراخ.. "

ويقول : " .. وهذه هي المطالب التي تبيّنونها في الوثيقة وفي الجواب اللّذين ترسلونهما لنا : إزالة الوزير وأتباعه وعدم رجوع القانون والتّخفيف من الأداء وأمر الأمان فيما صدر منكم وفيه ضماناتنا.. "

ثمّ يقول : " .. ونعرّفكم أنّنا مستغربون منكم (لأنّه إلى حدّ الآن لنا) مدّة ونحن نتكاتب. ونحن نعرّفكم بجميع الأمور تفصيلا، وأنتم جميع أجوبتكم فارغة، لم تبيّنوا لنا فيها الأمور تفصيلا (وذلك) في مصالحكم.. "

هنا يحاول القنصل الفرنسي دي بوفال الحصول على نصّ رسالة بخطّ علي ابن غذاهم وخاتمه متضمّنة كلّ المطالب التي ينادي بها الثوّار، ومنها مطلب علي ابن غذاهم المتمثّل في توسّط القنصل الفرنسي حتّى تكون تلك الرّسالة مبرّرا شرعيّا لمساندته الثّورة وسندا قويّا للتّقارير الخاطئة التي ما انفكّ القنصل يرسلها إلى وزير الخارجيّة الفرنسيّة، وفيها يتحدّث متفائلا عن نجاح هذه الانتفاضة.

الوثيقة 5 :

رسالة من شارل كوبيزول إلى دي بوفال بتونس بتاريخ 1864/7/2[2] :

" .. إنّي (رجل من السّاحل) قادم من المحلّة التي تركتها صباح اليوم قرب مجاز الباب. وبالفعل جاءت بعض العشائر لملاقاتها، لا لتنضمّ إليها كما تظنّ، بل لاستفسارها عن وجهتها وعن سبب اعتمادها على المدافع. وقال العربان إنّ

---

(1) التميمي : رقم 10 ص 79-80 (أصلحنا بعض أخطائها اللّغوية).

(2) قرانشان : رقم 214 ج1 ص 259-260.

تمرّدهم ناتج عن مظالم الحكومة، وأنّهم اضطرّوا إلى رفض تسديد الضّرائب الجديدة لأنّ الشّعب لا طاقة له بها، وأنّهم يطالبون الباي بعزل الكفّار والذين لا غرض لهم إلاّ خراب البلاد. وبما أنّه لا أحد في الدّنيا يستطيع لومهم على المطالبة بحقّهم فهم لا يدركون أسباب تجريد جيوش لمحاربتهم. وسأله الضّابط عمّا يعنونه عندما يتحدّثون عن الذين يريدون خراب البلاد فقال : الخزندار والجنرال أحمد زرّوق والجنرال خير الدين وآخر نسيت إسمه ".

هذه الوثيقة تدلّ على اعتراض الثوّار سبيل محلّة الباي ومطالبتهم بحقّهم في حريّة التّعبير وإسقاط الضّرائب الجديدة وعزل الأجانب. وهذا يدلّ على شعور الشعب بأطماع الدّول الأوروبيّة وبتسرّب نفوذها إلى البلاد التّونسيّة بتواطؤ قناصلها مع مصطفى خزندار والجنرال أحمد زرّوق وعلى رأسهم محمد الصّادق باي بدستور عهد الأمان، ممّا سيؤدّي بالبلاد إلى الخراب الاقتصادي وسقوطها في أيدي الفرنسيّين والأنجليز.

الوثيقة 6 :

رسالة من دي بوفال إلى درويـن دي لويس بباريس بتاريخ 1864/7/9[1] :

" .. والمحلّة التي خرجت من العاصمة أدركت مجاز الباب، على مسافة سبع ساعات. وكلّما توغّلت في الدّاخل زادت صفوفها هزالا نظرا إلى عدد الجنود الفارّين منها، وبدون أن ينضمّ إليها العساكر المنخرطون في الجنديّة الذين كان الباي يتظاهر بالتّعويل عليهم. وهناك أنذر الثوّار الجنرال إسماعيل السنّي بوجوب التوقّف عن المسير، وخرّبوا في الوقت نفسه جسر وادي الزرقاء.. "

الوثيقة 7 :

رسالة من دي بوفال إلى درويـن دي لويس بباريس بتاريخ 1864/7/16[2] :

---

(1) قرانشان : رقم 226 ج1 ص 271.

(2) قرانشان : رقم 234 ج1 ص 278-292.

" تشرّفت أمس بمقابلة الباي.. وقد أكّد لي من جهة أنّ السّاحل أهدأ من ذي قبل. ومن جهة أخرى، إنّ المحلّة توفّقت إلى مغادرة مجاز الباب، وأنّها أدركت مشارف باجة، بعد أن تعزّزت صفوفها بكثير من المتطوّعين.

على أنّ الأنباء التي يتّصل بها سموّ الباي ليست صحيحة مع الأسف، والمحلّة الصغيرة التي يقودها الجنرال إسماعيل السنّي ترابط فعلا على مقربة من باجة، ولكنّ مرض الحمّى انتشر في صفوف الجنود وقضى على عدد منهم، بينما فرّ عدد آخر، كما أنّ متطوّعا واحدا لم يلتحق بالجيش. وعندما مرّت المحلّة بتستور وغيرها من المداشر فرضت الضّرائب والمكوس الجاري بها العمل. ثمّ ما كادت تبتعد عنها حتّى جاء نحو المائة من الفرسان فأمروا بالإمساك عن دفع تلك الأداءات واقتادوا الجُباة مصفّدين بالأغلال. وفي الوقت نفسه اطمأنّ ابن غذاهم حسبما يظهر إلى ضعف خصمه فأشار بزيادة التوغّل صوب الكاف أو غيرها، عارضا منح حراسة تتولّى السّهر على سلامة قائد المحلّة، ومهدّدا مع ذلك بمحق كلّ قوّاته إذا انطلقت رصاصة واحدة.. "

ملحق في 1864/7/17 : " .. وقيل إنّه بعد صدور هذا البيان انطلق ابن دحر خليفة علي بن غذاهم إلى الرمّانة، على خمسة فراسخ من باجة، وإنّ محلة الباي باتت محاصرة من كلّ جانب ومحاطة بنحو ثمانية أو عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى المشاة، وقيل أيضا إنّ الجنرال السنّي عاد بانفراده إلى العاصمة. ولكنّ هذا الخبر لم يتأكّد.. "

الوثيقة 8 :

رسالة من دي بوفال إلى درويين دي لويس بباريس بتاريخ 1864/7/20[1] :

" معاليكم على علم بأنّ الجنرال إسماعيل السنّي كان يرابط على مقربة من باجة، وتحاصره قوات الثوّار. وقد كتب إلى قصر باردو لإعلامه بأنّه في موقف يائس، وأنّه يتعيّن انتهاز فرصة حسن استعداد الخصم لإعادة المحلّة إلى تونس..

---

(1) قرانشان : رقم 249 ج1 ص 291-292.

وأمره بأن يعمل ما في وسعه لاستخلاص ضريبة الستّة وثلاثين ريالا، والحال أنّ مجرّد ذكر ضريبة المجبى يثير حفائظ الأهالي. وهكذا أقرّ إسماعيل السنّي استخلاص الضّرائب في المناطق القريبة من محلّته. وما (إن) شاع هذا الخبر حتّى خفّ جيش جرار بقيادة علي بن غذاهم نفسه. فضغط على المحلّة، وسرعان ما أبادها. ولم ترد تفاصيل عن الواقعة سوى أنّ الزواوة باعوا أسلحتهم، بحيث لم تبق للباي إلاّ المدافع، يدفع بها الأعداء. ويظهر أنّ الثوّار كسبوا نصرا آخر، وهو انضمام مدينة الكاف إليهم.. "

تبيّن هذه الوثائق الثلاث السابقة تدهور الحالة الصحّية والعسكريّة لمحلّة الباي المتّجهة نحو باجة بقيادة الجنرال إسماعيل السنّي وتحرّك ابن دحر خليفة علي بن غذاهم لمحاصرتها في عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى المشاة مع المحافظة على الغاية السليمة للثورة بتجنّب أيّ اصطدام مسلّح إلاّ إذا اقتضت الضرورة. لذلك، فما إن حاولت المحلّة استخلاص نصف الضريبة (36 ريالا) في المناطق القريبة حتّى زحف على المحلّة جيش جرّار بقيادة علي بن غذاهم، الذي كان يراقبها عن كثب، فأبادها، وتعزّزت صفوف الثوّار بانضمام مدينة الكاف إليهم. فالثورة إذا قد تدعّمت في جهة باجة قبل أن تتدعّم فيما بعد في جهة الكاف على قربها من قبائل ماجر والفراشيش.

الوثيقة 9 :

برقيّة من شارل كوبيزول إلى دي بوفال بتونس بتاريخ 1864/7/22[1]

" التقى أوّل أمس ستّة أهالي من تستور كانوا قادمين إلى حلق الوادي بشحنة من الزيت بمجموعة من الفرسان قرب مجاز الباب، ذكروا لهم أنّ ابن دحر (أحد خلفاوات علي بن غذاهم) سيدرك اليوم مجاز الباب على رأس رجاله، وأنّهم طليعة جيش علي بن غذاهم الذي يلتحق بهم اليوم أو غدا قاصدا تونس، وإنّي انتظر أن يتأكّد هذا النبأ ".

(1) قرانشان : رقم 257 ج1 ص 296.

الوثيقة 10 :

برقيّة من شارل كوبيزول إلى دي بوفال بتونس بتاريخ 1864/7/23[1]

" تأكّدت الأنباء التي أبلغتها إليكم أمس بشأن تجرّكات قوّات علي بن غذاهم والخليفة ابن دحر من مصادر مختلفة. وقد أدرك ابن دحر أمس الفحص، وبعث بفرسانه إلى مختلف الجهات لجمع العربان الّذين سينضمّون إلى جيش قائده.. "

تفيد هاتان الوثيقتان تحوّل ابن دحر في رجاله من الفحص إلى مجاز الباب لجمع العربان المتطوّعين. وتفيد كذلك التحاق علي بن غذاهم بقائده في جيشه للزّحف على العاصمة.

الوثيقة 11 :

رسالة من دي بوفال بتونس إلى دروين دي لويس بباريس بتاريخ 1864/8/14 [2] " .. ولننتقل الآن إلى الحديث عن الأغلبيّة الكبيرة من القبائل، وهي أعظم شأنا من الأخرى، وأذكر منها : ماجر وجلاص والفراشيش والهمامة وورتان وأولاد عيّار وبني زيد وورغمّة والمثاليث والسواسي. هذه القبائل كلّها لا تقبل أيّ صلح إلاّ إذا سبقه عزل الخزندار... ثمّ إنّ احترام الباي يتلاشى في النفوس فتتألّف تدريجيّا فكرة قيام بأي آخر مقامه. فالصّلح لا يعوّل عليه. ولو كان صادقا لماذا تنهب قطعان مواشي الباي في منطقة باجة ؟ ولماذا تجري حوادث العنف في مختلف الجهات ؟ ولماذا هذه التشكيلات من الفرسان ؟ ولماذا يشيع ابن غذاهم الرعب بدائرة مجاز الباب، معلنا قرب عودته واعتزامه إتلاف المحاصيل التي لم يتمّ جمعها ؟ ولعلّه لا ينوي في الواقع أن يزحف على تونس، بل لا ينبغي إلاّ صدّ الأهالي بذلك التهديد عن معاداته. ومهما يكن من الأمر فإنّ ذلك لا يبشّر بالسلم.. "

تذكر هذه الوثيقة عدد القبائل المنضمّة إلى جيش ابن غذاهم ونقمة العامّة على الباي لتناقض تصرّفاته واشتراطها في قبول الصلح عزل الخزندار، بالإضافة إلى تغلغل الثّورة وانتشار الرعب وتعدّد حوادث العنف والنهب في جهة باجة.

---

(1) قرانشان : رقم 266 ج1 ص 299.

(2) قرانشان : رقم 317 ج1 ص 362-363.

الوثيقة 12 :

رسالة من أحمد جيريو إلى علي بن غذاهم بدون تاريخ[1]، يعلمه فيها بأنّ مقعد ونفزة والساقنة وعمدون والشيحيّة ينتظرون قدومه ليلتفّوا حوله، وأنّ عليه أن يكاتبهم حالما يأتي إلى التراب التونسي، وأنّهم يترقّبونه بالمجاز. وإذا كان في تونس فما عليه إلاّ الظهور لأنّهم يريدون إعادة الكرّة..

هذه الوثيقة تدلّ على اتّساع نطاق الثورة في اتّجاه الشمال الغربي.

الوثيقة 13 :

رسالة يُظنّ أنّها صادرة عن الخزندار إلى الباي بدون تاريخ[2]، يعلمه فيها بأنّ ابن غذاهم وأخاه قبض عليهما أهالي القصور وأوثقوهما كتافا، ويقودونهما إلى تونس، وأنّهما سيقضيان اللّيل بتستور..

وتمثّل هذه الوثيقة نهاية الثورة بالقبض على علي بن غذاهم، دون ذكر الأسباب والظروف. والملاحظ أنّ القبض على علي بن غذاهم قد تمّ في أبة قصور (الدهماني)، ومن طرف بعض أهاليها. ولا شكّ أنّ هناك أياد خفيّة شجّعتهم على ذلك، فقبضوا عليه في عقر داره. فهل يعني أنّه كان محروسا أثناء تنقّلاته في جهة باجة حراسة شديدة حالت بينه وبين من تحدّثه نفسه باختطافه للفوز بهدايا الباي ؟

الوثيقة 14 :

رسالة من محمد بن علي بن عمر وصالح بن علي بوجمعة من تستور إلى أمير لواء علي عامل رياح بتاريخ 20 ذي القعدة 1280هـ/27 أفريل 1864م[3].

---

(1) قرانشان : رقم 503 ج2 ص 195.

(2) قرانشان : رقم 571 ج2 ص 253.

(3) ربيع العربان : أضواء عن أسباب ثورة علي بن غذاهم سنة 1864، وثائق من الأرشيف الوطني التونسي حققها وقدّم لها توفيق البشروش. بيت الحكمة، تونس 1991 ص180-181 وجدول المحاصيل والإعانة ص 182، وفي الصفحة 95 رسالة من محمد العربي بن عمار قايد ماجر إلى مصطفى خزندار قال فيها : «... لما تعدّينا إلى تاستور وجدنا النّاس ترحل ومتقلقلة وماكثة بالجبال. وكل ذلك من فعل أولاد بوغانم والزّغالمة فرقة أولاد الشّيخ...».

" ... وبعد فالذي أعلم به السيادة بلغنا أمر مولانا وسيدنا دام عزّه وعلاه في إسقاط مال الإعانة الزايدة صحبة حانبة وصبايحي يوم التاريخ، والذي اقتضى من نظره السديد صلاح وسداد، وربّنا يخلّد عليه ملكه، وفرحت الرعيّة بذلك ودعوا له بالنّصر والتّأييد. وأيضا أخبركم على أحوالنا ما حلّ بنا وببلدكم. الآن نصف شهر والعسّة الليل والنهار دايرة بالبلاد خوفا من البادية من تظلّمهم. وأيضا أخبركم على نجع دريد أنهم ذهبوا إلى عرش يسمّى ونيفة وأعطوا لهم خطوط أيديهم وطوابع عمّالهم موافقينهم ما يصنع من الفساد بالأوطان. ولمّا أعطوا خطوط أيديهم أرادوا أن يدخلونا معهم أو يأخذونا، فأرسلوا أوّلا إلى بلد تبرسق وخوّفوهم فوافقوهم عن ذلك وأعطوا خطوط أيديهم وأسعفوهم، ثمّ بعد ذلك خاطبونا نحن على ذلك وخوّفونا مثلهم، فلم نسعفوهم ولم نرضوا. والآن دايرين بوطننا وتمكّنوا على رجل منّا وسلاتي وضربوه بالتّقيل فأوقع به الهلاك. ونحن الآن شادّين أنفسنا، ربّما يبرز منا شيء سيّئ نخاف من العقاب، وأمنع عنّا الطرق والأسباب بالسّوق وغيره، وأبطلوا عنّا كلّ ما يباع قايلين لا ثمّ ربع ولا غيره. والآن الربع قد شهر ونصف شهر متوقّف لم يدخله شيء. وغاروا علينا يوم السوق وفيّوه وأدّوا من عند ما هو غافل فأبطل من سبب ذلك. وأيضا إنّ الزروعات أهملوا عليها دوابهم ولم(..). نحن أخبرنا السّيادة ليكن في معلومكم لتخبرنا ما نصنع لأنّ أشدّ بنا الكرب كثير، ونحن خايفين من العقاب لعلّ يبرز منّا شيء لهم نتعاقبوا. الحاصل بارك اللّه فيكم أن تبادرنا بالأخبار فورا من غير زهدة. وربّنا يفرّج كرب الجميع، وينصر سيّدنا ومولانا..".

تبيّن هذه الرسالة أن انتفاضة علي بن غذاهم لم تجد مساندة إلاّ في حدود الريف لموالاة أهالي تستور لسلطة الباي حفاظا على أملاكهم. وكانت من قبل سجنا للمغضوب عليهم.[1]

---

(1) في حوالي سنة 1083هـ/1672م سجن الباي بها ابن أحمد خوجة الضليع مع أحمد بن القائد جعفر في محاولة إطاحة الداي بالباي، لكنّه تمكّن من الفرار (ابن أبي دينار : المؤنس... تونس 1286هـ/1869م ص 228-229).

إنّ جملة هذه الوثائق تبيّن لنا أنّ مساهمة جهة التلّ الغربي وخاصّة جهة تستور كانت مساهمة مهمّة، لأنّها واكبت كلّ مراحل الثورة، ومحكمة التنسيق، لأنّها اعتمدت مبدأ توزيع مجموعات الثّوّار على مراكز بشريّة واستراتيجيّة لجمع السّلاح والفرسان وتناقل الأخبار وقطع خطوط الهاتف واغتيال عملاء الباي من الأجانب والتونسيين. وتعود أهميّة هذه المساهمة إلى أسباب، منها اتّفاق الجميع على فساد الوضع ووجوب الانتقام من الباي، ومنها سياسة العنف في استخلاص المجبى بإعتبار أنّ المنطقة أثرى من غيرها فلاحيّا في مناطق السهول، ويقابل ذلك الثراء الفقر المدقع في المناطق الجبليّة، وهو ما غذّى في أهلها حساسيّة ثوريّة دعّمتها مظالم الباي من جهة وشظف العيش من جهة أخرى. ولا ننسى أنّ جهة تستور – في مستوى عين طنقة – تمتاز باستراتيجيّة هامّة لأنّها تقع في منتصف الطريق الرئيسيّة الرّابطة بين تونس والكاف في اتّجاه حدود الجزائر، وتمتاز بالمفاوز والأدغال والجبال الوعرة ممّا يوفّر ملجأ آمنا للثوّار وقاعدة محميّة ينطلقون منها لإنعاش حركتهم ونشر دعوتهم. ويجب أن نذكر أيضا سببا هامّا يتمثّل في تأثير الطريقة التّجانيّة على الأهالي بحثّهم على العصيان والثورة ضدّ الباي وضدّ بوادر التسرّب الاستعماري. وكانت هذه الطريقة الصوفيّة عهدئذ مزدهرة وقويّة النفوذ على أهالي جهة التلّ الغربي.

مساهمة تستور في الحركة الوطنيّة(*)

يحتفل أهالي تستور سنويّا بذكرى تصدّيهم للمقيم العام الفرنسي الطّاغية جون دي هوتكلوك أثناء زيارته لها يوم 26 فيفري 1953، في إطار جولة عبر جهات الشّمال الغربي حيث كثافة المعمّرين من الفلاّحين أرادتها السّلطة الاستعماريّة حجّة على رضى الشّعب بها وتطويق المقاومة، فكان في تستور عكس المتوقّع بعد الاستقبالات الكبيرة التي خصّ بها ركبه في مجاز الباب والعروسة.

ذلك أنّ شعبة تستور العريقة برئاسة المناضل عبد السّلام البنطور أطّرت الوطنيّين لمفاجأته بالنداء بالاستقلال وحياة تونس عند مدخل زاوية سيدي نصر القرواشي حيث سقط مغشيّا عليه لهول الاصطدام بين المتظاهرين والجندرمة، وأرجع إلى العاصمة يجرّ أذيال الخيبة، وعادت الثّقة إلى النّفوس لمواصلة الكفاح المسلّح دون خوف من جبروت هذا المقيم العام الجديد الذي دخل البلاد في بارجة حربيّة مروّعة تعويضا لسلفه لوي بريليي المعروف بسياسة اللّين.

ورغم خطورة الحادثة فقد طوّقتها الصّحافة الفرنسيّة بالصمت، لكن مع ذلك بلغ صداها إذاعة ب ب س (B.B.C.) بلندن ممّا اضطرّ فرنسا إلى تعويض دي هوتكلوك بمقيم عام جديد واستبدال شيخ البلد والكاهية. وشرعت في التّحقيق مع المقبوض عليهم، ممّن ظهرت وجوههم في الصّورة، أمام المحكمة العسكريّة.

وبالمناسبة كتبت جريدة "لابريس" (La Presse) بتاريخ 1953/8/17 تحت عنوان : محكوم عليهم من أجل التظاهر ورمي الحجارة على أعوان النّظام "... خصّصت الجلسة للنّظر في قضيّة واحدة هامّة اتّهم فيها 36 تونسيّا بالمشاركة في مظاهرة غير مرخّص فيها بالطريق العام، وفي الاعتداء بالعنف على أعوان القوّة العامّة..."

وذكرت الصّحيفة أنّ الأبحاث أثبتت أنّ المظاهرة قد سبق الاتّفاق عليها وإعدادها ليلة 26 فيفري 1953 من قبل أعضاء الشعبة : حمادي بن مصطفى شيخ والطاهر بن الحاج علي وعبد السلام بن مصطفى البنطور وحسين بوجمعة.

(*) ينشر لأوّل مرّة.

وأنّ أبرز المتظاهرين هم هؤلاء إلى جانب : حسين بن محمد مهنّى، إبراهيم بن محمد بن موسى، محمد التركي، حسن بن أحمد بحيرة، العربي بن علي الميساوي، البشير بن بلقاسم الهمّامي، الصّادق بن محمد بن عبد الرّحمان، الهذيلي بن علي بن شيحي، العروسي بن أحمد قنا، أحمد بن محمد بن إسماعيل، حسن بن أحمد الدقّي، صالح بن العجمي الهمامي، مصطفى بن محمد الفرياني، المكّي بن أحمد العرفاوي، عليّة بن مصطفى قنّا، حمّودة بن أحمد الهنديلي، عبد الحميد بن خميس بوجمعة، علي بن محمد الحلواني، محمد الحاج بن علي الحلواني، الشاذلي بن الصادق الرياحي، حسن بن صالح قنا، حمادي بن الحاج الهادي بن إسماعيل، محمد بن الحاج حمودة التباسي. وأغلبهم شبّان تتراوح أعمارهم بين ستّة عشر وعشرين سنة.

وتولّى الدّفاع عنهم الأساتذة : الباجي قايد السّبسي، قلّوز، بوزيري، قازونو، لادري، لمبروزو. وصدرت ضدّهم أحكام على النّحو التالي : 6 أحكام بالسّجن لمدّة تتراوح من 6 أشهر إلى عامين، 14 حكما بغرامة تتراوح من 10 إلى 100 دينار، 29 حكما بتأجيل التنفيذ، وحكم واحد بعدم سماع الدعوى لفائدة عمر بن علي بن عمر الصيد.

ورغم صغر سنّهم وبساطة الأحكام الصّادرة في شأنهم فقد اعتبروا بعد الاستقلال مناضلين، ويتمتّع الأحياء منهم إلى اليوم بمنحة معتبرة، ومنهم من استفاد عند توزيع أراضي المعمّرين إثر الجلاء الزراعي، وواصل تحمّل المسؤوليّة في الشعبة والبلديّة.[1]

---

(1) راجع : أ. الحمروني : ذكرى مظاهرة 1953/2/26 بمدينة تستور، في : العمل 1980/2/27 ص 5-6 ؛ صورة من نضال تستور، في : العمل 1982/2/27 ص5 ؛ تستور I ص60-61. ومن قدماء المناضلين محمد بوناب وأحمد باتيس والحاج الصغيّر قنا السوسي الذي احتضن الشعبة في داره والإمام صالح العكّاز الذي حُجز دفتر إشهاده وأبعد إلى الفحص لمدّة سنتين وظلّ تحت المراقبة إلى تاريخ 1943/5/25.

أعـــــلام(*)

1- ابن عطيّة (الهادي) (ت 1957/9/13) :

ولد الهادي بن الحاج محمّد بن أحمد بن عطيّة الحنفي في تستور، ومات بها، ودفن بزاوية سيدي ابن عبد الرحمان بصفته شيخ الطريقة الرحمانيّة. أسّس وترأّس أوّل شعبة دستوريّة بتستور وكامل الشمال سنة 1926. شارك في مؤتمر قصر هلال وانخرط في الحزب الحرّ الدستوري الجديد منذ انبعاثه سنة 1934. سجن مع الزعيم الحبيب بورقيبة في سجن تبرسق وسجن سان نيكولا بفرنسا[1].

2- ابن مصطفى (الحاج علي) (1890- بعد 1937) :

ولد حوالي 1890 بباجة. نشأ في تستور حيث تعلّم القرآن عن والده. ثمّ تحوّل إلى تونس ليدرس في "الزيتونة". ولكنّه لم ينه تعليمه فاشتغل بالتجارة. ولم يبرز في الساحة الإعلاميّة إلاّ بعد الحرب العالميّة الأولى منتميا إلى الحزب الحرّ الدستوري. ولأنّ السّلطة الاستعماريّة لم تستجب لمطلبيه لإصدار جريدتي "الحقوق" و"الأفكار" وأوقفت نشرته "سياسة اليوم" التجأ إلى استئجار جريدة "الأمّة" الأسبوعيّة من صاحب امتيازها عبد العزيز المحجوب منذ 1921/2/26، فتولّى إدارتها، وعيّن محي الدين القليبي مدير الحزب الدستوري رئيس تحريرها. ولأنّه انتقد إصلاحات المقيم العام لوسيان سان وثلب كاتب شيخ المرسى حكم عليه بالسجن والغرامة في فيفري 1922. وإثر خلافه مع صاحب امتياز جريدة "الأمّة" إلتجأ إلى أحمد الجزيري صاحب امتياز جريدة "المبشّر" ليتسوّغها منذ 1922/5/20. وتحوّل معه محي الدين القليبي لتجنيدها في خدمة الحزب إلى حدّ صدور العدد الثاني عشر، تاريخ الخلاف مع صاحبها، فالتجأ إلى رشيد بن علي الجريدي صاحب امتياز جريدة "الحقيقة" لإصدار العدد الأوّل في 1922/11/28 قبل فوات أجل الرخصة بيوم. لكنّ صاحبها سرعان ما تراجع في الاتّفاق، فعاد

(*) ينشر لأوّل مرّة.

(1) الحمروني (أ) : تستور/ تاريخ ورحلات. - ميدياكوم، تونس 1994 ص 37، 60.

علي بن مصطفى ثانية إلى صاحب جريدة "الأمّة" لاستئجارها من 1923/1/11 إلى 1924/2/21 تاريخ إعلان صاحبها تخلّيه عن إصدارها، فعاد ثانية إلى صاحب جريدة "المبشّر" لاستئجارها وإصدارها من العدد الثاني والعشرين بتاريخ 1924/3/26 إلى أن توقّفت بصدور العدد الرابع والعشرين. فالتجأ علي بن مصطفى إلى سلومة بن عبد الرزّاق صاحب امتياز جريدة "الممثّل" الأسبوعيّة لإدارتها بعنوان "الممثّل الوطني" من 1924/11/6 إلى أن تعطّلت بقرار في 1924/12/15، كما التجأ إلى محمد الصادق الرزقي صاحب امتياز جريدة "إفريقيا" للاتّفاق معه على إدارتها لشهري نوفمبر وديسمبر 1924. وبعد عشر سنوات من اختفاء الحاج علي بن مصطفى عن الساحة الصحفيّة، بسبب الضغوط الاستعماريّة على أصحاب الامتياز لمنعهم من التعامل مع هذا الصحفي المناضل، عاد بقوّة سنة 1936 بعد وصول الجبهة الشعبيّة إلى الحكم في فرنسا وإصدار قانون تحرّري للصحافة في تونس. وأخيرا تمكّن من تحقيق حلمه بالحصول على الامتياز في إصدار جريدة "الأمّة" من جديد تحت مسؤوليّته الكاملة منذ 1936/11/10 وإصدار عدد وحيد من جريدة "الصاعقة" الأسبوعيّة السّاخرة[1].

3- ابن موسى (التجاني) (1903/2/3 - 1970/10/4) :

ولد التجاني بن محمود بن الحاج محمد بن موسى في تستور، ومات بها. اشتغل موظّفا بتونس حيث أقام بنهج بئر الأحجار. راسل محمّد المنصف باي برسائل مسجوعة وضمّن بعضها مقطوعات من شعره[2].

4- التواتي (محمد) (النصف الثاني ق17م) :

ترجم له حسين خوجة فقال :

---

(1) حمدان (محمد) : أعلام الإعلام في تونس. - مركز التوثيق القومي، تونس 1991 ص 108-111.

(2) الحمروني (أ) : فهرس مخطوطات تستور.- مجلة الهداية، ح6، ماي1979 مخ 204، 205.

" ومن علمائها (باجة) العلاّمة الشيخ التواتي، عالم فاضل، له ملكة في جميع العلوم. تزايد ببلد باجة وطالما استفاد منه وأخذ عنه ببلد باجة خلق، ومكث بها برهة من الزمان ثمّ رحل إلى بلد تستور من عمل إفريقيّة، واجتمع عليه لأخذ العلم أناس كثيرة من كلّ مكان. فقيه، محدّث، نحوي، توحيدي، ورع، ديّن، صالح. له ميل إلى طريق القوم، محبّ للفقراء والصالحين "[1].

5- التّيبلي (إبراهيم) (1580م - بعد 1628م) :

هو العالم والشاعر الإسباني التونسي خوان بيريث (Juan Perez). واسمه العربي إبراهيم التيبلي، نسبة إلى تيبلة، قرية آبائه التي كانت قرب مرسية بشرق الأندلس. ولد في طليطلة، وكان يعيش في تستور سنة 1628م، وبها نظم قصيدة ذات 4608 بيتا بالإسبانيّة مع هوامش بالعربيّة في الدفاع على الإسلام والردّ على النصارى وتعليم المهاجرين الأندلسيين مبادئ دينهم. وقد صدرت في إسبانيا بتحقيق لوي برنابي بونس[2].

6- الخميسي (صالح) (1912/9/13 - 1958/7/10) :

ولد الفنان صالح بن علي بن عبد الله في تستور، وانتقلت به العائلة إلى تونس حيث اشتغل بصناعة الناي والعود. انخرط في "الرشيديّة" سنتي 1937-1938 ليتعلّم العزف على النّاي وينضمّ إلى فرقة محمد التريكي عازفا وفكاهيّا بارعا في المعارضات. وفي سنة 1943 التحق بالإذاعة وغنّى لعلي الدوجاعي وحسين الجزيري حتى أصبح يؤلف لنفسه. كان متعدّد المواهب الفنّية والأنشطة الرياضيّة والكشفيّة. وقد جسّم كلّ ذلك في أغانيه الهادفة التي عدّ بها رائد الفكاهة في تونس.[3]

---

(1) خوجة (حسين) : ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان.- تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس 1975، ص 150.

(2) BERNAB
tunecino Taybili - Zaragoza 1988.
- OLIVER ASIN (J.) : Le « Quichotte » de 1604.- In : Epalza/Petit : Etudes sur les moriscos..., Madrid 1973, P240-247.

(3) الحمروني (أ.) : صالح الخميسي/ حياة وفنّ. - ميدياكوم، تونس 1999.

7- الرّياحي (إبراهيم) (1766م - 1850م) :

هو العالم الفقيه والشاعر الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد ابن إبراهيم الرياحي. حفظ القرآن في تستور ثمّ التحق بجامع الزيتونة ثم تصدّر للتدريس فيه وفي جامع صاحب الطابع وفي زاويته. دعي للقضاء فامتنع، وقبل خطّة الإفتاء بعد إلحاح. عيّن لرئاسة أهل الشورى سنة 1832م، ثمّ سمّي مدرّسا من الطبقة الأولى في جامع الزيتونة وإماما خطيبا به سنة 1842م، وقام بسفارات رسميّة ناجحة إلى المغرب وإسطنبول مدّة المشير أحمد باي الأوّل. كان متصوّفا من دعاة الطريقة التجانيّة. جمع حفيده أشعاره وخطبه وفتاويه ومختصر المولديّة في كتاب تعطير النواحي، وحقّق محمد اليعلاوي وحمّادي الساحلي ديوانه[1].

8- زبيس (سليمان مصطفى) (و 1913/5/2) :

ولد سليمان (مصطفى) بن محمد بن محمد زبيس الأندلسي بتستور. تابع تعليمه الابتدائي بباجة. ثمّ انتقل إلى الصادقيّة بتونس سنة 1928 وحصل على شهادتها سنة 1934 ثمّ على شهادة اللّغة والحضارة من معهد الدّراسات العليا بتونس سنة 1943 ونجح في مناظرة انتداب متفقّد للآثار الإسلاميّة سنة 1949.

باشر التّدريس بمدرسة محمد مناشو منذ 1935 ثمّ بالمدارس التّابعة لإدارة المعارف منذ سنة. 1938 ومن 1942 إلى 1947 كلّف بالقسم العربي لدار الكتب الوطنيّة، وانتدب لتدريس التاريخ والجغرافيا في الخلدونيّة من 1944 إلى 1947 عندما كلّف بالإشراف على الآثار الإسلامية بإدارة الآثار، ثمّ عيّن متفقّدا لها سنة 1949. وفي الأثناء انتدب مدرّسا للآثار بمعهد الدراسات العليا بتونس إلى سنة 1952. وفي سنة 1961 سمّي مديرا للمعهد القومي للآثار والفنون. وفي ديسمبر 1962 أصبح مديرا للمعالم التاريخيّة ثمّ رئيس مصلحة المدينة العتيقة ببلديّة تونس في ديسمبر 1965. وفي سنة 1967 - 1968 انتدب للتدريس بكلّيّة الآداب

---

(1) - الديوان : تحـم اليعلاوي، ح. الساحلي. - دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.
- الرياحي (عمر) : تعطير النواحي... تونس 1902.
- الحمروني (أ) : علم الزيتونة الشيخ إبراهيم الرّياحي / دراسة ونصوص. - ميديا كوم، تونس 1996.

بالجزائر. وظلّ مديرا مؤسّسا لمركز الدراسات الإسبانيّة الأندلسيّة من جانفي 1972 إلى تقاعده سنة 1983.

انضمّ إلى عدّة هيئات علميّة وثقافيّة وطنيّة ودوليّة، منها تولّيه نيابة الرئيس في الكتابة العامّة للمعهد الرشيدي سنة 1960، وعضويّة المكتب التأسيسي للمجلس الدّولي للمعالم والمواقع بالبندقيّة سنة 1964 وعضويّة مكتب جمعيّة فنّيي المعالم التاريخيّة بفرصوفيا سنة 1966 ورئاسة الجمعيّة التّونسيّة للتّاريخ إلى سنة 1972. وهو عضو مراسل لمعهد الآثار ببرلين وروما والأكاديميّة الملكيّة للتّاريخ بإسبانيا سنة 1968...

ساهم منذ سنة 1950 في جلّ الملتقيات التاريخيّة في العالم. وقام بحوالي خمسين رحلة، كان أغلبها بدعوة من أكاديميّة النّقائش والآداب بفرنسا. وكلّف بعدّة مهام خاصّة في الجزائر والمغرب. وحاضر مرارا في تونس. وسجّل أحاديث أسبوعيّة في التاريخ التونسي باللّغتين للإذاعة والتلفزة من 1944 إلى 1973. وقام بعدّة حفريات وترميمات، كانت مواضيع محاضرات وبحوث شتّى مدعّمة بالصور، منشورة في دوريّات تونسيّة وأجنبيّة مختصّة، كرّم عليها بعدّة جوائز وأوسمة من تونس وفرنسا وإسبانيا. من مؤلّفاته : ديوان النقائش العربيّة الموجودة في المملكة التونسيّة - الفنون الإسلاميّة في البلاد التونسيّة - بين الآثار الإسلاميّة في تونس - آثار المغرب العربي[1]...

9- الزين (خميس) (ق 19م) :

أصيل تستور، من مشاهير المغنّين في القرن 19م. كان محبوبا مقرّبا لدى رجالات الأدب والعلم والدولة. ذكره الباجي المسعودي في شعره ورثاه[2].

---

(1) الحمروني (أ) : سليمان مصطفى زبيس. - المجلّة التاريخيّة المغاربيّة، ع89-90، ماي 1998 ص 273-289.

(2) زبيس (س.م) : من متفرّقات الكنانيش التونسيّة.- المباحث، ديسمبر 1946 ص 7.

- ابن حميدة (م) : الباجي المسعودي. ص62.

- الغزّي (هـ.ح) : الأدب التونسي في العهد الحسيني. - تونس 1972 ص 142.

10- الطرابلسي (حمّودة) (ت 1276 هـ/1860 م) :

ترجم له ابن أبي الضياف فقال :

" أبو محمد حمّودة بن أحمد الطرابلسي، ولد هذا الرجل بتستور، وحفظ بها القرآن العظيم، ورحل في طلب العلم إلى تونس، وسكن بمدرسة حوانيت عاشور، وقرأ على شيخ الشيوخ أبي محمد حسن الشريف وعلى الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الرياحي وغيرهما. وحصلت له ملكة المشاركة، وله معرفة بالسير وعلم التاريخ. حسن الكتابة، واضطره الحال إلى الارتزاق بقلمه فكتب في أشغال الدولة كالعلفة والكوشة والغابة وغيرهما. وأرسى حاله عند القائد الشهير أبي الربيع سليمان بن الحاج فاستكفى به في مهمّاته، وأشركه في أمره، موثوقا بأمانته، حتى أنّه أودع ختمه عنده لمّا توجّه إلى الساحل خشية تعطيل دفع الأعشار، ولم يأتمن عليه ابنه، وانتفع كلّ منهما بصاحبه. ولمّا اشتاقت زوجة هذا القائد لأداء فريضة الحجّ وجّهها مع ابنه منها، وخاطب كاتبه هذا أن يحجّ ناظرا على ابنه. ثمّ جذبه الوزير شاكير صاحب الطابع إلى الكتابة عنده. ثمّ انتظم في ديوان الإنشاء، يسافر مع الوزير للساحل وغيره. ولمّا توفّي الوزير بقي في سلك الكتّاب. وكان المشير أبو العباس أحمد باي يستنجبه، ووجّهه مع الوزير أبي النخبة مصطفى خزندار لفرنسا. وكان حسن المحاضرة، مشاركا أديبا، صحيح الفكر، مصيب البداهة، كريم النفس، عربي السجيّة، يميل إلى السذاجة، بصيرا بعواقب الأمور، حنكته التجارب، عارفا بجهات المملكة، كاد أن يعرف سائر سكّانها، أعجوبة في ذلك.

ولم يزل حسن الحال، نبيه الخلال، إلى أن توفّي في الحادي عشر من شعبان الأكرم سنة 1276 ستّ وسبعين ومائتين وألف عن سنّ عالية (السبت 3 مارس 1860م) "[1].

11- العنّابي (محمد) (و 1095 هـ/1684 م) :

ترجم له حسين خوجة فقال :

---

(1) ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان.- تونس 1964 ج8 ص 108-109.

" ومنهم العالم الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد العنّابي الضّرير. تزايد ببلد العنّاب (عنّابة) سنة خمس وتسعين وألف، وقرأ القرآن العظيم على الشيخ علي تريح بالجزائر، وانتقل إلى مدينة تونس. وفي طريقه مكث في بلد تستور من عمل تونس، وقرأ على الشيخ البركة سيدي علي الكوندي، وحصل عنه الفقه والنحو. ومنها ارتحل إلى مدينة سوسة، واستقرّ بزاوية الشيخ صاحب الكرامات الباهرة سيدي أبي راوي. وقرأ على الشيخ العالم الورع سيدي يحي وعن الشيخ علي بن موسى الأزهري وعن الشيخ البركة القدوة سيدي أحمد الريغي. وتمهّر في العلوم العقليّة والنقليّة. وقدم إلى تونس واستكمل على العلاّمة سيدي محمد زيتونة "[1].

12- فريحة (فاطمة) (و 1945/12/24) :

ولدت فاطمة بنت محمد الهادي بن إبراهيم بن عمر فريحة بتستور. درست بمعهدي سوسة ورادس والتحقت بمدرسة الفنون الجميلة بتونس بعد حصولها على الباكالوريا سنة 1962، ومنه تخرّجت بعد خمس سنوات بديبلوم لتدريس الرسم في معاهد قرنبالية وتبرسق وحمّام الأنف. ثمّ التحقت بباريس سنة 1971 بمساعدة أستاذها أندري جوولت (André Joueault). عرضت بليل وطوكيو وباريس. وتحصلت على جائزة الإخوة دي لاهوق (frères Delahogues) سنة 1972 وعلى جائزة فرنسا إفريقيا للجمعيّة الدوليّة للفنون الجميلة سنة 1973 وعلى الميداليّة الفضيّة لجمعيّة الفنّانين الفرنسيين والميدالية الفضيّة للمنمنمات سنة 1974 وجائزتي رولان (Rowland) وتيلور (Taylor) سنة 1974 وعلى الميداليّة الذّهبيّة لصالون الفنّانين الفرنسيين سنة 1975[2].

13- القرواشي (عزّ الدين بن سنوسي) (و 1925/6/20) :

ولد عزّ الدين بن سنوسي بن عبد الله بن سنوسي القرواشي بتستور حيث زاول تعلّمه الابتدائي، ثمّ التحق بتونس لمواصلة تعلّمه الثانوي والعالي. تحصّل

---

(1) خوجة (حسين) : ذيل البشائر، المرجع المذكور، ص 266-267. انظر : فهرس الفهارس...
(1) H'BAIEB (Taoufik) : Fatma Friha : Médaille d'or du Salon des Artistes Français.- La Presse 19/04/1975, P3.

على الإجازة من فرنسا فباشر التدريس بالمعاهد الثانوية، ثمّ التحق بالإدارة متنقّلا بين الوزارات. كتب المقالة الصحفيّة، وترجم بالاشتراك عددا من المسرحيّات، ونشر :

- يرما (مسرحيّة لقارسيا لوركا، تونس 1968).
- الجرّة - واجب الطبيب (مسرحيّتان لبيراندلو).
- قارب بدون صيّاد (تونس 1980).
- قاضي زلاميا (لكلديرون).
- الإخوة كراما زوف (لدستويفسكي).
- كوريولان (لبريشت).
- المروحة (لقولدوين).
- ميدي (لجون آنوي).
- الخادمات (لجون جيني).
- تاجر البندقيّة - الملك لير (لشكسبير)[1].

14- قيقـــة (البحري) (1904-1995) :

ينحدر البحـري بن حمّودة بن محمد الغريب بن قيقة من عائلة أصيلة تكرونة. استقرّ أبوه في تستور حيث تزوّج وأنجب البحري في 1904/3/4. درس في الصادقيّة وفي معهد كارنو، ثمّ درس الحقوق في باريس. اشتغل محاميا، وانضمّ إلى الحزب القديم بالعضويّة في اللجنة التنفيذيّة لمؤتمر نهج الجبل سنة 1933، ثمّ خرج عنه. يعدّ من أبرز مؤسّسي الحزب الدستوري الجديد بصفته أمين مال مساعد باللّجنة التنفيذيّة المنبثقة عن مؤتمر قصر هلال في 1934/3/2. ناضل في صفوف الحزب حتّى ارتبطت حياته بتاريخه. نفي إلى برج البوف مع الزعماء من 08/12 إلى 1936/04/24. ساهم في تحرير « l'Etendard Tunisien ». وكان من مؤسّسي « l'Action Tunisienne »، ومن محرّريها، وأشرف على تسييرها الإداري عام 1936. كما ساهم في

(1) ابن سالم (عمر) : كتّاب من تونس (تراجم). - دار سحر للنشر، 1995 ص 185.

تحرير « La Voix du Tunisien » و « La Voix du Peuple ». توفّي في 1995/9/3 بأملكار بضاحية قرطاج[1].

15- الكوندي (علي) (1619 م - 1708 م) :

هو العالم الإمام الخطيب والرحّالة أبو الحسن علي بن علي الكوندي الأندلسي التستوري مولدا ومنشئا ومدفنا. علّم الفقه والقراءات والنحو وألقى خطبا في الجامع الكبير وألّف كتبا، منها الرحلة إلى الصّين وما وراء النهرين، وشرح البردة، والمختصر، والآجرومية، والموطّأ، والجمل. وجميعها مخطوطة. ومن تلاميذه محمد العنّابي السابقة ترجمته[2].

16- الكوندي (محمد بن علي الأندلسي) (ق17 - 18م) :

هو نجل علي الكوندي الأندلسي (ت 1708م) وتلميذه. رثا أباه وترجم له في ظهر الورقة الأولى من تأليف علي الكوندي "اللؤلؤ والمرجان في وقف القرآن" (مخ الوطنية 9181/1، العبدلية 414/1، 4532)[3].

---

(1) جلّ منشورات ووثائق ومراجع تاريخ الحركة الوطنية ومنها :

- حمدان (محمد) : أعلام الإعلام في تونس (1860 - 1956).- مركز التوثيق القومي، تونس 1991، ص 222.

- جراد (محمد الصالح) : تونس في جهادها أو مذكرات مبعد سياسي.- تونس (مطبعة الاتّحاد) 1355 هـ (1936م) ص 61 وما بعدها.

- MAHJOUBI (A.) : Les origines du mouvement national en Tunisie (1904-1934).- Pub. Univers. Tunis, 1982, P 504, 517-528.

(2) عبد الوهاب (ح.ح) : كتاب العمر. إكمال م.ع. المطوي، ب. البكوش. - بيت الحكمة، تونس 1990 ص 828 - 830.

- محفوظ (محمد) : تراجم المؤلفين التونسيين . - دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985 ج4 ص188.

- الكوندي (الهادي) : الشيخ الكوندي. - مجلّة تستور، ع2، جوان 1969 ص 55-56.

(3) عبد الوهاب (ح.ح) : كتاب العمر. - المرجع المذكور، ص 828 - 830 حيث ذكر بمناسبة ترجمة أبيه.

17- المانسي (المنصف) (و 1949/4/2) :

ولد المنصف بن بلقاسم بالحاج عمر بن بلقاسم بن الأحول المانسي بتستور، في أسرة فنّية تحفظ المالوف. وكان أبوه يعزف على البيانو. درس عامين بمعهد الفنون الجميلة بتونس، ثمّ قضى أربع عشرة سنة ببلجيكا لمواصلة دراسته في الأكاديميّة الملكيّة للفنون الجميلة بلياج لمدّة ثلاث سنوات، ثمّ بأكاديميّة بروكسيل لمدّة سنتين. مارس الرّسم منذ الصّغر، وشارك في أوّل معرض بدار الشّباب بالبلفيدير سنة 1964 وهو آنذاك تلميذ بمعهد ابن رشد.

فاز بالجائزة الثانية في معرض لياج العالمي بلوحة رسمها وهو في السادسة عشرة من عمره وحملها معه إلى بلجيكا. وكانت مؤشّرا للمشاركة في عدّة معارض بهولندا وبروكسيل وإقامة معرضين شخصيين في لياج وبروكسيل وبرشلونة. فاز بالجائزة الكبرى لبلديّة تونس للفنون التّشكيليّة سنة 1981، وساهم في إنجاز الديكور والأزياء لبعض الأعمال المسرحيّة والفنّية مدّة إقامته بتونس، دون أن ينقطع عن زيارة بلجيكا[1].

(1) بوغدير (توفيق) : لقاء مع المنصف المانسي.- العمل 1981/6/19 ص 16.

التّنشيط الثّقافي في محيط تراثي : مثال تستور(*)

أصبح موضوع التّنشيط الثّقافي يحظى بعناية كبيرة.. ولقد وضّحت الدّراسات المختصّة مفهومه وأهدافه وطرقه وعلاقته بالإعلام وخصوصيات ممارسته في وسط عمراني أو صناعي، الأمر الذي يعفينا من إثارة هذه الجوانب.

ورغم أسبقيّة استغلال التّنشيط الثّقافي لبعض المعالم الأثريّة كالمسارح الرّومانيّة وبعض الزّوايا والمدارس والدور العتيقة بتونس المدينة، إحياء لمظهر مادّي من الثّقافة الوطنيّة أو تلافيا لتكاليف الإحداثات الجديدة بناء وتجهيزا، فإنّ علاقة التّنشيط الثّقافي بالمحيط التّراثي مازالت في حاجة إلى البحث الميداني. وبالتّالي لا تسمح هذه الفرصة بأكثر من إثارة تساؤلات حول دواعي التّنشيط الثّقافي في محيط تراثي وأهدافه وخصائصه، وحول الإمكانيّات التي يوفّرها المعلم الأثري حتّى يتفاعل المضمون الثّقافي المقترح مع الفضاء المعماري الموجود، وحول بعض الصّعوبات المحتملة.

ولأنّ هذه المحاولة تتجاوز الاستغلال الثّقافي المعروف للمسارح الأثريّة – التي ليست في الواقع أكثر من مدارج وركح فسيح تستوعب جمهورا كبيرا متنوّعا في سهرات صيفيّة فقط – لتهتمّ بالعمل الثّقافي المتنوّع والمستمرّ في المدينة العربيّة الإسلاميّة العتيقة الثّريّة بالمعالم التّاريخيّة القيّمة جماليّا – ولو فقدت بسبب التطوّر والحداثة وظيفتها الأصليّة وأصبحت مهجورة ومتداعية رغم تمثيلها للذّاتيّة الحضاريّة – فقد اخترنا تستور كمثال يساهم في تصوّر مشروع تنشيطي متميّز ومتكامل يهدف إلى توظيف فضاءات معماريّة عديدة خدمة لثراث غزير ومتنوّع يجمعه مع الفضاءات طابع أندلسي.

ورغم تطوّر تستور المحتشم فقد ظلّ هذا الطابع محافظا على استمراريّة طيلة ثلاثة قرون ونصف، ولم يصبح عرضة للاضمحلال إلاّ خلال ربع القرن الأخير، عندما فرضت الظروف على تستور الخروج من عزلتها والتشوّف إلى أسباب التفتّح، فغدت اليوم في حالة تذبذب بين تقاليد الماضي ومقتضيات العصر،

(*) نشر بالملحق الثقافي للحريّة في 1989/12/7، ص 3.

أو في خضمّ محاولة الملاءمة بين هذه وتلك. فالوعي بقيمة التراث محدود جدّا بقدر الإقبال على الحداثة. هذا ما يفسّر على سبيل المثال الانفصام بين إحياء العادة في مراسم الزفاف وبين التجديد في المباني المستحدثة.

إنّ التنشيط الثقافي في مثال تستور وسائر المدن التاريخيّة يوجّه في نظرنا إلى إحياء الموروث الثقافي من فنون وتقاليد وإبداعات في إطار صيانة التراث المعماري من دور ومقامات ومساجد مهملة، وإلى إثراء هذا التراث العام بمادة جديدة تحقّق له التكيّف مع الحاجات.

وعملا بمبدإ توظيف التراث باعتباره أحسن طريقة للمحافظة عليه تتجاوز الترميم والصيانة المتحفيّة إلى إدماج التراث في الحياة اليوميّة ليصون نفسه بنفسه من مداخيله أو يفرض على مستغلّيه صيانة مقابل الخدمات التي يقدّمها لهم كمكان جاهز يعفيهم من تكاليف البناء الجديد سواء باسترجاع وظيفته الأولى أو ببعث وظيفة جديدة فيه إذا لم تعد الأولى مواكبة للتطوّر أو ملبّية لحاجة سكّان الحي المجاورين للمعلم التاريخي، عملا بهذا المبدإ وإحياء لهذا التراث واستفادة من هذه المعالم التي لا يمكن تجاهلها لانتشارها في النسيج العمراني ولا يمكن تركها للتهديم أو الاندثار، وفي انتظار بعث جمعيّة لصيانة المدينة وإنمائها[1] يتحتّم الآن بصفة عاجلة على الهيئات الثقافيّة أن تضع خطّة للتنشيط الثقافي تكون متماشية مع الإمكانات المعلميّة متجاوزة الاختصاصات التقليديّة المعروفة في دور الشعب والثقافة[2] ومستوحاة من رصيد تستور الحضاري وغير ذات تكاليف تفوق الإمكانات المحلّيّة حتّى ولو دعّمتها المؤسّسات الصناعيّة.

ويكون منطلق هذه الخطّة ترميم ما يمكن من المعالم قبل إحداث بناءات جديدة تقشّفا في النفقات والمساحات، علما بأنّ حالة بعض المعالم لا تحتاج إلى تدخّل كبير.

إنّ مراكز العمل الثقافي في تستور اليوم لا تتجاوز بصفة جمليّة مركزين اثنين، أحدهما يوجد بالحي العتيق المعروف "بالتغرين" متمثّلا في دار "لياهو" أو

---

(1) [تأسّست في 1998/5/29 حسب تاريخ صدور قانونها الأساسي بالرائد الرسمي].

(2) [أصبحت مدمجة باسم دور الشباب والثقافة].

دار الثقافة "إبراهيم الرّياحي" حاليّا، وثانيهما يوجد بمدخل المدينة العصريّة من الجهة الغربيّة قرب حي 20 مارس متمثّلا في المكتبة العموميّة كنواة لمركز ثقافي مرحلي الإنجاز[1]، وينتظر دعمهما بمركزين آخرين، يتمثّل أحدهما في دار الشباب التي بصدد الإنجاز[2] مجاورة للمعهد الثانوي "ابن زيدون" وحي "غرناطة" الجديد و[المدرستين الإعداديّتين "ابن رشد" و "ابن سهل"..]. ويمكن أن يتمثّل ثانيهما – بكيفيّة تحدث التوازن بين جميع المراكز والأحياء – في مقام سيدي نصر القرواشي الفسيح والموجود في حي "الحارة" العتيق.

وبالتالي تتمكّن هذه المراكز الأربعة المحكمة التوزيع العمراني من أن تستقطب مختلف شرائح السكّان، وتتفاعل مع محيطها، بواسطة خطّة ثقافيّة تقوم على مبدإ التناوب في التظاهرات الكبرى، والاستمرار في الأنشطة اليوميّة أو التي تشغل نهاية الأسبوع، والتعاون على إنجاح مهرجان المالوف كأكبر تظاهرة.

وتقابل هذه المراكز الأربعة أربع تظاهرات رئيسيّة، تتوزّع على مختلف فصول السنة. فإلى جانب مهرجان المالوف المشار إليه، والذي يستغرق فترة من الصيف تناسب العطلة المدرسيّة الأطول، ويرتكز أساسا على الناحية الفنّيّة الموسيقيّة، يمكن موازاته بملتقى إبراهيم الرّياحي في الشتاء أثناء العطلة المدرسيّة القصيرة، ويرتكز أساسا على الناحية العلميّة التاريخيّة. وتتخلّل هاتين التظاهرتين المتكاملتين تظاهرتان شعبيّتان دينيّتان قابلتان للتطوّر والإثراء لتصبحا أيّاما ثقافيّة ثلاثة. وهما "زردة" سيدي علي العريان في عطلة الربيع و"زردة" سيدي نصر القرواشي في عطلة الخريف أو في نهاية الأسبوع من الفصل إذا لم يناسب توزيع العطل المدرسيّة.

وبأكثر تفصيل نقترح أن يقتصر العمل الثقافي بدار الثقافة العتيقة على ما تقوم به جمعيّة صيانة المدينة من استغلال مخبر التّصوير الشّمسي لتسجيل المعالم وإعداد الدّراسات التّاريخيّة والمعماريّة والفنّيّة المتعلّقة بالمالوف والأدب والحرف وتدوين التّراث وعرض نماذج منه متمثّلة في الأزياء التّقليديّة والحليّ والمفروشات

---

(1) [ألغي المشروع، وأقيم في مكانه قصر البلديّة سنة 1999].

(2) [تم إنجازها سنة 1991].

والآلات الموسيقيّة والمخطوطات المرمّمة بصفة مستمرّة. أمّا أنشطة السينما والشّعر والقصّة والمسرح والموسيقى والرّقص والمطالعة والألعاب الترفيهيّة فتشترك فيها دار الشّباب الجديدة مع المكتبة العموميّة، مع تشريك الشّباب المدرسي الابتدائي والثانوي القريب من هذين المركزين اللّذين تحيط بهما المدارس الابتدائيّة والمعهد الثّانوي والمدرستان الإعداديّتان. عندئذ تتحوّل اللّجنة الثّقافيّة وفرقة المالوف إلى المركّب الثّقافي[1].

في حين يخصّص جانب من مقام سيدي نصر للمذاكرة والمحاضرة والمطالعة وجانب آخر لمتحف الفلاحة التّقليديّة والصّناعات المتّصلة بها كالنّجارة و"الشعر" والفخّار، وتبقى القبّة كتّابا لتحفيظ القرآن للصّغار أو قاعة للألعاب الفكريّة تجنّبا للإضرار بالمعلم، ويستغلّ الطّابق العلوي في المدخل كمشربة ونادي اللّقاءات بين روّاد المركز الثّقافي.

أمّا بقيّة المقامات والمساجد المتروكة فتستغلّ بعد التّرميم من قبل عديد الجمعيّات، مثل مهرجان المالوف بمقام سيدي إبراهيم الرعّاش الفسيح[2] وجمعيّة المحافظة على القرآن الكريم بمسجد درمول[3] وجمعيّة الهلال الأحمر بمقام سيدي أحمد بوغرارة قرب مركز العيادات الخارجيّة ونادي الأطفال الحالي بمقام سيدي عبد الرّحمان وروضة للأطفال بمسجد الرّحيبة العتيق بعد تسييجه وبناء قاعة به لصالح أطفال الرحيبة[4] وروضة أخرى بمسجد متينش بعد ترميمه أيضا لصالح أطفال الحارة. ويبقى مقام سيدي محمد بن عيسى كتّابا أو مقرّا لفرقة العيساويّة[5] وعلوّ نهج الطّيّب المهيري للكشّافة أو لفرقة نحاسيّة، مع تمكين الزوّار من الإطّلاع على بعض المنازل الأصليّة في أوقات مناسبة ومواعيد معلومة، والعمل

---

(1) [بل إلى دار الشباب والثقافة].

(2) [خصّصت له البلديّة مقرّا إداريّا سنة 1994 وأنجزت له مسرحا سنة 1997 بمساهمة المجلس الجهوي بباجة ووزارة الثقافة].

(3) [بل إلى زاوية سيدي عبد القادر بعد استرجاع المسجد لوظيفته الطبيعيّة سنة 1998].

(4) [سيوظّف كحديقة أثريّة].

(5) [أو روضة للأطفال].

على تسجيل مختلف هذه المعالم لينطبق عليها قانون الصّيانة، وعرض مخطّطاتها في مداخلها، وتعهّد بنيانها باستمرار.

ولا أحد يشكّ في أنّ أحسن فرصة لإبراز هذه النّشاطات مع التّركيز على مظاهر العرض والاستعراض تتمثّل في مهرجان المالوف الذي يتوّج الموسم الثّقافي بتمكين النّاجح طواله – أي الموسم – من حظّه في التّشجيع والتّعريف به إعلاميّا، في نطاق المعارض الفنيّة والتّقليديّة أو الاستعراض الشّعبي والشّبابي والاقتصادي والثّقافي أو سهرات المالوف والموسيقى التّقليديّة أو النّدوة الفنيّة أو الزّيارات المفسّرة التي يستدعى إليها المشاركون من ضيوف تستور.

أمّا ما تبقّى من الفترة القديمة من تاريخ تستور وتراثها متمثّلا في نقائش لاتينيّة ومنحوتات رومانيّة مجمّعة بمستودع المعتمديّة أو محفوظة بصحن الجامع الكبير فنقترح عرضها في المناطق الخضراء الموجودة على الطّريق الرّئيسيّة وبالبطحاء[1].

(1) [بل في الحديقة الأثريّة بفضاء الجامع العتيق].

ذكـــرى تستـــور(*)

إنّي مسكون بتستور، إليها أنظر بعين الفنّان وقلب العاشق الولهان، فلا أراها إلاّ محتفلة بتراثها، مشرقة بأحلامها، فأرسمها بخطوط ودوائر راقصة تعرج من أرضها إلى سمائها، راقصة لهندسة الزوايا القائمة، فلا حدّ بين العناصر وقد تآلفت في وحدة خلق جديد، يبعث الروح في الحجر والفضاء، ويجلي تصوّرا ثوريّا لرسّام مبدع.

محراب الجامع الكبير، مثلّث على مقوّس، حوار تسامح بين الأديان، يأخذك إلى عتمة الخشوع الظاهر ونور الباطن، يخرج من قبلته إلى باب البطحاء، ينادي أهل الدنيا إلى حياة الروح، إلى العشق الأزلي، يغريهم بجماله الكنائسي. الصومعة تشعّ على محيطها المعماري، تدعوه إلى التسامي ليشاركها نشوة الطموح. جليز الجامور ينشر ألوانه على ما حوله. كلّ شيء يرقص منتشيا باحتفال الأمل. القرميد يتناثر على السطوح. الأنهج تتعرج وتنفتح. ستائر المنازل ترفرف ملتوية معانقة عطر الياسمين.

مازالت تستور العتيقة واضحة الصورة في ذاكرتي بمنازلها البيضاء المقرمدة وأبوابها الزرقاء الممسمرة ونوافذها الصغيرة المطلّة على أنهجها المستقيمة، تزينها شرائط حمراء من شرائح الفلفل والطماطم. وتحيط بهذه الجوهرة الناصعة الأجنّة الخضراء على ضفاف الوادي، والحقول والزياتين على الروابي المجاورة.

وقلّ أن تجد في نهج بل في حيّ حضيرة بناء أو بقايا مواد، لأنّ المنازل الفسيحة كافية لسكنى العائلات الكبيرة ولو تفرّعت بزواج الأبناء. فإذا احتاجت إلى توسعة أضيفت بيوت جديدة في نفس المحلّ دون ملاحظة الأشغال في الخارج، مادام الباب الأصلي كاف للجميع، وواجهة المنزل ملك مشترك لا يمسّ إلاّ بالطّلاء الحولي.

(*) ينشر لأوّل مرّة.

وهكذا لم يكن السكّان – الذين تناسب أحياؤهم مع أمواتهم – في حاجة إلى توسيع الفضاء المعماري بمثل الأحياء الجديدة التي تطوّق اليوم المدينة الأصليّة بالمباني الفوضويّة العديمة الذوق، التي أنشأها النازحون والفارّون من أصالتهم بدعوى الحداثة.

ولا شكّ أنّ قلّة فقط من الأهالي لا يشعرون مثلي بتستوريّتهم إلاّ إذا واصلوا العيش في ديار الأجداد، في قلب المدينة العتيقة، بين المساجد والزوايا. إنّها بلدة مباركة طيّبة هادئة، لا تسمع فيها لغوا إلاّ ما يحلو في الأذن : رغاء الأبقار والأغنام والماعز وهي غادية إلى المراعي في الصباح أو رائحة إلى اسطبلاتها قبيل الغروب، منتشرة في الأنهج عبر المرير العلوي أو المرير السفلي، وقد تعوّدت كلّ بقرة أو مجموعة منها على مسلكها حتّى لو لم ينتظرها صاحبها عند رأس النهج، قرع حوافر الدواب المحمّلة بالأدوات الفلاحيّة والخضر والغلال والعلف في الزنابيل – بنوعيها بوقنطرة والغباري –، نقرات الحدّادين المنبعثة من دكاكينهم في السوق متناغمة متغنّية بالعمل عند الضّحى، أصوات الإسبانيات المتجوّلات يبعن "الرّكامو". ترانيم النواعير ذات النواقيس عند المساء وفي ليالي الصيف، التراتيل والمدائح المتصاعدة من الصوامع والزوايا فجرا وعشاء.

زالت الكراريط بعجلاتها المصفّحة التي كانت أهمّ وسائل النقل، تحمل عليها أكياس الحبوب والزيتون، وحطب الإكليل للمخابز والحمّامات، وسماد المخازن للبساتين، والمفروشات للغسل في وادي سليانة في الربيع، وملازم زيارة سيدي علي بن سالم أو سيّدي عقيل في الخريف. ما أضجر أزيز المحرّكات، وما أفزع حوادث المرور!

مازلت أذكر فرحتي بمرافقة أبي إلى البساتين لجلب ماء الشراب من الآبار العذبة بالنقلة والقلال. وما أعظم استبشار الجنّان بنا عندما يهدينا أجود الثمار، يضعها في القلال الأربع وقد ملئت ! تلك عادتنا في الصيف والخريف، فإذا صادف شهر الصيام سعينا قبيل الإفطار إلى الحمّام الجديد – حمّام بزّة – لملء درجيّة أو سطل من بئره العذبة. وقد كنّا نشرب من الوادي قبل تركيز ثلاث حنفيّات عامّة في الأحياء، يزدحم عليها الصغار والكبار والسقّاؤون الذين ينقلون الماء إلى المنازل بعشرين مليّما فقط لأربع قلال.

كنّا في رمضان ننتظر آذان المغرب، مجتمعين على الربوة القريبة. فإذا شرع المؤذّن في تركيب العلم الأحمر في الحبل المشدود إلى العمود بأعلى الصومعة استعدادا لساعة رفعه أنشدنا :

« القنفود طلّع راسه بوطريبيشة طلّع راسه
يا أحمد شيطيّة طلّع العَلَم »

فإذا أشعلت الفوانيس ورفع العلم انقلبنا عدوا إلى بيوتنا نبشّر آباءنا بالإفطار صائحين :

« أفطروا يا صائمين كسكسي ولحم سمين
أفطروا يا حجّاج كسكسي ولحم دجاج »

كنّا في ليالي رمضان نمثّل مسرح الظلّ . وكنّا نتحيّن ليلة الدّردك في السابع والعشرين منه لنهجم قبيل صلاة العشاء على الجامع الكبير، نطرق الأبواب، ونملأ بيت الصلاة صياحا وركضا، ونحمل على الأكتاف من نجده يقرأ المصحف، ونشاغب من يصلّي. نفعل ذلك بكلّ براءة ولا ندري لماذا. وفي صبيحة العيد نبكّر لنرافق آباءنا إلى الجامع ونتمتّع بالصعود إلى الصومعة ورؤية البلدة من أعلاها، لأنّنا لم نكن نطمع في ركوب الطائرة !

وكنّا في عاشوراء نشعل النار ونقفز عليها. كانت لنا في كلّ فصل ألعاب مخصوصة نتبارى فيها. كنّا نلعب بنواة المشمش والتمر وبالصور والنحلة (الزربوط) والكجّة (بيس = Billes) ونلعب الكاري (Carré) قفزا على مربّعات في شكل صليب مرسوم على الأرض، وغميز غزال وديماديفو وبقيرة ولدت، ونتخاطب بحقّتي طماطم فارغتين متّصلتين بخيط طويل كأنّه الهاتف، ثمّ نتحارب بالحجر ثمّ نرفع راية السّلم. فإذا سمع أحدنا طرق باب الدار لبّى نداء أمّه لشأن ما، كأن يملأ لها سطلا من الحنفيّة العموميّة. وإذا وجد خبزة على لوحة أمام دار رفعها إلى الكوشة، وارجع اللوحة، ثمّ استأنف اللعب بالكرّوسة أو بالكرة.

كانت لنا ألعاب وأناشيد لاستنزال الغيث، ونادرا ما كنّا نحتاج إليها، كأنّ ثقة الفلاحين البسطاء في اللّه جلبت لهم الرحمة والخير بانتظام الأمطار ووفرة المحاصيل قبل أن نعرف الأسمدة والعقاقير. فإذا وجبت زردة سيدي علي العريان أقاموها.

لم تكن المقاهي عديدة ولا عامرة بالرجال، ما عدا بعض الشيوخ الّذين يقضون أوقاتهم ما بين الاستماع إلى المذياع وخاصّة إلى نشرات الأخبار في

المقاهي أولعب الورق وبين الجلوس على الربوة الشهباء بجهة الهوير وراء زاوية سيدي أحمد بوغرارة أو على حجرات مدخل زاوية سيدي نصر أو على كاف الوادي للعب الخربقة. أمّا الرّجال القادرون على العمل فكانوا يقضون نهارهم في البساتين، يسقون الأشجار المثمرة والخضر بالمياه المستخرجة من الآبار بالدلو أو الناعورة أو المجلوبة من الوادي لريّ الزياتين إثر غراستها. فلا تعمر البلدة بهم إلاّ مساء إذا جلس بعضهم في بطحاء السوق حيث المقهى والجامع، وقد استبدلوا ثياب الشغل مثل الكدرون وحذاء العفّاس بالجبّة صيفا أو البلوزة والقشّابيّة والبرنس شتاء مع البلغة. أمّا الحرفيّون فتراهم في دكاكينهم جادّين في شغلهم، ما بين صدّار يخيط الملابس التقليديّة، وحدّاد يركّب صفائح للدّواب ويعدّ أسنان المنجل على العظم ويطرق المسحاة والفاس وسكّة المحراث، ونجّار يصنع من خشب التوت الكرّيطة والمحراث العربي، وغرابلي يصلح غربالا، وبرادعي يحشو البردعة بالتبن، ونسّاج يصنع الحبال وينسج المخالي والأكياس وستائر الأبواب من شعر الماعز، وصانع الحلفاء يضفر الزنابيل والسلال والقرابيل للنواعير، وفخاري يصنع القرميد والآجر والقلال والقواديس، ونحايسي يطلي الأواني، وفرانقي يسخّن الماء للحمّام، وخبّاز يحمي الكوشة بحطب الإكليل، أو يخرج منها الخبز الناضج مناديا باسم صاحبه بمجرّد رؤية العلامة المميّزة.

أمّا بقيّة الحوانيت فللجزّار والخضّار والإسكافي والحلاّق والقمّاش والفطايري و..... إنّ أجمل ما يُرى في السوق عرض الخضر والغلال مساء الخميس استعدادا ليوم الجمعة – يوم السوق الأسبوعيّة – حيث يعجّ بانتصاب الباعة الجوّالين، وقد عرضوا الملابس والأحذية والعقاقير ومختلف البضائع للوافدين من الريف، يبيعون البيض والدجاج والأغنام والعسل، ويشترون الشاي والسكر والحلوى وما احتاجوا من ملابس وأغذية معلّبة. ذلك يوم التبادل التجاري بين المدينة والريف. وفي ناحية من السوق طبيب رعواني يقلع الأضراس المتسوّسة، ويداوي بالحشائش والأدهان. وفي ناحية أخرى فداوي يقصّ للمتحلّقين حوله الملاحم والسّير، ويبيع لهم قصص الأنبياء والعشّاق... وللنساء في البيوت شؤون لا تنتهي..

كيف أودّعك يا تستور الساكنة فيّ وأنت روحي وهويّتي ؟ وكيف أحبّ تستور الأخرى التي أسكنها وهي تنفصل عنّي ؟

مـراجـع مضـافـة

(راجع البيبليوغرافيا في كتابنا : تستور/ تاريخ ورحلات. - ميدياكوم، تونس 1994)

1- **ابـن الخوجـة** (محمـد) : الرحلـة الفلياريـة. - تونـس 1330هـ/1912م ص246-248.

2- **أرسـلان** (شكيب) : حاضر العالم الإسلامي. - ط3، ج2، ص49 (الهامش).

3- **الحمـروني** (أحمد) : تستور. - في : معجم المدائـن التونسيّة، ميديـاكوم، تونس، ط1 : 1997، ط2 : 1998.

4- **الحمـروني** (أ.) : الجـنّ والسّحر والخوف في مجتمع موريسـكي : تستور. - المجلة التاريخيّة المغاربيّة ع 89-90، ماي 1998، ص109-114 (الملخص الفرنسي ص241-242 بقلم لطفي الصيد).

5- **الحمـروني** (أ.) : سليمان مصطفى زبيس. - المجلـة التاريخيـة المغاربيـة، ع 89-90، ماي 1998 ص273-289، (الملخص الفرنسي ص 243-244).

6- **الحمـروني** (أ.) : علم الزيتونة الشيخ إبراهيم الريـاحي / دراسـة ونصـوص. - ميدياكوم، تونس 1996.

7- **الحمـروني** (أ.) : الموريسكيون الأندلسيون في تونس / دراسة وبيبليوغرافيـا. - ميدياكوم، تونس 1998.

8- **الركبـاني** (عمر) : خلاصة التاريخ التونسي. - تونس 1946 ص12.

9- **العدواني** (محمد) : تاريخ العدواني. - تحـ. أبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسـلامي، بـيروت، ط1 : 1996 ص260 (قـبر تسـتور)، ص183 (عمـران التستوري).

10- **القفصـي** (عبد الحكيم) : إبراهيم التيلي التونسي مكتشف الطبعة الأولـى من قصّة دون كيخوت. - في : جماعي : تونس، أعلام ومعالم، وكالـة إحيـاء التراث والتنمية الثقافية، تونس 1997، ص127-131.

11- **المنّوني** (محمد) : ملامح من تطـوّر المغـرب العربـي فـي بدايـات العصـور الحديثة. - في : أشغال المؤتمر الأوّل لتاريخ المغرب العربي وحضارتـه، مركـز

الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1979 ج2 ص 75-113 (خاصة ص87).

12- **الناصري** (الأمين) : التصوّر الجديد للإحياء الزراعي : المنطقة السقوية بتستور. - مجلة أطروحات، ع 17 (جوان 1990) ص 39-43.

13- **BERBRUGGER** (A.) : Itinéraires archéologiques en Tunisie. - in : Revue Africaine, n° 1, années 1856-1857, p. 385-387.

14- **BLAIECH** (Mamdouh) : Essai d'un mode de production de l'habitat participatif et endogène... Testour. - Thèse du 3ème cycle présentée à l'I.T.A.U.T., Tunis 1985 (Dactyl.).

15- **BOYE** (Capitaine Marius) : Vallée de la Medjerda, description géogr. et archéo. de ... - in : Bull. de la Société de géogr. de Toulouse, 1888, P. 40-52, 154-167; 1890, P. 143-155.

16- **HOPKINS** (N.S.) : Les classes moyennes dans une ville moyenne : Testour. - dans : Les classes moyennes au Maghreb, Paris (CNRS) 1980, P. 144-165.

17- **HOPKINS** (N.S.) : L'Islam populaire dans l'Egypte et la Tunisie rurales : L'imaginaire et structures sociales. - dans : Bulletin du CEDEJ, n°26 (1989), P. 227-240.

18- **HOPKINS** (N.S.) : Women work and wages in two arab villages. - in : The eastern anthropologist, April 1991, P. 103-123.

19- **KHARRAT** (Fekher) : Pour une architecture appropriée et un développement intégré / Etude et projetation à Testour et Oued Jedra. - Thèse présentée à l'Ecole d'Architecture de Tunis, 1980, (Dactyl.).

20- **MAHJOUBI** (Ali) , KAROUI (Hechmi) : Quand le soleil s'est levé à l'Ouest. Tunisie 1881, Impérialisme et résistance. - Cérès productions, Tunis 1983, P. 118 (Attaque d'Ali Bey près de Testour), P 152 (Procession).

21- **MONTELS** (Jules) : Les juifs de la Tunisie : Rebbi Fradji Chaouat.- Revue Tunisienne 1894, P. 151-158.

22- **OLIVER ASIN** (Jaime) : Tazatore, un pueblo de moriscos en Tunez.- Actas del Coloquio internacional sobre literatura aljamiada y morisca, Oviedo, 10-15/7/1972.

23- **OLIVER ASIN** (J.) : Un pueblo de moriscos en Tunez, residencia en el siglo XVII del poeta Juan Pérez.- Instituto Internacional, Madrid, 13, XI, 1974.

24- **SAADAOUI** (Ahmed) : Deux sanctuaires israélites de Testour. - dans : Arab Historical Review for Ottoman Studies (Février 1992), P.97-106 (Extrait de : Testour..., Paris, Sorbonne, 1987, dactyl.; éd. Fac. Lettres, La Manouba, Tunis 1996).

25- **SAADAOUI** (A.) : Testour du XVIIe au XIXe si. (Thèse). - Fac. Lettres (La Manouba), ANEP, Tunis 1996.

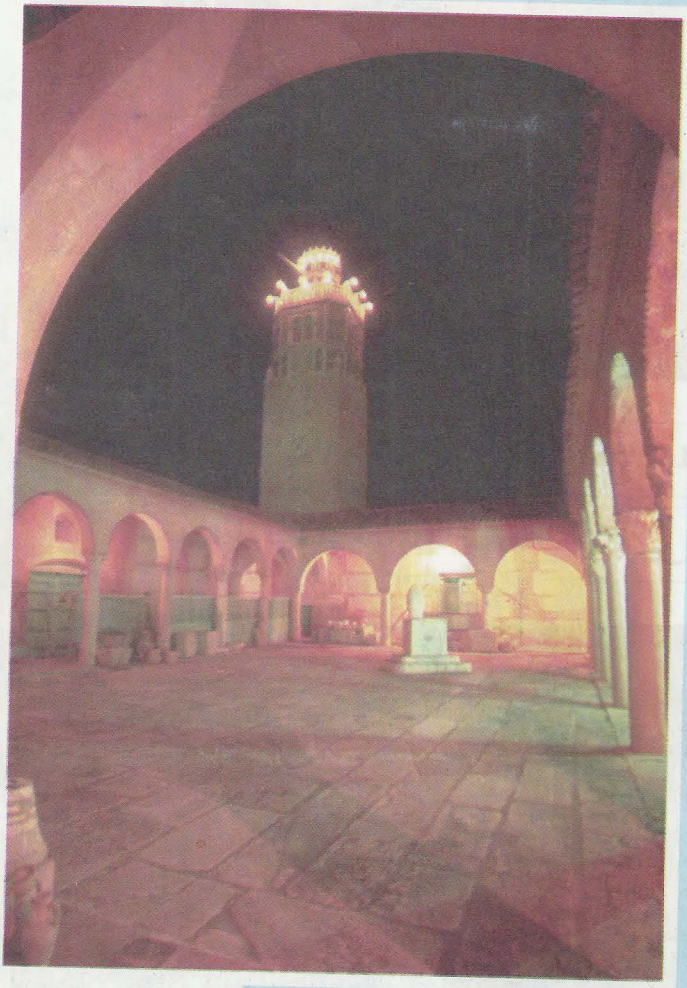

LA GRANDE MOSQUÉE

الجـــامع الكبيـــر

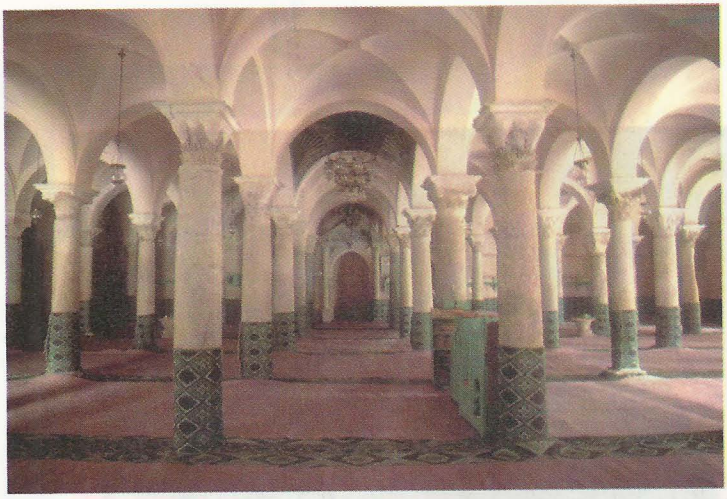

SALLE DE PRIERE DE LA GRANDE MOSQUEE

بيت الصلاة بالجامع الكبير

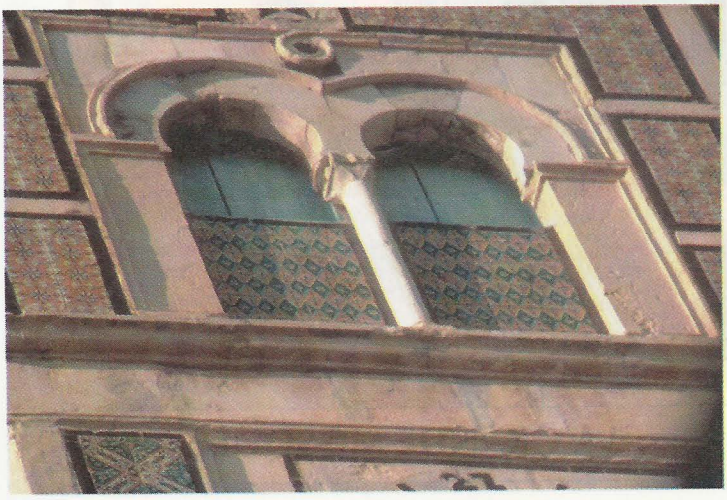

FENETRES DU MINARET DE LA GRANDE MOSQUEE

نوافذ الصومعة بالجامع الكبير

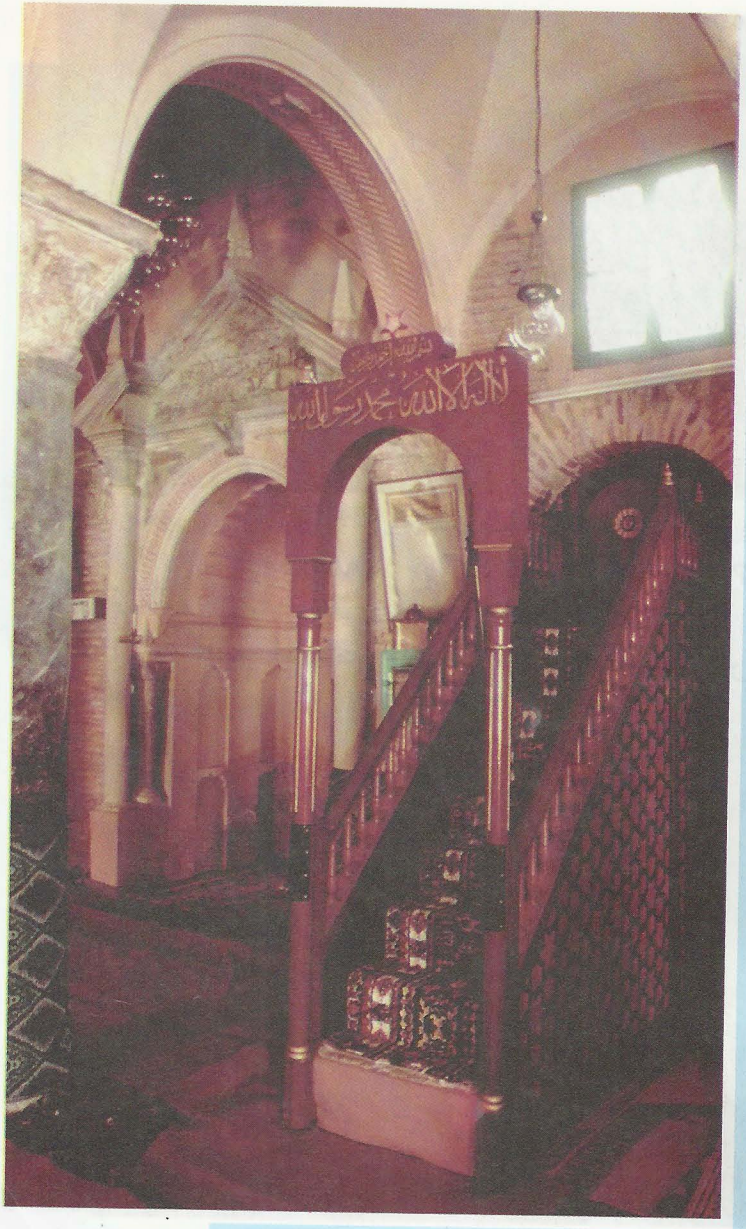

ORATOIRE DE LA GRANDE MOSQUEE

منبر الجـــامع الكبيـــر

COUPOLE DU MIHRAB DE LA GRANDE MOSQUEE

قبة المحراب بالجامع الكبير

TOITURE EN TUILES DE LA GRANDE MOSQUEE

سقف مقرمد بالجامع الكبير

MAISON BOU KHCHIM

دار بو خشيم

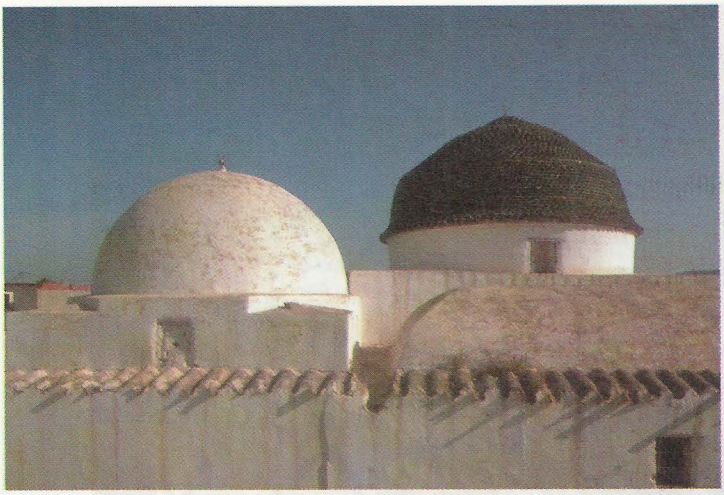

ZAOUIA DE SIDI NASR GAROUACHI

زاوية سيدي نصر القرواشي

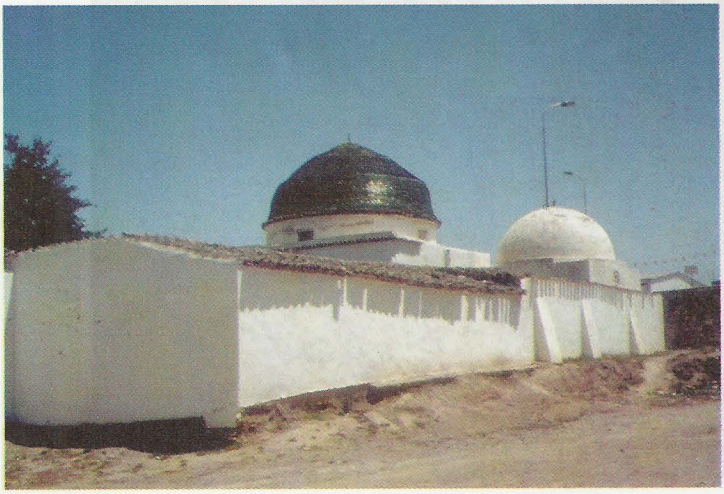

ZAOUIA DE SIDI NASR GAROUACHI

زاوية سيدي نصر القرواشي

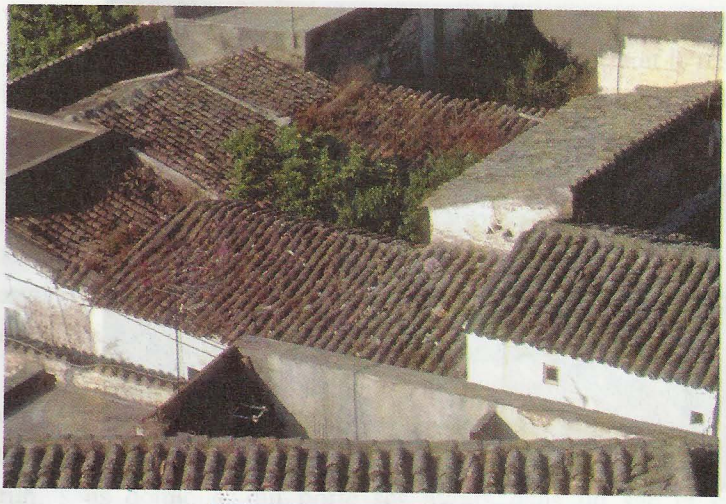

TISSU URBAIN ANDALOU

نسيج عمراني أندلسي

MAISON ANDALOUSE

دار أندلسية

MAISON JUIVE

دار يهودية

MAISON ANDALOUSE

دار أندلسية

exclue, en particulier de ceux qui ont la réputation d'être sévères comme Sidi Ahmed Boughrara. Le recours à la diseuse de bonne aventure « Daggaza » ou à la voyante pour déterminer l'origine de l'acte occulte est également fréquent. Or, quel que soit le résultat, la victime portera à jamais les séquelles de la peur liée à l'ensorcellement.

Le pendant de la sorcière dont l'acte provoque la peur et le désarroi, est une autre personne qui procure tranquillité et sentiment de sécurité : le « Meddeb », maître de l'école coranique, qui annihile le mauvais sort, oppose le Livre Saint au Djinn, en écrivant, par exemple, certains versets coraniques sur une feuille que gardera la victime ou dont il boira l'eau après l'avoir trempée.

Aux habitants du village, s'ajoutent des personnes étrangères, à la présence ponctuelle et à l'identité inconnue. Parmi ces visiteurs, qui viennent surtout en été, nous trouvons le « Gharbi » ou le marocain brun, sans domicile, qui porte ses avoirs dans un sac et cache un couteau tranchant, on l'appelle aussi, voleur ou arracheur de cœurs. Il apparaît surtout à l'heure de la sieste, lorsque les rues se vident. Il est source de peur des enfants et des parents pour les leurs. C'est aussi le spectre que brandissent les parents pour faire peur à leurs enfants, afin de les empêcher de sortir et de profiter ainsi pleinement de l'heure du repos. C'est ce marocain que l'on accuse de s'emparer des jeunes enfants, et en particulier, les victimes de prédilection, qui portent une ligne particulière à la paume de la main ou un point noir dans le blanc de l'œil.

Les croyances occultes semblent être aujourd'hui encore un aspect de la foi en général et faire partie de la vie spirituelle et religieuse de l'andalou-morisque en tant que musulman. Pour celui qui est dépourvu de l'arme matérielle, l'évocation de cette foi se transforme, dans nombreux cas, en arme morale. Il en fait usage pour défendre son identité arabo-musulmane et s'ancrer dans sa situation nouvelle. Il n'est point étonnant donc, que l'on trouve à Testour les pratiques occultes souvent anachroniques, et que soient encore vivaces les histoires des Djinns, de résurrection, et de réincarnation.

PEUR ET PRATIQUES OCCULTES A TESTOUR(*)

Les émigrés andalous établis à Testour, depuis le début du XVII[eme] siècle, ont conservé la peur qui les habitait en Andalousie sous le règne des chrétiens espagnols, durant plus d'un siècle de persécution. Dans leur univers psychique cette situation a laissé les traces d'un imaginaire insolite, entérinées par la mémoire collective jusqu'à un passé récent. Les peurs obscures, la présence des esprits et des morts dans le quotidien sont restées une caractéristique des minorités andalouses établies en Tunisie.

L'approche de ses pratiques permet au chercheur de découvrir les rapports qu'elles entretiennent avec certaines personnes et endroits. L'une des personnes qui revient souvent dans ces pratiques de sorcellerie, est généralement une femme de plus de quarante ans, à la personnalité forte, au regard perçant, elle travaille dans l'obscurité et est souvent sollicitée pour ses services occultes par les femmes du village. Ces pratiques occultes sont multipliées à un point tel qu'il était devenu difficile d'en délimiter les responsabilités. Le résultat en est, qu'il est devenu aisé de reconnaître les victimes des actes occultes, mais non celles qui les provoquent. Et, puisqu'il devient difficile de connaître l'origine du mal qui a atteint la victime, on généralise en affirmant qu'il a mangé « la graine morte » et que son salut est dans la « la graine vivante ». Et ce sont là deux graines d'une même plante connue seulement par les pratiquantes, dont l'une « tue », l'autre « ressuscite ». On dit encore que la victime, invitée à manger, a été empoisonnée, la raison étant, par exemple, qu'il est revenu sur une demande en mariage. On raconte aussi, qu'il est marié à un Djinn, ou qu'il a été touché par un Djinn, l'expression courante étant « Il a été manipulé par leurs mains ».

La victime fait souvent le tour des marabouts. L'éventualité qu'il souffre de la colère de l'un des hommes saints connu n'étant pas

---

(*) Résumé traduit par Lotfi Essid et publié dans la Revue d'Histoire Maghrébine, n° 89-90, Mai 1998, P. 241-242. Voir le texte arabe P. 109-114 (الجن والسحر والخوف في مجتمع موريسكي : تستور).

alerté, dut intervenir. Il reconnut la sainteté du défunt et ordonna qu'on laisse la mule continuer son chemin. Elle s'arrêta à Testour entre les cimetières juif et musulman. C'est là que fut enterré le saint Rabbi Fradji Chaouat.

Le Dey ordonna d'élever une kubba autour de la tombe, mais elle s'effondra à trois reprises à peine la construction achevée ; c'est alors que le rabbin apparut en rêve à Youssef Dey et lui recommanda d'abandonner la construction d'une kubba et d'offrir, en échange, de l'huile tous les ans pour la synagogue de Testour.

Depuis ce temps, tous les ans, un pèlerinage attirait une foule de fidèles pour une « Shéouda ». On déposait sur la tombe du saint des bougies et on distribuait des fruits secs et de la boukha.

La foule chantait des piyout (chants liturgiques) et des poèmes à la mémoire du rabbin.

On attribue aux saints de Tunisie, un pouvoir de protection miraculeux, ils sont à la fois craints, redoutés et vénérés par les populations locales.

TRADUCTION

O Seigneur, je viens te visiter
J'apporte le cierge et les fumigations
Et le seigneur habite Testour
Qu'il soit avec nous.
O Seigneur, je viens à toi en pleurs
Les larmes coulent sur mes joues
Et le malade que Dieu le guérisse
ainsi la femme enceinte.
[Les jeunes filles qui désirent
se marier ajoutaient]
Cette année je viens à toi, jeune fille
l'année prochaine je reviendrai
accompagnée d'un enfant.

« يا سيّد جيتك نزور
جبت الشمعة واليخور
والسيّد ساكن تستور
ويكون معـانـا
يا سيّد جيتك نتبكّى
دمعى على خدّي يتكبّى
والمريض ربّ يشفيه
حتّى من المرا العيّانة »
[وتضيـف الفتيـات الراغبـات فـى
الزواج] :
« السنة جيتك صبيّة
والعام الجاي نجيك بوليّد ».

appelée communément « Jamâa El Yahûd ». Cette synagogue se composait d'une salle de prière, d'une cour à ciel ouvert, d'un bain pour le Mikvé et de deux autres annexes.

Les murs badigeonnés à la chaux, teintés d'un bleu pâle, étaient ornés de kandils ou lampes à huile en verre ou en céramique portés par des support en bois sculpté.

Rabbi Fradji Chaouat :

Parmi les membres les plus respectés de la colonie juive de Béjà, était un Rabbin...

Ainsi commence le récit de l'histoire de Rabbi Fradji conté par Jules Montels en 1894 [1]. Ce rabbin, par son savoir et sa science, avait une réputation de « tbib » parmi les populations locales. Après le massacre de sa famille en Espagne, il s'est réfugié au Maroc d'abord, pour s'installer plus tard à Béjà, en Tunisie.

Accablé de soucis et de chagrins, il avait près de cent ans. Il recommanda alors avant de mourir qu'au jour venu, son corps soit posé sur sa mule et qu'on l'enterre là où l'animal s'arrêterait. Son vœu fut respecté, et, à sa mort, un long cortège funèbre partit de Béjà. La mule portant le corps du défunt, s'engage dans la vallée de l'oued de Béjà et à l'approche de la Mejerda, elle rencontra une garnison de Youssef Dey qui avait établi ses troupes à cet endroit-là. Elle continua son chemin et traversa le camp militaire. Les soldats se précipitèrent sur le cortège qui prit la fuite, la mule, elle, continua son chemin avec son chargement, ils tentèrent alors de l'arrêter et frappèrent le cadavre ; leurs bras furent pris de crampes et se paralysèrent. Youssef Dey

---

[1] MONTELS (Jules) : Les juifs de Tunisie. - in : Revue Tunisienne, 1894, P. 151-158.

TESTOUR(*)

Entre Tunis et le Kef, Testour, ville andalouse a été construite sur les vestiges de « Tichilla », dont il ne reste plus de ses monuments romains que des remparts en ruines et les bases d'un moulin sur les rives de la Mejerda. La plupart de ses habitants sont des Tagarins venus de Castille et d'Aragon en 1609 et qui auraient parlé l'espagnol sur près d'un siècle et demi. Ils ont conservé ainsi un patrimoine qui se distingue par l'influence hispano-andalouse dans les coutumes, les arts et les métiers. Testour a connu, après l'Islam des Andalous, une vie religieuse intense, grâce à des savants tel Ali El Kondi (m1708) ou Ibrahim Riyahi (m1850) et à la propagation de confréries mystiques comme les ISSAWIYA qui interfèrent dans les zaouias avec le Malouf.

Aujourd'hui la ville tient une place importante dans le domaine agricole surtout pour ses cultures intensives et sa production fruitière.

Depuis quelques années (1967) un festival de Malouf y est organisé régulièrement.

La communauté juive du village andalou :

Des documents écrits attestent l'existence d'une communauté juive dès la fondation de la ville au début du XVII^{e} siècle.

Si la population juive comptait en 1860 plusieurs centaines d'habitants, la dernière juive a quitté Testour en 1992 pour s'installer à Tunis.

La Hara se trouvait dans le quartier sud de la médina et les habitations d'Israélites se concentraient autour de la synagogue,

(*) Publié dans le catalogue de l'Association Arts et Trad. Pop. des Juifs de Tunisie (Paris), mars 1994, P. 11-12.

Préface

Pourquoi Testour ? Mieux que toute autre cité historique du pays, Testour est le symbole de ce carrefour tunisien à la charnière entre les bassins Ouest et Est de la Méditerranée. Fondée par des Andalous ou Musulmans européens venus d'Espagne à l'époque de l'urbanisme colonial triomphal - *reconquista* d'abord, conquêtes coloniales en Amérique -, elle voit s'établir sur le sol tunisien un large éventail, peut-être représentatif, de familles hispaniques aux origines les plus diverses : Ibères de souches venus à l'Islam, Juifs andalous de souche hispanique ou orientale ou peut-être maghrébine, Berbères en tout cas mêlés à la conquête musulmane et Yéménites surtout ayant constitué le fer de lance de la conquête d'Al-Andalus au VIIIe siècle. J'en veux pour preuve évidente certains d'entre les noms de famille de Testour dont l'auteur a proposé la liste : Bakîl, Bâtîs et Barguîn et sûrement d'autres sur lesquels je suis en train de poursuivre des recherches. Barnîf et Barîn par exemple.

Testour apparaît ainsi comme une synthèse de la mouvance culturelle Maghreb-Espagne. Synthèse qui prend acte des étapes majeures de son évolution. Synthèse en marche avec son damier urbain gréco-romain. Avec le trapèze ouvert qui, au Sud-Ouest de la Grande Mosquée campant excentrée à l'instar d'une cathédrale, n'est pas sans évoquer une Plaza Mayor en règle, en marche aussi avec son érudition musulmane, ses spectacles hispaniques (qui furent) : combats de taureaux et « moros y cristianos », ses repères hagiographiques s'enracinant dans la double tradition maghrébine rurale et espagnole catholique, ses apports économiques dont l'oranger en dehors de toutes sortes de techniques avancées...

Hédi Eckert (Sanâa / Yémen)
Lettre du 21/8/1997

« Testour cultive avec fierté son origine andalouse. Les minarets ressemblent à des clochers, comme ceux de Castille et d'Aragon. Le mausolée de Sidi Nasr, désormais école coranique, est recouvert de tuiles vernissées vertes. La rue principale, avec ses échoppes et son marché, est un condensé de Tunisie... »

Jean-Michel HANSEN / Ouest-France, 21/8/1996

Collection

VILLES

Ahmed HAMROUNI

TESTOUR

Documents et Etudes

* *

MEDIACOM

9, نهج الرائد البجاوي 2061 قرطاج درمش

الهاتف : 303 734 (1. 261) الفاكس : 319 720 (1. 261)

البريد الإلكتروني : E-Mail: mediacom@planet.tn

تدمك : 8 ـ 13 ـ 807 ـ 9973 : ISBN

الطبعة الأولى ـ تونس 1999

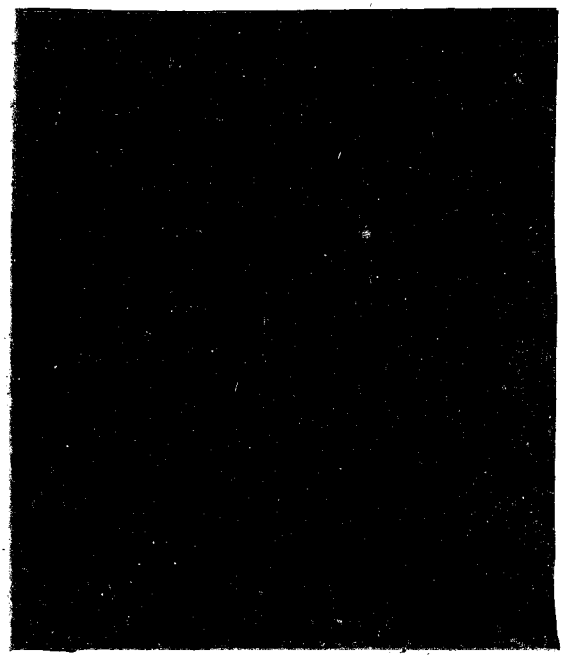

Ahmed HAMROUNI

Testour

Documents et Etudes

MEDIACOM ميدياكوم